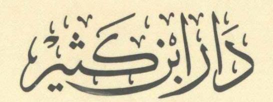
دراسة بيانية في القرآن الكريم

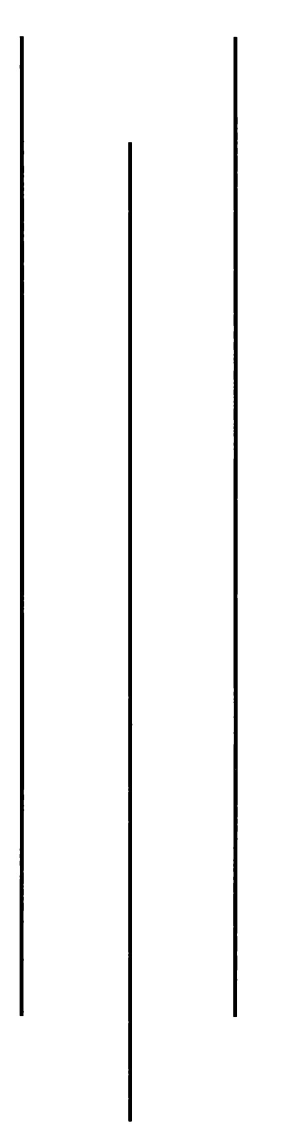
دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل

في كتاب "ملاك التأويل"

تأليف
الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي

تقديم الأستاذ الدكتور
حسام سعيد النعيمي





دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل

في كتاب "ملاك التأويل"

○ الموضوع: لغة عربية
العنوان: دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل
تأليف: الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي

الطبعة الأولى

1437 هـ - 2016 م
ISBN 978-614-415-168-6



○ الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
○ الورق: أبيض / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
○ القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 302 / الوزن: 600 غ



دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دراسة بيانية في القرآن الكريم

دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل

في كتاب "ملاك التأويل"

تأليف

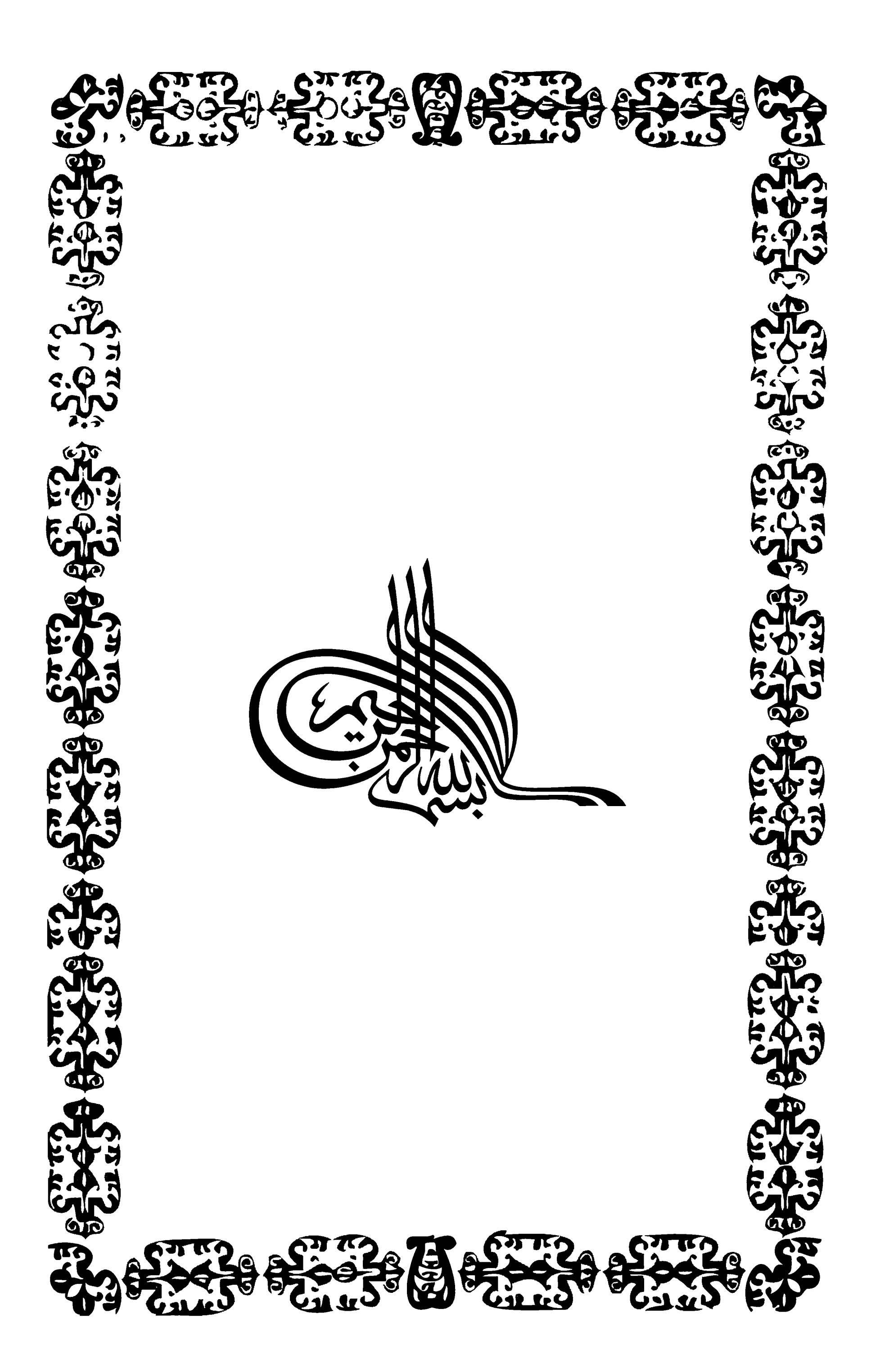
الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي

جامعة الشارقة - كلية الآداب

تقديم الأستاذ الدكتور

حسام سعيد النعيمي




بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

أ. د. حسام سعيد النعيمي

تنزلت آيات القرآن الكريم على العرب وفيهم الشعراء والخطباء وهم أهل الفصاحة والبيان ، فآمن منهم من كان يبتغي الحق ، إذ تيقن أن هذا الكلام ليس من كلام البشر ، فاستجاب لله وللرسول إذ دعاه لما يحييه ، وأما من أخذته العزة بإثمه فقد أقام على كفره مع تبين الحق له وإقراره بعلوّ آيات القرآن على كلام فصحاء العرب وبلغائهم وشعرائهم ، وأصرّ على ضلاله ، ودعا قومه إلى تجنب استماع القرآن وإلى التشويش على قارئه حتى لا يطرق آذان سامعيه فتنفتح له قلوبهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وكتب الله سبحانه لدينه أن ينتشر ، ولكلامه العزيز أن يخالط القلوب فيكون ربيعها ، وتردّده الأفواه على اختلاف ألسنتها. ومضى زمن الفصاحة الفطرية والبيان السليقي ، وصار المتأمل لآيات الكتاب الكريم يقف عند بعض ما تقارب معناه وتنوّع لفظه ، يقلّب الفكر في عبارته ويسأل عن تقديم اللفظ هنا وتأخيره هناك ، وعن ذكره في هذه الآية وحذفه في تلك ، وعن استعمال الاسم في موضع واستعمال الفعل في موضع ، وغير هذا مما لم يكن أمره غائبًا عن الأمة في أيام تنزّل القرآن. فانبرى لذلك علماء الأمة يوضّحون ويبيّنون جاهدين في تقريب الأفهام إلى ما كان العربي يدركه من اللغة بالفطرة والسليقة.

ومن هنا جاء التأليف في تلمّس أسرار البيان القرآني ، ومن ذلك كتاب (ملاك التأويل) لأحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) الذي عكف على دراسته الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي. لقد استطاع الدكتور محمد في دراسته القيّمة هذه أن يستخرج من الكتاب لباب أفكاره وأن يعيد تصنيفها وتوزيعها وتبويبها وتحليلها موازنًا ذلك بتوجيهات من تقدّم مؤلفه من العلماء أو من نسج على منواله من بعده ، مرجّحًا ما يراه أهلاً للترجيح بناءً على ما أورده علماء التفسير من آثار ، وما استنبطه علماء اللغة والنحو والتصريف من كلام العرب ، وما وصلت إليه دراسات المعاصرين في هذا الباب ، من هنا تعدّدت مصادره وتنوّعت وجمعت بين القديم والحديث.

واستطاع الدكتور محمد من كل ذلك أن يُخرج لنا دراسة أصيلة مبنية على القواعد العلمية الرصينة ، تسير بالقارئ إلى شاطئ الإقرار بعلم ويقين بأن كلام الله سبحانه لا تنقضي عجائبه ، وأن كل كلمة فيه جاءت في موضعها الذي لا يغني عنها فيه مجيء ما رادفه من الألفاظ ، وأن كل آية جاءت في مكانها الذي لا يغني عنها فيه مجيء آية مقاربة من موضع آخر. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] ، فجزاه الله خيرًا على ما قدّم من دراسة وما بذل من جهد ، وأرجو أن يجد القارئ فيما بين يديه ما وجدتُه من فائدة.

* * *



المقدّمة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فإنه لما كان موضوع رسالتي في الماجستير (دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل) ، وكتاب (ملاك التأويل) لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) وددت أن أذكر السبب الذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع .

أذكر أني عندما كنت أحفظ القرآن الكريم كانت تمر بي آيات متشابهة في اللفظ ، مختلفة في كلمة ـ أو أكثر ـ من حيث التقديم والتأخير ، أو الذكر والحذف ، أو الإفراد والجمع ، أو غير ذلك . وكثيراً ما كنت في أثناء مراجعة حفظي أجعل إحدى الآيتين المتشابهتين مكان الأخرى للتشابه الكبير الذي بينهما . ولم أكن أستطيع أن أتقن الحفظ إلا بعد كثرة التكرار . ولعل هذا معاناة الكثيرين ممن يحفظون القرآن الكريم . وكثيرًا ما كنت أسأل نفسي : لماذا كانت هذه الآية بهذه الصيغة والآية المشابهة لها بالصيغة الأخرى ولم يكن العكس مثلاً ؟

وإليك مثالاً على ذلك : لماذا قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ٩٥] بالنفي بـ (لن) ، وفي سورة الجمعة : ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة : ٧] بالنفي بـ (لا) علماً بأن الكلام في كلتا الآيتين على بني إسرائيل ؟

وهذا مثال آخر: لماذا حذفت نون (تكن) من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وذكرت في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] والخطاب في كلتا الآيتين للنبي عليه الصلاة والسلام؟

إلى غير ذلك من الآيات المتشابهة.

وكنت أقول في نفسي: لا بد أن يكون هناك سبب جعل كل لفظة تأتي في المكان الذي جاءت به، ولو كنت أعرف هذا السبب لأعانني على إتقان الحفظ؛ لأن معرفة السبب تعين على جودة الحفظ وسرعته.

ثم سمعت أن هناك من العلماء القدامى من كان يُعنى بتوجيه الآيات المتشابهة ويبيّن سبب تخصيص كل آية بالصيغة التي وردت بها، فوقفت على كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي، وكتاب (البرهان في توجيه متشابه القرآن) لمحمود بن حمزة الكرماني، وكتاب (ملاك التأويل) لأبي جعفر ابن الزبير الغرناطي. وبعد أن قرأتها كلها وجدت أن الكتاب الأخير أوسعها مادة وأوضحها عبارة، فأعدت قراءته بتؤدة وتمهل فرأيت فيه الكثير من الآيات المتشابهة التي كنت أبحث عن توجيهها. فأزمعت أن أدرس هذا الكتاب، وأن أقف على نماذج من الآيات المتشابهة التي ذكرها المؤلف لأرى مدى توفيقه في توجيهاته، أي في بيانه سبب تخصيص كل آية بما خصت به، وذلك من خلال عرض رأيه مع الآراء الأخرى سواء كانت هذه الآراء مذكورة في كتب المتشابه التي ذكرتها أم في كتب التفاسير أم في كتب علوم القرآن أم في غيرها من الكتب.

وقد حُقِّق كتاب (ملاك التأويل) تحقيقين، قام بأحدهما الدكتور محمود كامل أحمد، وأما الآخر فقد قام به الدكتور سعيد الفلّاح ونال عليه شهادة الدكتوراه، وهذا التحقيق الأخير مسبوق بدراسة وافية عن

حياة المؤلف وعصره وكتابه. وقد اعتمدت التحقيق الأول. وإذا رجعت إلى تحقيق الفلاّح فإني سأشير في الهامش إلى ذلك بقولي: (تحقيق الفلاّح).

وتختلف دراستي عن دراسة الدكتور سعيد الفلاّح في أمور كثيرة، منها أني أضفت معلومات عديدة في تعريفي بالكتاب أغفلها الدكتور سعيد. كما صححت بعض اجتهاداته التي ذكرها في أثناء دراسته هذا الكتاب. وفي كلامي على شواهد ابن الزبير ومصادره فصّلت القول بصورة أوسع مما في دراسة الدكتور سعيد. وقد انفردت دراستي بذكر ملاحظاتي على المؤلف في طريقته، وبذكر مآخذي عليه في الكتاب.

تتكون الرسالة من تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة:

يحوي التمهيد دراسة موجزة عن حياة المؤلف تناولت فيه اسمه ونسبه وولادته وسيرته ومكانته العلمية وشيوخه وتلامذته ومؤلفاته ووفاته. وقد أوجزت القول في ذلك كله؛ لأني سُبقت بدراسة مفصلة عن حياته للدكتور محمود كامل، وبدراسة أكثر تفصيلاً للدكتور سعيد الفلاّح، فقد فصّل الأخير القول عن عصره وحياته ومكانته العلمية بصورة لا نجدها في دراسة الدكتور محمود كامل. كما يضم التمهيد دراسة موجزة عن علم المتشابه اللفظي شمل التعريف به والكلام على أنواعه وأهم الكتب المؤلفة فيه.

أما **الفصل الأول** فقد تناولت فيه دراسة الكتاب، فعرّفت به، ثم بينت الغرض من تأليفه، ثم ذكرت طريقته وملاحظاتي عليها. كما فصّلت القول في شواهده من القراءات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر العربي وأقوال العرب النثرية وأمثالهم. كما بسطت القول عن مصادره، ثم ذكرت مآخذي على ابن الزبير في كتاب الملاك. وختمت الفصل بالكلام على قضية تتعلق بكتاب ابن الزبير (ملاك التأويل) وكتاب (معترك الأقران) للسيوطي.

وأما **الفصل الثاني** فقد خصصته لدراسة اختلاف المفردة في الآي المتشابه الذي ذكر في الملاك. وقد جعلته في مبحثين:

فتناولت في المبحث الأول اختلاف أبنية الألفاظ، فدرست اختلاف المفردة من حيث كونها اسمًا أو فعلاً، ثم ذكرت اختلاف أبنية الأسماء، وبعد ذلك تكلمت على اختلاف أبنية الأفعال.

وفي المبحث الثاني درست أحوال المفردة من حيث التنكير والتعريف، وتذكير الفعل وتأنيثه، وتعاور الحروف، وختمت المبحث بالكلام على الفروق اللغوية في بعض الآيات المتشابهة المذكورة في الملاك.

وفي **الفصل الثالث** ـ وهو الأخير ـ بسطت الكلام على دراسة التركيب في الآي المتشابه المذكور في الكتاب. وقد جعلته على أربعة مباحث: فتكلمت في المبحث الأول على التقديم والتأخير، وخصصت المبحث الثاني للذكر والحذف، وجعلت المبحث الثالث للتأكيد، وأما المبحث الرابع ـ وهو الأخير ـ فقد تكلمت فيه على التكرار في الآيات القرآنية.

وأما **الخاتمة** فقد لخصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

منهجي في البحث:

١ ـ تخريج القراءات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر وأقوال العرب النثرية وأمثالهم من مظانّها ما وسعني ذلك.

٢ ـ ذكر سنوات الوفيات للأعلام الذين ذكرتهم. ومنهجي في ذلك الاكتفاء بالمرة الأولى من ذكرهم، إلا إذا اقتضت الضرورة ذكر سنة الوفاة أكثر من مرة.

٣ ـ إذا كانت الآيات توجّه بناءً على قاعدة نحوية أو صرفية فإني أذكر

الآيتين المشابهتين ـ أو الآيات المتشابهة ـ ثم أذكر هذه القاعدة ، ثم أبسط الآراء وأجعل في مقدمتها رأي ابن الزبير ثم آراء الباقين مرتبة على حسب سني وفيات أصحابها لنرى مطابقة التوجيهات لهذه القاعدة.

وقد أعكس الأمر ما وجدت إلى ذلك ضرورة علمية ، فأذكر القاعدة النحوية أو الصرفية أولاً ثم أذكر الآيتين المتشابهتين ـ أو الآيات المتشابهة ـ ثم أبسط الآراء.

٤ ـ قد أذكر الآيتين المتشابهتين في أكثر من مبحث إذا كان الأمر يتطلب ذلك ، وذلك كأن تشمل الآيتان على تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ، وتباين في صيغ الجموع... وغير ذلك ، فأذكرهما في كل مبحث من هذه المباحث.

وبعد:

فإني أقر وأعترف أني لم أوف هذا الموضوع حقه من الدراسة ، ولكن أرجو أن أكون قد أوفيته بعض حقه. ولا يخلو عمل ابن آدم من الخطأ والزلل ، فما كان في هذا البحث من صواب فهو من فضل الله تعالى وله الحمد أولاً وآخرًا ، وما كان فيه من غير ذلك فمن نفسي ، وأسأل الله تعالى أن لا يحرمني أجر المجتهدين.

وأخيراً: أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى أستاذي الدكتور محمد حسين آل ياسين الذي تفضل مشكوراً بالإشراف على هذا البحث ، وجاد عليّ بالكثير من وقته وجهده وعلمه ، وصبر عليّ في مواطن يقل فيها صبر الصابرين ، فأسال الله تعالى أن يثيبه على ذلك أجزل الثواب.

وأتقدم بوافر الشكر والامتنان إلى أستاذي الفاضل الدكتور حسام النعيمي الذي تفضل بتقديم هذا البحث بعد قراءته وتقويمه.

كما أشكر كل من مد لي يد العون والمساعدة في هذا العمل المتواضع.

نسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتّباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *



التمهيد

أولاً ـ ترجمة المؤلف[1]

*** اسمه ونسبه:**

اختلفت المصادر التي ترجمت له في سرد اسمه ونسبه إيجازًا وتفصيلاً. ولم أقف على مصدر أكثر استقصاءً لاسمه ونسبه مما ذكره ابن عبد الملك الأنصاري (ت ٧٠٣ هـ) في (الذيل والتكملة) فهو معاصر له، وقد ذكر أنه نقل نسبه من خط ابن الزبير نفسه، وعلى هذا فهو أصح ما وصل إلينا. يقول ابن عبد الملك: «أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين بن الزبير ثم ابن عاصم ابن مسلم بن كعب الثقفي العاصمي. كذا نقلت نسبه من خطه،

---

(١) مصادر الترجمة: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ١/ ٣٩ ـ ٤٥، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨٤، الإحاطة في أخبار غرناطة ١/ ١٨٨ ـ١٩٢، الوافي بالوفيات ٦/ ٦٢٢ ـ٦٢٣، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ١ / ١٩٧، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ٢٩١ ـ٢٩٢، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ١/ ١٨٨ ـ١٨٩، درة الحجال في أسماء الرجال ١/ ١١، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/ ١٩، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/ ٣٣ ـ٣٤، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ١/ ١٠٣، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ٢١٢.

جيّاني[1] ، نزيل غرناطة أبو جعفر بن الزبير» [2] .ثم يواصل سرد نسبه فيقول: «وكعب الذي انتهى إليه بنسبه هو كعب بن مالك بن علقمة بن خبّاب بن مسلم بن عدي بن مرة بن عوف بن ثقيف» [3] . يكنّى بأبي جعفر ، وعرف بنسبته إلى جده الأول الزبير وغلب ذلك عليه.

*** ولادته:**

اتفقت أكثر المصادر التي ترجمت له على أن ولادة ابن الزبير كانت بجيّان سنة سبع وعشرين وستمائة للهجرة[4] ، غير أن ابن عبد الملك الأنصاري ـ وهو معاصر له ـ قال: إنه ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجرة.

والراجح عندي هو ما ذهب إليه ابن عبد الملك ؛ لأنه إذا كانت وفاة ابن الزبير سنة ثمان وسبعمائة للهجرة ـ كما سأذكر ذلك ـ وأخذنا بسنة ولادته التي ذكرها ابن عبد الملك فإننا نرى أن الفرق بين السنتين ثمانون سنة. وتذكر المصادر أن هذا هو عمره الذي توفي فيه كما سأشير إلى ذلك فيما بعد والله أعلم.

*** سيرته:**

تذكر المصادر التي ترجمت له وتكلمت على ورعه وتقواه وسيرته الخلقية أنه كان كثير الخشوع والخشية ، وكان خيّرًا صالحًا ثقة كثير

---

(١) جَيّان: بالفتح ثم التشديد وآخره نون: مدينة لها كورة كبيرة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة ، مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة ، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخًا. (معجم البلدان ٢/ ١٩٥).

(٢) الذيل والتكملة ١/ ٣٩.

(٣) الذيل والتكملة ١/ ٣٩.

(٤) ينظر على سبيل المثال: تذكرة الحفّاظ ٤/ ١٤٨٤ ، ودرّة الحجّال ١/ ١١ ، وهدية العارفين ١/ ١٠٣.

الصدقة أمّارًا بالمعروف نهّاءً عن المنكر ، لا ينقل قدمه إلى أحد[1].

وأصدق ما نُقِل عنه ما ذكره تلميذه أبو حيان النحوي (ت ٧٤٥ هـ) ، فقد نقل عنه الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) أنه قال: «كان أفصح عالم رأيته ، وأشفقه على خلق الله تعالى ، أمّارًا بالمعروف ، له صبر على المحن ، يضحك تبسمًا ، وكان ورعًا عاقلاً»[2]. ولا عجب في ذلك فهذه سمات العلماء العاملين.

* **مكانته العلمية:**

ولع ابن الزبير بالعلم منذ نعومة أظفاره ، فقد بدأ في طلب العلم قبل خروجه من جيّان سنة ثلاث وأربعين وستمائة للهجرة[3] عند تغلب العدو عليها ، وقد كان عمره عند خروجه خمسة عشر عامًا تقريبًا.

وقد ذكر ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) أنه طلب العلم سنة ست وأربعين وستمائة للهجرة[4]. وإذا أخذنا بهذه الرواية فهذا يعني أنه طلب العلم بعد خروجه من جيّان ، أي كان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة.

وما ذكره ابن العماد غير معقول عندي ، فمن المعروف أن ابن الزبير عالم بشتّى أنواع المعارف والعلوم ، فكيف يعقل أنه أضاع ثمانية عشر عامًا من عمره لا يتلقى العلم ولا يحرص على مجالسة العلماء؟ ومتى تكونت عنده هذه الذخيرة العلمية إن لم يحرص على مجالس العلم في بداية نضجه العلمي؟

وقد اشتغل ابن الزبير بأنواع مختلفة من العلوم كعلوم القرآن والحديث

---

(١) بنظر الإحاطة ١/ ١٨٩ ، والدرر الكامنة ١/ ٩١ ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١/ ٢٩٢ ، والديباج المذهب ١/ ١٨٩.

(٢) الوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٣) ينظر الإحاطة ١/ ١٨٨.

(٤) ينظر شذرات الذهب ٦/ ١٦.

واللغة والبلاغة وغير ذلك كما سنرى أثر ذلك في دراستنا كتابه (ملاك التأويل).

جاء في كتاب (الذيل والتكملة) أن ابن الزبير «من أهل التجويد والإتقان، عارف بالقراءات، حافظ للحديث، مميّز لصحيحه من سقيمه، ذاكرٌ لرجاله وتواريخهم، متسع الرواية، عني بها كثيرًا ورحل بسببها إلى سبتة وإلى كثير من بلاد الأندلس، وصنف في كثير من المعارف التي عني بها» [١].

ووصفه تلميذه أبو حيان (ت ٧٤٥ هـ) ـ كما ذكر الصفدي ـ بأنه كانت «له اليد الطولى في علم الحديث والقراءات والعربية ومشاركة في أصول الفقه» [٢].

ووصفه شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) بأنه كان شيخ القراء والمحدثين بالأندلس[٣].

ويقول السيوطي (ت ٩١١ هـ): «وبه أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها» [٤].

* **شيوخه:**

كان لشيوخ ابن الزبير الأثر الأكبر في أن يكون ملمًّا بعلوم كثيرة، فقد أخذ العلم بفنونه المختلفة عن علماء كثيرين بلغوا نحو الأربعمائة كما ذكر ابن فرحون[٥](ت ٩٢٢ هـ) أشهرهم:

---

(١) الذيل والتكملة ١/ ٤٣.
(٢) الوافي بالوفيات ٦/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣.
(٣) ينظر تذكرة الحفّاظ ٤/ ١٤٨٤.
(٤) بغية الوعاة ١/ ٢٩٢.
(٥) الديباج المذهب ٤٢.

سعد بن محمد الحفّار (ت ٦٤٥ هـ) [١] ، وعلي بن محمد الشاري (ت ٦٤٩ هـ)[٢] ، وأبو عبد الله محمد بن يوسف الطنجالي (ت ٦٥٣ هـ)[٣] ، وأبو زكريا يحيى بن أبي الغصن (ت ٦٩٠ هـ) [٤] ، وأبو علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد ابن أبي الأحوص (ت ٦٩٩ هـ) [٥] ، وأبو الخطاب عمر بن محمد بن خليل السكوني (ت ٧١٧ هـ) [٦] ، وأبو الحجاج يوسف بن أبي ريحانة المالقي (ت ٧٢٠ هـ) [٧]وغيرهم كثير.

وقد جعل الدكتور محمود كامل من شيوخه علي بن عبد الله بن خلف ابن النعمة أبا الحسن الأنصاري (ت ٥٦٧ هـ) [٨] ، وقد رجعت إلى كتاب (غاية النهاية في طبقات القرّاء) ـ وهو الكتاب الذي اعتمده في ترجمته ـ فلم أجد اسم أحمد بن الزبير الغرناطي ضمن تلامذته ، وإنما هناك شخص آخر اسمه أحمد بن الزبير. جاء في كتاب (غاية النهاية): «قرأ عليه الحسن ابن محمد. . . وأبو جعفر أحمد بن الزبير القضاعي» [٩]. ثم كيف يكون شيخه ، وولادة ابن الزبير كانت سنة (٦٢٨ هـ)؟

كما ذكر الدكتور محمود أن من شيوخه محمد بن أحمد بن عبد الملك

---

(١) ينظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨٤ ، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٢.
(٢) ينظر الذيل والتكملة ١/ ٣٩ ، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨٤ ، والدرر الكامنة ١/ ٨٩.
(٣) ينظر درة الحجال ١/ ١١.
(٤) ينظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨٤ ، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٢.
(٥) ينظر درة الحجال ١/ ١١.
(٦) ينظر الوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٢ ، وبغية الوعاة ١/ ٢٩٢ ، والديباج المذهب ٤٢ ، وشجرة النور الزكية ٢١٢.
(٧) ينظر درة الحجال ١/ ١١.
(٨) ملاك التاويل ١/ ١٦.
(٩) غاية النهاية في طبقات القرّاء ١/ ٥٥٣.

ابن موسى بن أبي جمرة (ت ٥٩٩ هـ) [١] ، والحق أنه ليس شيخه ، وإنما هو شيخ شيخه كما جاء في كتاب (غاية النهاية) الذي اعتمده المحقق ، فقد جاء فيه في ترجمته: «سمع منه التيسير محمد بن عبد الرحمن بن جوبر شيخ الحافظ أبي جعفر بن الزبير» [٢]. وكما هو واضح فإن ولادة ابن الزبير كانت بعد وفاته.

وهذا الكلام ينطبق على الشيخ محمد بن محمد بن حسنون أبي بكر الكناني الحميري المتوفى ما بين سنة ٦٠٤ و٦٠٨هـ. فقد ذكر المحقق أنه من شيوخه[٣] ، علماً بأنه شيخ أبي الوليد إسماعيل العطّار الذي هو شيخ ابن الزبير كما جاء في كتاب (غاية النهاية) [٤]الذي اعتمده المحقق. وكذلك فإن وفاته بعد ولادة ابن الزبير.

*** تلامذته:**

تلمذ لابن الزبير خلق كثير ، من أشهرهم: محمد بن قاسم رمّان (ت ٧٢٩ هـ) [٥] ، ومحمد بن محمد بن سهل الوزير (ت ٧٣٠ هـ) [٦] ، ومحمد بن الأشعري (ت ٧٤١ هـ) [٧] ، وأبو حيان النحوي صاحب تفسير (البحر المحيط) (ت ٧٤٥ هـ) [٨] ، وأبو عمرو بن المرابط (ت ٧٥٢ هـ)[٩] ، وابن سلمون (ت ٧٦٧ هـ) [١٠] وغيرهم.

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٧.
(٢) غاية النهاية ٢/ ٦٩.
(٣) ملاك التأويل ١/ ١٨.
(٤) غاية النهاية ٢/ ٢٤١.
(٥) ينظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨٤ ، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٣.
(٦) ينظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨٤ ، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٣.
(٧) ينظر شجرة النور الزكية ٢١٢.
(٨) ينظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨٤ ، والوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٣.
(٩) ينظر الوافي بالوفيات ٦/ ٢٢٣.
(١٠) ينظر شجرة النور الزكية ٢١٢.

وقد جعل الدكتور محمود كامل من تلامذته أبا عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان بن عمر الوانوغي المتوفى سنة (٨١٩ هـ) [١] ، علماً بأن ولادته كانت في سنة (٧٥٩ هـ) ، أي بعد وفاة ابن الزبير المتوفى سنة (٧٠٨ هـ). جاء في كتاب (بغية الوعاة) ـ وهو أحد الكتب التي اعتمدها المحقق في ترجمته لهذه الشخصية ـ: «ولد سنة تسع وخمسين وسبعمائة بتونس ونشأ بها . . . وسمع مسندها من أبي الحسن بن أبي العباس البطرني خاتمة أصحاب ابن الزبير بالإجازة» [٢] فهو ليس تلميذه وإنما هو تلميذ تلميذه.

وجعل المحقق من تلامذته لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة (٧٧٦ هـ) والمولود سنة (٧١٣ هـ) أي بعد وفاة ابن الزبير بخمس سنوات معتمدًا في ذلك على كتاب (شجرة النور الزكية) [٣] ، وقد رجعت إلى هذا الكتاب فوجدت أن ابن الخطيب هو تلميذ ابنه وليس تلميذه ، فقد جاء فيه: «لسان الدين أبو عبد الله بن سعيد التلمساني الغرناطي يعرف بابن الخطيب. . . ذو الوزارتين. . . أخذ عنه أعلام ، منهم أبو عبد الله العواد. . . وأبو عمر بن أبي جعفر بن الزبير» [٤] فنلاحظ من هذا النص أن لسان الدين قد أخذ العلم عن ابن أبي جعفر وليس عن أبي جعفر مباشرة.

والجدير بالذكر أن تلميذه أبا حيان قد ذكر ابن الزبير في مواضع عديدة من تفسيره (البحر المحيط) [٥] ولكني لم أقف على أية إشارة إلى كتاب

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٢.
(٢) بغية الوعاة ١/ ٣١ ـ ٣٢.
(٣) ملاك التأويل ١/ ٢٣.
(٤) شجرة النور الزكية ٢٣٠.
(٥) ينظر على سبيل المثال ١/٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١٨٩ ، ٣٤١ ، ٢/١٧٦ ، ٣/ ٤٨٢ ، ٥/٢٦ ، ٧/٨ ، ١٦٢.

(ملاك التأويل) في أي موضع منه ، كما لم أقف على أي نص اقتبسه من هذا الكتاب.

* **مؤلفاته:**

كتب ابن الزبير عددًا من المؤلفات ، من أشهرها:

١ ـ الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام[١].

٢ ـ البرهان في ترتيب سور القرآن[٢]. وهذا الكتاب مطبوع بتحقيق الدكتور سعيد الفلاّح. وقد طبع باسم (البرهان في تناسب سور القرآن). وقام بنشره جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣ ـ تاريخ علماء الأندلس[٣].

٤ ـ تعليق على كتاب سيبويه[٤].

٥ ـ ردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية وإبداء غوائلها الخفية[٥].

٦ ـ الذيل على صلة ابن بشكوال[٦].

٧ ـ الزمان والمكان[٧].

٨ ـ سبيل الرشاد في فضل الجهاد[٨].

---

(١) ينظر الذيل والتكملة ١/ ٤٤.
(٢) ينظر الإحاطة ١/ ١٩٠.
(٣) ينظر الذيل والتكملة ١/ ٤٤.
(٤) ينظر بغية الوعاة ١/ ٢٩٢.
(٥) ينظر الذيل والتكملة ١/ ٤٤.
(٦) طبقات المفسرين ١/ ٢٨.
(٧) ينظر الذيل والتكملة ١/ ٤٤ ، والإحاطة ١/ ١٩٠.
(٨) ينظر الإحاطة ١/ ١٩٠.

٩ ـ شرح الإشارة للباجي في الأصول[١] .

١٠ ـ صلة الصلة[٢] . وهو كتاب مطبوع بتحقيق ليفي بروفنسال ـ الرباط ١٩٣٧م .

١١ ـ معجم شيوخه[٣] .

١٢ ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل[٤] . وهو الكتاب الذي سأقوم بدراسته .

*** وفاته:**

توفي ابن الزبير ـ رحمه الله ـ بغرناطة في يوم الثلاثاء في الثامن من ربيع الأول سنة ثمان وسبعمائة للهجرة ، وكان عمره ثمانين سنة[٥] .

ومما قيل في رثائه ما ذكره لسان الدين بن الخطيب عن القاضي أبي جعفر ابن أبي حبل :

عزيز على الإسلام والعلم ماجد فكيف لعيني أن يلم بها الكرى
وما لمآقٍ لا تفيض جفونها نجيعًا على قدر المصيبة أحمرا
فوالله ما تقضي المدامع بعض ما يحقّ ولو كانت سيولاً وأبحرا
حقيق لعمري أن تفيض نفوسنا وفرض على الأكباد أن تتفطرا[٦]

* * *

---

(١) ينظر الإحاطة ١/ ١٩٠ .
(٢) ينظر الإحاطة ١/ ١٩٠ .
(٣) ينظر الذيل والتكملة ١/ ٤٤ .
(٤) ينظر الذيل والتكملة ١/ ٤٤ ، والإحاطة ١/ ١٩٠ .
(٥) ينظر تذكرة الحفّاظ ٤/ ١٤٨٤ ، والإحاطة ١/ ١٩٢ ، والدرر الكامنة ١/ ٩١ .
(٦) الإحاطة ١/ ١٩٣ .

ثانياً ـ علم متشابه القرآن

١ ـ تعريفه:

الشِّـبْه في اللغة: المِثْل. تقول (هو شِبْهه) أي مِثْله. ومعنى المتشابه: المتماثل. جاء في (لسان العرب): «الشِّـبْه والشَّـبَه والشَّبيه: المِثْل، والجمع أشباه. وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله... وشبَّهه إياه وشبَّهه به: مثَّله... والمتشابهات: المتماثلات... والتشبيه: التمثيل»[١].

مما سبق يتضح أن الكلمة مجردةً ومزيدةً ـ على اختلاف أحرف زيادتها ـ تعطي معنى المِثْل وما يتصرف منه.

أما المتشابه في الاصطلاح فينقسم قسمين:

أحدهما: المقابل للمحكم وهو «ما أُمرت أن تؤمن به وتكل علمه إلى عالمه... وقيل: ما لا يدرى إلا بالتأويل ولا بد من صرفه إليه... وقيل: ما يحتمل وجوهًا... وقيل: ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره»[٢].

والثاني: المتشابه اللفظي: وهو «إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة»[٣].

وما يهمنا في دراستنا هذه هو المتشابه اللفظي، وهو النوع الثاني من المتشابه.

---

(١) لسان العرب (مادة شبه) ١٧/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٦٩ ـ ٧٠، وينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/ ٣ ـ ٤.

(٣) البرهان للزركشي ١/ ١١٢، وينظر الإتقان ٣/ ٣٣٩.

٢ ـ أنواع المتشابه اللفظي:

ينقسم المتشابه اللفظي على أقسام. وقد ذكر الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في كتابه (البرهان) ثمانية منها وهي:

أولاً: ما كان في موضع على نظم وفي آخر على عكسه، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ [الحج: ١٧].

ثانيًا: ما يشتبه بالزيادة والنقصان نحو قوله سبحانه: ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله: ﴿وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

ثالثًا: ما اختلف في التقديم والتأخير، وهو قريب من الأول نحو قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

رابعًا: ما اختلف في التعريف والتنكير نحو قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

خامسًا: ما اختلف في الإفراد والجمع نحو قوله جل وعلا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقوله: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤].

سادسًا: ما كان في موضع على حرف، وفي موضع آخر على حرف غيره نحو قوله جل وعز: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ [طه: ٧١].

سابعًا: ما كان في موضع على كلمة، وفي موضع آخر على كلمة قريبة من معناها نحو قوله سبحانه: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وقوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

ثامنًا: ما اختلف في الإدغام وتركه نحو قوله تعالى: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقوله: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤][1].

ويمكننا أن نضيف إلى الأقسام التي ذكرها الزركشي أقسامًا أخرى وهي:

١ ـ ما اختلف في التوكيد وعدمه نحو قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٢ ـ ما اختلف في صيغ الوصف نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله في السورة نفسها: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٣ ـ ما تباين في صيغ جموعه نحو قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١].

٤ ـ ما اختلف من حيث التجرد والزيادة نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨] وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣].

٥ ـ ما اختلف في أحرف الزيادة نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٤١].

٦ ـ ما اختلف فيه الفعل من حيث البناء للمعلوم والمجهول نحو قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقوله في السورة نفسها: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣].

٧ ـ ما اختلف فيه الفعل من حيث التذكير والتأنيث نحو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وقوله في السورة نفسها: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

---

(١) ينظر البرهان ١/ ١١٢ ـ ١٣٢.

٨ ـ التكرار نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦].

وإذا تصفحنا كتب المتشابه اللفظي التي بين أيدينا فإننا نجد جميع الأقسام التي ذكرها الزركشي والتي أضفناها كما سنرى ذلك في هذا البحث.

٣ ـ كتب المتشابه اللفظي:

ألف في موضوع المتشابه اللفظي كتب عديدة، أشهرها ما يأتي:

أولاً: متشابه القرآن:

وهذا الكتاب لعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ)، وقد قام بتحقيقه الدكتور محمد حسين آل ياسين عام ١٩٩١ ـ ١٩٩٢م.

ثانيًا: درة التنزيل وغرّة التاويل:

وهو للخطيب الإسكافي (ت ٤٢١ هـ) وقد قام بنشره عادل نويهض في دار الآفاق الجديدة في بيروت عام ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

ثالثًا: البرهان في توجيه متشابه القرآن:

مؤلفه محمود بن حمزة الكرماني (ت ٥٠٥ هـ) بتحقيق عبد القادر أحمد عطا. وقد نشر في دار الكتب العلمية في بيروت.

رابعًا: هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في متشابه الكتاب:

لعلي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣ هـ) وقد طبع في الأستانة سنة ١٣٠٦هـ في ٣٩ صفحة.

خامسًا: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل:

لأحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) وهو الكتاب الذي سأقوم

بدراسته في هذا البحث.

سادسًا: كشف المعاني في المتشابه من المثاني:

للقاضي بدر الدين بن جماعة (ت ٧٧٣ هـ). حققه الدكتور عبد الجواد خلف، ونشر في دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. وقد ذكره السيوطي في كتابه (الإتقان) بعنوان (كشف المعاني عن متشابه المثاني) [١].

سابعًا: قطف الأزهار في كشف الأسرار:

لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، وقد حققه الدكتور أحمد بن محمد الحمادي، ونشرته وزارة الأوقاف في دولة قطر.

وأما من المحدثين فلا أعلم أحدًا كتب في هذا الموضوع أوسع مما كتب الدكتور فاضل السامرائي، فكتابه (التعبير القرآني) يضم كثيراً من الآيات المتشابهة التي ذكرتها في البحث، وقد انفرد فيها برأيه. كما أنه وجّه آيات متشابهة كثيرة في بعض كتبه الأخرى ككتاب (معاني النحو)، وكتاب (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني). وهذا هو سبب ذكري رأيه في كثير من مواضع هذا البحث.

* * *

---

(١) ينظر الإتقان ٣/ ٣٣٩.



الفصل الأول

دراسة الكتاب

أ ـ التعريف بالكتاب:

عنوان الكتاب الذي سأقوم بدراسته (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل).

يقع هذا الكتاب في الأصل في مجلدين كبيرين. وقد أراد ابن الزبير أن يثبت فيه أن كل آية وكل لفظة في القرآن الكريم لم تأت إلا في المكان الذي يقتضيه سياق النص، بحيث لو وضعت إحدى الآيتين المتشابهتين في مكان الأخرى لاختل نظامهما.

ولم أعثر على كتاب عني بتوجيه الآي المتشابه أوسع من كتاب الملاك. فقد حوى آيات متشابهة كثيرة حاول ابن الزبير توجيهها من خلال دراسة كل نص مع متشابهه، سواء كان هذا المتشابه آية واحدة أم أكثر. فدرسها من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتنكير والتعريف، والإفراد والتثنية والجمع... إلى غير ذلك مما سنعرضه في أثناء دراستنا هذا الكتاب.

يقول الزركشي في كلامه على من صنف في توجيه المتشابه اللفظي: «وصنف في توجيهه الكرماني كتاب (البرهان)، والرازي (درة

التأويل) [1] ، وأبو جعفر بن الزبير ، وهو أبسطها في مجلدين» [2] .

ولا نجد اسم الكتاب في كلام الزركشي ، ولكننا نجده في كلام السيوطي ، إذ يقول: «وألّف في توجيهه الكرماني كتاب (البرهان في متشابه القرآن) ، وأحسن منه (درة التنزيل وغرة التأويل) لأبي عبد الله الرازي ، وأحسن من هذا (ملاك التأويل) لأبي جعفر بن الزبير ، ولم أقف عليه» [3] . وزعم السيوطي أنه لم يقف عليه علمًا بأنه ذكر منه نصوصًا في كتابه (معترك الأقران) كما سأذكر ذلك فيما بعد.

وقد استدرك ابن الزبير على الخطيب كثيرًا من الآيات التي أغفلها الخطيب في الدرة ، فقد أحصيت خمسًا وعشرين ومائة آية ذكرت في الملاك ولم تذكر في الدرة. وهذا العدد الكبير من المغفل يدل على مدى أهمية هذا الكتاب.

ولا أتفق مع ما ذكره الدكتور سعيد الفلّاح من أن ابن الزبير «قد تتبع كل ما تكرر واشتبه من الآيات في كامل القرآن تتبعًا مراعى فيه ترتيب التلاوة سورةً سورةً ، وآيةً آيةً ، إلا ما خلا منها من المتشابه» [4] . فإن هناك الكثير من الآي المتشابه أغفلها ابن الزبير أيضًا وهي بحاجة إلى توجيه.

من ذلك ـ على سبيل المثال ـ قوله تعالى: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة: ٢٦٤] بتقديم (على شيء) على (مما كسبوا) ، وتأخيرها عنها في قوله: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

---

(١) كذا في المطبوع ، والصواب (درة التنزيل).
(٢) البرهان ١/ ١١٢ .
(٣) الإتقان ٣/ ٣٣٩.
(٤) ملاك التأويل ١/ ١١٤ (تحقيق الفلّاح).

لَـٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] بجمع (السماء)، وبإفرادها في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] بوصف الشيء بـ (عجيب)، وبوصفه بـ (عُجاب) في قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

ومن ذلك ذكر اللام في جواب (لو) في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، وحذفها من قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠].

ومن ذلك إدخال نون التوكيد على الفعل في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، وحذفها من الفعل في قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩].

ومن ذلك ذكر نون (تكن) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، وحذفها من قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

إلى غير ذلك من الآيات المتشابهة التي أغفلها ابن الزبير أيضًا.

والجدير بالذكر أن ابن الزبير قد يذكر مسائل نحوية في أثناء توجيهه الآي المتشابه يتوصل بها إلى سبب تخصيص كل آية بما خصت به.

مثال ذلك أنه عندما بين سبب حذف تاء التأنيث من قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وذكرها في قوله: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] مهّد للجواب بالكلام على مواضع حذف تاء

التأنيث وجوبًا وجوازًا ثم بيّن سبب التخصيص[1].

وقد يذكر قضية إعرابية كبيانه تقدير الإعراب في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١][2].

وقد يعقد فصلاً لبيان مسألة نحوية ككلامه على (أم) في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤][3]، وكلامه على كاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٠][4].

وقد يتكلم على قضايا لغوية ككلامه على المترادف والمشترك اللفظي وغيرهما[5].

وقد يذكر قضايا صوتية ككلامه على الإدغام والإمالة[6].

وقد يذكر قضايا بلاغية نحو ذكره التسمية بالمآل وأسلوب الالتفات[7].

وقد يورد مسائل في أصول الفقه نحو قوله: «ومثل هذا وإن ورد على سبب خاص فإن وروده على ذلك السبب غير مانع من دعوى العموم فيه»[8].

ومعنى هذه العبارة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون.

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣. وهناك مسائل نحوية أخرى (ينظر على سبيل المثال ١/ ٤٤٨، ٢/ ٩٥٦).

(٢) ينظر ملاك التاويل ١/ ٣٧.

(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٢٣.

(٤) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٢٥.

(٥) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٧٠.

(٦) ينظر ملاك التاويل ١/ ٢١٥، ٢/ ٥٨٢.

(٧) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٢، ١٠٨، ٢/ ٦١٤ ـ ٦١٥.

(٨) ملاك التأويل ١/ ١١٨.

وقد يورد قضية كلامية نحو قوله: «فالعقل عندنا لا يحسّن ولا يقبّح» [1].

وقد يردّ على فرق معينة كردّه على المعتزلة وغيرهم[2].

وقد يورد أسباب نزول بعض الآيات التي يذكرها، كذكره أن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤] نزلت في الأخنس بن شريق[3]، وغير ذلك من الآيات[4]. وهذا يدل على موسوعية ابن الزبير وإحاطته بكثير من العلوم.

وقد ذكر الدكتور سعيد الفلاّح أن كتاب الملاك كتاب تفسير فقال: «اشتغل ابن الزبير بتفسير كتاب الله، وأكبر شاهد على ذلك تفسيره الجليل الذي وفقني الله إلى العناية به وتحقيقه، قصد فيه المؤلف إلى توجيه ما تكرر من آيات الله لفظًا أو اختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير» [5].

والحق أن كتاب الملاك ليس كتاب تفسير، وذلك لأن التفسير هو «علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه» [6]. وهذا الكتاب ليس شرحًا لكتاب الله ولا بيانًا لمعانيه، وإنما يعنى فحسب بتوجيه الآيات المتشابهة في القرآن الكريم.

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٥٥.
(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٢٤، ٧٥١، ٧٨٠، ٨٥٠.
(٣) ينظر ملاك التاويل ١/ ٣٠٧.
(٤) ينظر على سبيل المثال ١/ ١١٧، ١٦٣، ١٦٦.
(٥) ملاك التاويل ١/ ٨٨ ـ ٨٩ (تحقيق الفلاّح).
(٦) البرهان للزركشي ١/ ١٣.

ب ـ الغرض من تأليفه:

ذكر ابن الزبير في مقدمة كتابه الملاك عدة أسباب حملته على وضعه له:

السبب الأول: أن العلماء الأوائل قد أغفلوا الكتابة في مجال المتشابه اللفظي في القرآن الكريم. يقول: «وإن من مغفلات مصنفي أئمتنا رضي الله عنهم في خدمة علومه وتدبر منظومه الجليل ومفهومه توجيه ما تكرر من آياته لفظًا أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير» [(١)].

السبب الثاني: أنه قد يتبادر إلى الذهن أن ليس هناك ترابط بين الآيات، وأنه لا مانع من أن تقع آية مكان آية تشبهها ولا يتأثر السياق. يقول ابن الزبير: «وظن الغافل عن التدبر، والمخلد إلى الراحة عن التفكر أن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها مما خالفت نظيرتها ليس لسبب يقتضيه وداعٍ من المعنى يطلبه ويستدعيه... فلا يليق بكلٍّ من تلك المواضع إلا الواردُ فيه، وأن تقرير وقوع آية منها في موضع نظيرتها ينافر مقصود ذلك الموضع وينافيه» [(٢)].

وذكر **سببًا ثالثًا** فقال: «إنه باب لم يقرعه ممن تقدم وسلف ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد، وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه وجليل منزعه، ومكانته في الدين وفتّه أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدين، إلى أن ورد عليّ كتاب لبعض المعتنين من جلة المشارقة ـ نفعه الله ـ سمّاه بكتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) قرع به مغلق هذا الباب، وأتى في هذا المقصد بصفو من التوجيهات لباب، وعرّف أنه باب لم يوجِف[(٣)] عليه

---

(١) ملاك التأويل ١/٣.

(٢) ملاك التأويل ١/٣.

(٣) الإيجاف: سرعة السير. وقد أخذ هذه العبارة من قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ=

أحد قبله بخيل ولا ركاب ، ولا نطق ناطق قبل فيه بحرف مما فيه» [1] .

وقال أيضًا : «إذ لم يتعرض أحد غير من تقدم ذكره [أي : الخطيب] لما من هذا الضرب أعاني» [2] .

مما سبق نستطيع أن نجمل أسباب وضعه كتاب الملاك بالنقاط الآتية :

١ ـ عدم اهتمام من سبقه من العلماء اهتمامًا كافيًا بتوجيه الآي المتشابه وبيان سبب تخصيص كل آية بما خصّت به .

٢ ـ الرد على من يظن أن وقوع الآية موقع نظيرتها لا يؤثر في سياق النص .

٣ ـ ظنه أن موضوع هذا الكتاب لم يفرده أحد قبله بالتأليف سوى صاحب كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) .

والسبب الثالث فيه نظر. فإنه ليس الخطيب أول من أفرد كتابًا في المتشابه اللفظي في درته كما نفهم من قول ابن الزبير السابق. فالكسائي (ت ١٨٩ هـ) هو أول من أفرد الآي المتشابه في اللفظ في مصنف كما نص على ذلك السيوطي [3] .

وكذلك فقد سبق ابنَ الزبير محمودُ بن حمزة الكرماني (ت ٥٠٥ هـ) في كتابه (البرهان في توجيه متشابه القرآن) فقد كتبه للغرض نفسه ، ولكنه لم يشر إليه ، ويبدو أنه لم يقف عليه .

ج ـ طريقته:

ذكر ابن الزبير طريقة تناوله الآي المتشابه في مقدمة كتابه فقال:

= ﴿خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر : ٦] .

(١) ملاك التأويل ١/ ٤ .

(٢) ملاك التأويل ١/ ٥ .

(٣) ينظر الإتقان ٣/ ٣٣٩ .

«وأبديت ـ بحول ربي ـ من مكنون خاطري إلى الظهور ما أثبتُّه بعون الله وقوته في هذا المسطور معتمدًا عين ما ذكره [أي: الخطيب] من الآيات، ومستدركًا ما تذكرتُه مما أغفله ـ رحمه الله ـ من أمثالها من المتشابهات برفع تلك الإشكالات وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدروب البطالات، من غير أن أقف في أكثر ذلك على كلامه إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه، ولا ناقلاً ـ إلا في الشاذ النادر ـ كلام أحد من أرباب المعاني، إذ لم يتعرض أحد غير من تقدم ذكره لما من هذا الضرب أعاني، وإنما يلقيه فكري إلى ذكري فيلقيه ترجمان فهمي على قلمي. وإن آثرت بعض ما عليه لغيري عثرت فنقلت، أفصحت بالنسبة وعقلت... وقد استجرّت تلك الآيات جملة وافرة من المغفلات من أمثال تلك المشكلات مما يجاري ويُشبه ويلتبس على من قصّر في النظر ويشتبه مما لم يقع في كتاب (درة التنزيل) ولا تعرّض له بذكر ـ لنص التنزيل ـ ولا تأويل، فنبهنا على ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل. فعلامة (غ) تدل على أنه من المغفل»[1].

نفهم من هذا النص ما يأتي:

١ ـ اعتمد ابن الزبير عين ما ذكره الخطيب واستدرك ما أغفله.

٢ ـ لم يكن ابن الزبير يرجع إلى كتاب (الدرة) إلا بعد أن يذكر رأيه.

٣ ـ كان ينسب الآراء إلى أصحابها.

٤ ـ ذكر عدداً من الآي المتشابه لم يذكره الخطيب في درته.

وعلى ذلك فالملاك ليس تلخيصًا لكتاب الدرة كما قال صاحب (كشف الظنون)[2].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤ ـ ٦.

(٢) ينظر كشف الظنون ٢/ ١٨١٣.

٥ ـ إذا وضع ابن الزبير علامة (غ) على الآي المتشابه فإن هذا يدل على أنه غير موجود في الدرة.

وأما طريقته في عرض الآيات فهي على وفق الترتيب المصحفي، فيذكر الآية المذكورة أولاً في المصحف ثم يذكر نظيرتها ـ أو نظائرها ـ المذكورة فيما بعد.

ومثال ذلك أنه عندما بحث وجه تقديم المبتدأ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وتأخيره في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجاثية: ٣٦] بحثه في سورة الفاتحة لأنها في أول المصحف[1] ولم يذكره مرة ثانية في سورة الجاثية.

وعندما علّل ذكر ضمير الفصل الثاني في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وحذفه من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠] علله في سورة الحج[2] لأنها تسبق سورة لقمان في الترتيب المصحفي، ولم يذكرها ثانية في سورة لقمان... وهكذا.

وإذا كان التشابه بين آيات عديدة في سور مختلفة فإنه يذكر السورة المذكورة أولاً في المصحف ثم يذكر نظائرها على وفق الترتيب المصحفي أيضًا. مثال ذلك آية النساء (١٣) ونظائرها (المائدة: ٨٥ ـ ١١٩، التوبة: ٨٨ ـ ٨٩، إبراهيم: ٢٣، الكهف: ٣٠ ـ ٣١، الحديد: ١٢، المجادلة: ٢٢، الصف: ١٠ ـ ١٢، التغابن: ٩، الطلاق: ١١، البروج: ١١، البينة: ٨)[3].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٧ ـ ٨.

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٧٢٣ ـ ٧٢٤.

(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٩٣ ـ ١٩٥.

وإذا كان الآي المتشابه في سورة واحدة فإنه يذكر الآية المذكورة أولاً في السورة ثم يذكر نظيرتها.

فإذا أردنا أن نعرف رأيه في سبب اختلاف صيغ الوصف بين قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله في السورة نفسها: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] فإننا نبحث عنه في الآية المذكورة أولاً في السورة[(١)].

وقد سهلت علينا هذه الطريقة الرجوع إلى كتابه والاستفادة من آرائه.

وأما طريقته في العرض فإنه يطرح السؤال المتعلق بالآي المتشابه ثم يجيب عنه. وإذا كان هناك أكثر من سؤال فإنه يطرح جميع الأسئلة ثم يجيب عنها سؤالاً سؤالاً مرتبة.

ـ ملاحظات على الطريقة:

رأينا طريقة ابن الزبير في تناوله الآيات المتشابهة التي ذكرها في مقدمة كتابه. كما رأينا طريقته في عرض الآيات. ولي ملاحظات على هذه الطريقة، وهي ما يأتي:

١ ـ ذكر ابن الزبير في مقدمة كتابه أنه ذكر الآيات التي ذكرها الخطيب في الدرة وزاد عليها فقال: «معتمداً عين ما ذكره من الآيات»[(٢)].

ويفهم من كلامه هذا أنه ذكر كل ما ذكره الخطيب من الآيات.

وإذا رجعنا إلى كتاب الدرة وجدنا فيه آيات قليلة انفرد الخطيب بذكرها، فقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤] نظيرته في الملاك: ﴿وَإِن

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٣٨.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٥.

يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤] [١] وهذه النظيرة غير موجودة في الدرة.

أما نظيرته في الدرة فقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] [٢] وهذه النظيرة غير موجودة في الملاك. ولعل هذا يعود إلى سهو الناسخ.

كما انفرد كتاب الدرة بذكره قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ... ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] مع نظائره من آيات سورة التوبة (٨٨ ـ ٨٩، ١٠٠) [٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] ونظيره: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً... لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١] [٤].

ولعل هذا يعود إلى سهو الناسخ أيضًا.

ومن ذلك آيات سورة المطففين[٥].

٢ ـ ذكر ابن الزبير في مقدمة كتابه أنه ينسب الآراء إلى أصحابها، وهذا في الغالب، أما في غير الغالب فقد يكتفي بقوله: «اعتمده بعض الجلّة رحمهم الله» [٦] ولا ينسب.

٣ ـ ذكرت في كلامي على طريقة ابن الزبير في عرض الآيات أنه إذا

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) ينظر درة التنزيل ٧٤.

(٣) ينظر درة التنزيل ١٠٠.

(٤) ينظر درة التنزيل ٢٠٤.

(٥) ينظر درة التنزيل ٥٢٥ ـ ٥٢٦.

(٦) ملاك التأويل ١/ ٢٥٨.

كان هناك أكثر من سؤال فإنه يطرح جميع الأسئلة ثم يجيب عنها سؤالاً سؤالاً مرتبة. وقد التزم بهذا المنهج في كتابه سوى آيات قليلة أجاب عن أسئلتها جملة.

ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] مع نظيرتيه من قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦] أثار ثلاثة سؤالات وأجاب عن جميعها جملة فقال: «والجواب عن جميعها جملة»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] قال: «فللسائل أن يسأل عن وجه التعريف والتنكير وعن زيادة الضمير. والجواب عن السؤالين أن...»[2].

وفي قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤] مع نظيرته من قوله في السورة نفسها: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة: ١٠٥] أثار أربعة سؤالات وقال: «والجواب عنها على الجملة»[3].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٤٥٢.

(٣) ملاك التأويل ١/ ٤٧٢.

وهذا خروج عن طريقته المذكورة آنفًا.

كما خرج عن طريقته التي ورد ذكرها بأن أورد في آيات قليلة كل سؤال مع جوابه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣] مع نظائره من الآيات، فقد ذكر ستة سؤالات، مع كل سؤال جوابه[1].

وكذلك في قوله عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤] مع نظيرته من قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: ٧٣] فقد قال: «فيهما أربعة سؤالات يذكر كل منها متصلاً بجوابه»[2].

وكذلك آيات الأعراف (٨٠ ـ ٨٤) مع نظيرتيها من آيات النمل (٥٤ ـ ٥٧)، وآيات العنكبوت (٢٨ ـ ٣٠)، فقد ذكر فيها سبعة سؤالات، كل سؤال معه جوابه[3].

٤ ـ ذكر ابن الزبير في مقدمة كتابه أن من منهجه وضع علامة المغفل (غ) على الآيات التي أغفلها الخطيب الإسكافي في درته، ولكني وجدت آيات وضع عليها هذه العلامة وهي موجودة في الدرة. وهذا ما وقفت عليه في كلا التحقيقين، علماً بأنه المحققين اعتمدا نسختين مختلفتين في تحقيقيهما هذا الكتاب، فقد اعتمد الفلّاح نسخة شهيد علي، واعتمد محمود كامل نسخة مراد ملاّ. وسأذكر أمثلة على ذلك مكتفيًا بذكر أرقام الآيات.

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٩٣ ـ ١٩٩.
(٢) ملاك التأويل ١/ ٤٠٤.
(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤١٨ ـ ٤٢٨.

ذُكِر أن آية هود (٧٧) مع نظيرتها الآية (٣٣) من سورة العنكبوت من المغفل ، وإذا عدنا إلى كتاب الدرة فإننا سنجد الآيتين في سورة العنكبوت[١] .

كما ذُكر أن آية البقرة (١٦٤) مع نظيرتيها الآية (٦٣) من سورة العنكبوت ، والآية (٥) من سورة الجاثية من المغفل ، وإذا عدنا إلى كتاب (الدرة) فإننا سنجد هذه الآيات في سورة العنكبوت أيضًا[٢] .

وذكر أيضاً أن آية النساء (١١٥) مع نظيرتيها الآية (١٣) من سورة الأنفال ، والآية (٤) من سورة الحشر من المغفل ، وإذا عدنا إلى كتاب (الدرة) فإننا سنجدها في سورة الحشر[٣] .

وذكر كذلك أن آية يونس (٦١) مع نظيرتيها الآيتين (٣) و(٢٢) من سورة سبأ من المغفل ، وفي الحقيقة أنهما موجودان في الدرة في سورة سبأ[٤] .

ولعل السبب يعود إلى سهو النساخين .

د ـ شواهده:

تنوعت شواهد ابن الزبير في الملاك ، فقد استشهد بالقراءات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر العربي وأقوال العرب المنثورة وأمثالهم . ونريد أن نفصل القول في شواهده على النحو الآتي :

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/٥٢٦(تحقيق محمود) ، ٢/٦٦٣(تحقيق الفلاح) ، درة التنزيل ٣٦٠ـ٣٦١ .

(٢) الملاك ١/١٠١(محمود) ، ١/٢٤٤(الفلاح) ، الدرة ٣٥٨ـ٣٥٩ .

(٣) الملاك ١/٢١٤(محمود) ، ١/٣٥٢ـ٣٥٣(الفلاح) ، الدرة ٤٧٤ .

(٤) الملاك ١/٤٩٦(محمود) ، ١/٦٢٥ـ٦٢٦(الفلاح) ، الدرة ٣٨٥ .

١ ـ القراءات القرآنية :

استشهد ابن الزبير بعدد من القراءات القرآنية ، وقد لاحظت في استشهاده بها ما يأتي :

أولاً ـ ذكر عددًا من القراءات يترتب على اختلاف قليل منها اختلاف في المعنى ولا يترتب على أكثرها . فقد ذكر من القراءات التي يترتب على اختلافها اختلاف في المعنى قوله تعالى : ﴿مٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] حيث قرئت ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [١] فذكر أثر اختلاف القراءتين في المعنى[٢] .

وقد يجمع بين القراءتين نحو ما ذكره في قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ [التكوير : ٢٤] حيث أوردها على قراءة أخرى وهي (بظنين) بالظاء[٣] ، ثم قال : «غير متهم ولا بخيل على القراءتين» [٤] .

وأكثر القراءات التي يذكرها لا يترتب على اختلافها اختلاف في المعنى ، منها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم : ٦٠] بالتسهيل[٥] .

وقد جعل من الآيات التي لا يترتب على الاختلاف في قراءتها اختلاف في المعنى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير : ٦] فقال معلقًا على هذه الآية : «وقرئ مخففًا ومثقلاً والمعنى واحد» [٦] .

---

(١) وهي قراءة ابن عامر وابن كثير ونافع وأبي عمرو وحمزة (ينظر التيسير في القراءات السبع ١٨) .

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٤ ـ ٢٦ .

(٣) قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي بالظاء ، والباقون بالضاد (ينظر النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) .

(٤) ملاك التأويل ١/ ٣٣١ .

(٥) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٦٦ . وهي قراءة حمزة (ينظر التيسير ٧٢) .

(٦) ملاك التأويل ٢/ ٩٤٥ . وقراءة التخفيف هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو (ينظر التبصرة=

والذي أراه أن بين القراءتين اختلافًا في المعنى ، فالتشديد يدل على المبالغة في تسجيرها والإكثار منه ، وهذا المعنى لا يكون في التخفيف.

ثانيًا ـ قد نفهم من فحوى توجيهه أنه لا يوجه بعض الآيات من خلال القراءة الشائعة عندنا وهي رواية حفص عن عاصم ، وإنما يوجهها من خلال القراءة التي شاعت عندهم في الأندلس والمغرب العربي وهي رواية ورش عن نافع ، وهذا ما نجده في توجيهه قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] وقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١]. يقول ابن الزبير في هاتين الآيتين: «وعبّر في سورة الأعراف بالقتل لأنه أوجز من (يذبّحون) لأجل التضعيف ، إذ لفظ (يذبّحون) أثقل لتضعيفه» [(١)]. ويقصد هنا رواية ورش عن نافع ، وهي بالتخفيف ، أي (يقتُلون) [(٢)].

ثالثًا ـ يذكر أحياناً صاحب القراءة ، فمثلاً عندما ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الأنبياء: ٤٥] قال: «قراءة الجماعة إلا ابن عامر ﴿ولا يَسمع الصمُّ الدعاءَ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء﴾ بضم التاء وفتح الميم مع الصُّم. وفي النمل (٨٠) والروم (٥٢) ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء﴾. قراءة ابن كثير بفتح الياء وفتح الميم كقراءة الجماعة في آية الأنبياء. وقرأه الباقون ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ بضم التاء وفتح الميم كقراءة ابن عامر في الأنبياء» [(٣)].

وقال في موضع آخر: «وفي سورة المؤمنين في قراءة الجماعة إلا

= في القراءات السبع ٧٢١ ، والنشر ٢/ ٣٩٨).

(١) ملاك التأويل ١/ ٥٥.

(٢) ينظر التبصرة ٥١٦.

(٣) ملاك التأويل ٢/ ٦٩٦. جاء في (النشر): «واختلفوا في (ولا يسمع الصمّ) قرأ ابن كثير هنا وفي الروم بالياء وفتحها وفتح الميم (الصمّ) بالرفع». (النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٣٩).

الشيخين ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بالجمع»[(١)].

وأكثر القراءات لم يذكر من قرأ بها، وإنما اكتفى بقوله: «قرئ» أو ما شابه ذلك[(٢)].

رابعًا ـ أكثر القراءات التي ذكرها سبعية. ولم يذكر من القراءات العشرية إلا قراءة يعقوب (ت ٢٠٥ هـ): ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرةً صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠][(٣)].

ولم يذكر من القراءات الشاذة إلا قراءة الأعمش (ت ١٤٨ هـ): ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ الواحد﴾ [الإخلاص: ١][(٤)].

٢ ـ الحديث النبوي:

ذكر ابن الزبير عددًا من الأحاديث النبوية في الملاك. وقد لاحظت في استشهاده بالحديث ما يأتي:

أولاً ـ ذكر أحاديث قليلة على أنها شواهد لقضايا لغوية. ومثال ذلك أنه عندما ذكر الفرق بين (رُددت) و (رُجعت) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [فصلت: ٥٠] قال: إن لفظ (رددت) يحتمل من القهر والتعنيف ما لا يحتمله لفظ (رجعت). واستشهد على ذلك بقول الرسول ﷺ في الشيطان حين تعرض له في صلاته: «فردّه الله خاسئًا»[(٥)].

ثانيًا ـ قد يذكر حديثاً في أثناء تفسيره كلمة في آية. فعندما فسر كلمة

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٣٢. (والشيخان هما ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء) ينظر التيسير ١٥٨.

(٢) ينظر على سبيل المثال ١/ ٢٣٧، ٢/ ٦٦٦، ٩٤٥.

(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٣٥، والنشر ٢/ ٢٥١.

(٤) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٩٥٩، والمختصر في شواذ القراءات ١٨٢.

(٥) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٤٦، صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ٢/ ٧٢.

(حصوراً) في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] بأنه الممنوع من المعاصي، ذكر قول النبي ﷺ: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا يحيى بن زكريا»[(١)].

ثالثًا ـ قد يذكر الحديث عرضًا، وذلك كأن يذكره في أثناء نقله رأيًا للأصوليين، وذلك كقوله: «ولهذا اتفق الأصوليون على قوة المفهوم في قوله ﷺ: "إنما الولاء لمن أعتق"[(٢)] ولم يتفقوا في المفهوم الحاصل من قوله عليه السلام: "في سائمة الغنم زكاة"[(٣)] وذلك بسبب ما تقتضيه (إنما) من معنى الحصر»[(٤)].

وقد يذكره عرضًا في أثناء توجيهه الآي المتشابه، فعندما بيّن سبب تكرار أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالصبر في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] ذكر الحديث الذي يبين فضل الصبر وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «الصبر ضياء»[(٥)].

رابعًا ـ قد يذكر الآية مع الحديث المفسر لها، فعندما ذكر قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ذكر قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»[(٦)].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٥٨، ومستدرك الحاكم ٤/ ٢٤٤.
(٢) صحيح البخاري ـ كتاب العتق ٣/ ١٩٩.
(٣) صحيح البخاري ـ باب زكاة الغنم ٢/ ١٤٦.
(٤) ملاك التأويل ١/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦.
(٥) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨١٧ ـ ٨١٨، صحيح مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء ١/ ١٤٠.
(٦) ينظر ملاك التأويل ١/ ١١٩، صحيح البخاري، باب وجوب الزكاة ٢/ ١٣١.

خامسًا ـ قد لا ينص على الحديث وإنما يورده في أثناء كلامه. ومثال ذلك أنه عندما تكلم على الجنة قال: «إذ فيها من كل متنعَّم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» [١]. وهذا الكلام مقتبس من الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» [٢].

سادسًا ـ قد لا يذكر نص الحديث، وإنما يكتفي بقوله: «والحديث الصحيح في ذلك مشهور» [٣].

سابعًا ـ يذكر ابن الزبير في أماكن قليلة راوي الحديث كقوله: «ومن ذلك حديث ابن مسعود» [٤]، وقوله: «وكما أشار إليه حديث أبي هريرة» [٥].

٣ ـ الشعر العربي:

ذكر ابن الزبير طرفًا من الشعر العربي في الملاك. وقد لاحظت في استشهاده بالشعر العربي ما يأتي:

أولاً ـ إذا استثنينا الأبيات المختلف في قائليها وهي قول الشاعر:

كأن ظبيةٍ تعطو إلى وارق السلم [٦]

وقول الآخر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا [٧]

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٣.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجنة ٤/ ١٤٣.
(٣) ملاك التأويل ١/ ٢٥٦.
(٤) ملاك التأويل ٢/ ٩٢٣.
(٥) ملاك التأويل ٢/ ٩٢٣.
(٦) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٢٦.
(٧) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٨٣، ٩١٣.

واستثنينا الأبيات التي لم تنسب إلى قائل معين وهي قول الشاعر:

أمـا النهـار ففـي قيـد وسلسلـة والبيت في بطن منحوت من الساج[١]

وقول الآخر:

لـم يـك الحـق سـوى أن هـاجـه رسـم دار قـد تعفـى بـالسـور[٢]

فإنه يمكننا أن نقول: إن جميع ما ذكره ابن الزبير من أبيات شعر في الملاك ـ سواء أتى بها عرضًا أم أتى بها شواهد ـ لم يتجاوز عصرها عصر الاحتجاج.

فمن الجاهليين استشهد لأبي دؤاد بن حريز، وامرئ القيس، والبرج ابن مسهر الطائي، والأعلم الهذلي[٣].

ومن مخضرمي العصرين الجاهلي والإسلامي استشهد بشعر النابغة الجعدي، وحميد بن ثور، وساعدة بن جؤية، وقيس بن خطيم، وعمرو بن معدي كرب، وأبي ذؤيب الهذلي، والخنساء[٤].

ومن الأمويين استشهد بشعر أبي صخر الهذلي، وابن ميادة، ورؤبة ابن العجاج، وجرير، والفرزدق، وجعفر بن علبة، وعبد الله بن همام السلولي[٥].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٧٣.

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥١١.

(٣) ينظر ملاك التأويل: أبو دؤاد١/ ٥٦، وامرؤ القيس١/ ١١٣، ٢/ ٦١٥، ٨٣٦، والبرج١/ ١١٣، والأعلم٢/ ٨٣٠.

(٤) ينظر ملاك التأويل: النابغة ١/ ١٧٤، وحميد ١/ ١٩٠، وساعدة ١/ ١٩٨، وقيس ٢/ ٥٢٠، وعمرو ٢/ ٦٢٨، وأبو ذؤيب ٢/ ٦٨٢، والخنساء ٢/ ٨٨٢.

(٥) ينظر ملاك التأويل: أبو صخر ١/ ٣٦، وابن ميادة ١/ ١٠٦، ورؤبة ١/ ١٧٣، وجرير ١/ ١٧٤، ٢/ ٥٢٥، ٨٨٣، ٩٥٠، والفرزدق ١/ ٣٠٨، ٨٠٠، وجعفر ٢/ ٦٥٠، والسلولي ٢/ ٨٣٤.

وشعر هؤلاء يحتج به ؛ لأن عصورهم لم تتجاوز عصر الاحتجاج.

ثانيًا ـ قد يذكر بيت الشعر في أكثر من موطن ، فقد ذكر قول الشاعر:

لتقربنّ قربًا جلذيّا   ما دام فيهن فصيل حيّا[1]

في أثناء كلامه على ست آيات وجهت مع نظائرها من حيث التقديم والتأخير[2]. والشاهد في هذا البيت تقديم معمول الخبر (فيهن) على اسم (ما دام) وهو (فصيل).

وذكر قول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء   نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

في أثناء كلامه على أربع آيات بيّن فيها سبب التكرار[3]. والشاهد في هذا البيت تكرار (الموت) فيه.

ثالثًا ـ قد يستشهد في مواطن قليلة بشطر البيت ، نحو قول امرئ القيس:

إذا ما الثريا في السماء تعرّضت[4]

وقول حميد بن ثور:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي[5]

ولعل سبب ذلك أن الشطر الذي ذكره هو موضع الشاهد فاكتفى به.

رابعًا ـ الأكثر ألاّ يصرّح باسم الشاعر. وأحيانًا يصرح باسمه ،

---

(١) البيت لابن ميادة (ينظر شعر ابن ميادة٢٣٧).

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٠٦ ، ٢٠١ ، ٢/ ٥١٤ ، ٥٧٧ ، ٧٣١ ، ٧٥٦.

(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٨٣ ، ٩١٣ ، ٩٣٢ ، ٩٥٠.

(٤) ينظر ملاك التأويل ١/ ١١٣ ، ديوان امرئ القيس ١١٣.

(٥) ينظر ملاك التأويل ١/ ١١٣ ، ديوان حميد بن ثور ١٣٣.

كتصريحه باسم امرئ القيس والخنساء[1].

خامسًا ـ تنوعت شواهد ابن الزبير في الملاك ، فقد ذكر شواهد نحوية نحو قول الفرزدق :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذيب يصطحبان[2]

فقد ذكره شاهدًا على صلاحية (مَن) للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث[3].

وذكر شاهدًا على حذف نون (يكن) إذا وليه ساكن، وهو قول الشاعر :

لم يكُ الحق سوى أن هاجه رسم دار قد تعفّى بالسور

وقال : «لا تحذف إلا في ضرورة الشعر» [4].

وذكر شواهد لغوية نحو قول الشاعر :

وتجرّ مجرية لها لحمي إلى أجر كواسب[5]

وقول الآخر :

حتى شآها كليلٌ موهنًا عمِلٌ باتت طرابًا وبات الليلَ لم ينم[6]

فقد ذكرهما عند بيانه الفرق بين (الكسب) و (العمل) في قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر : ٤٨] ، وقوله : ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية : ٣٣] [7].

---

(١) ينظر ملاك التأويل : امرؤ القيس٢/ ٨٣٦ ، والخنساء٢/ ٨٨٢ .

(٢) ديوان الفرزدق ٢٧٤ .

(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٠٨ .

(٤) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥١١ .

(٥) ديوان الهذليين٢ / ٨٠ (الرواية فيه : أجر حواشب) .

(٦) في تحقيق محمود كامل : حتى سنا موهناً عمل ، والصواب : ما ذكرناه (ينظر ديوان الهذليين ١/ ١٩٨) .

(٧) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٣٠ .

وذكر شواهد بلاغية ، فقد استشهد على أسلوب الالتفات بقول امرئ القيس :

تطــاول ليلــك بــالإثمــد ونــام الخلــي ولــم تــرقــد

وبــات وبــاتــت لــه ليلــة كليلــة ذي العــائــر الأرمــد

وذلــك مــن نبــأٍ جــاءنــي وخبّــرتــه عــن أبــي الأســود[1]

يقول ابن الزبير بعد أن ذكر هذه الأبيات : «فتأمل كيف التفت في قوله : «وبات وباتت له ليلة» بعد الخطاب بقوله : «تطاول ليلك» «ولم ترقد» فرجع من الخطاب إلى الغيبة . ثم قال : «وذلك من نبأ جاءني» فرجع إلى التكلم ، وإنما خاطب بذلك نفسه»[2] .

ولا داعي لاستقصاء كل شواهده النحوية واللغوية والبلاغية ، وإنما اخترنا هذه الأمثلة لنرى مدى اهتمام ابن الزبير بالشعر العربي في كتاب الملاك .

٤ ـ أقوال العرب النثرية وأمثالهم :

لم يغفل ابن الزبير الاستشهاد بأقوال العرب وأمثالهم . فمن ذلك استشهاده بقولهم : «نهارك صائم وليلك قائم» على جعل الشيء نفسه عند قصد المبالغة[3] . كما استشهد بقولهم : «اللهم ضبعًا وذئبًا» على استعمال العرب الحذف كثيرًا في كلامهم[4] .

إلى غير ذلك من الأقوال[5] .

---

(١) ديوان امرئ القيس ٥٣ .

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦١٥ .

(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦١ ، والكتاب ١/ ١٦٩ .

(٤) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٤١ ـ ٦٤٢ ، والمستقصى من أمثال العرب ١/ ٣٤٢ .

(٥) ينظر باقي الأقوال في الصفحات الآتية : ١/ ٢ ،١٨٠ ، ٢/ ٨٣٤ ، ٩٣١ ، ٩٣٤ .

وأما الأمثال فلم يستشهد إلا بمثال واحد هو «إياك أعني واسمعي يا جارة»[1].

هـ ـ مصادره:

لم يكتف ابن الزبير بذكر آرائه في الملاك، وإنما أفاد من مصادر أخرى. ويمكننا أن نقسم هذه المصادر قسمين:

القسم الأول: الكتب، فمن الكتب لم يذكر إلا كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن)[2]، وكتاب (المعتبر) للطبيب الفيلسوف أبي البركات بن ملكان (ت ٥٤٧ هـ)[3].

القسم الثاني: أقوال العلماء وآراؤهم، فقد ذكر ابن الزبير في أثناء توجيهه الآي المتشابه أقوالاً وآراء لمفسرين ولغويين وغيرهم. وسأذكرهم مرتبين على حسب سني وفاتهم:

١ ـ عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ):

ذكر عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ . . . هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ . . . هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٤٧]: إنه عامّ في اليهود وغيرهم[4].

٢ ـ عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ):

نقل عنه في مواضع من كتابه، منها تفسيره آيات المائدة (٤٤ ـ ٤٧) التي ذكرناها آنفاً بأنهم أهل الكتاب[5]. وذكر عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]: «حين وقعت الواو

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٢٩، والمستقصى من أمثال العرب ١/ ٤٥٠.
(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٣، ١٧١، ٢/ ٦٦٤.
(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٩٢٠، ومعجم المؤلفين ٣/ ٤٢.
(٤) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٦٠، وينظر تفسير الكشاف ١/٦١٦.
(٥) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٦٠، وينظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ٧٥.

انقطعت العدة»[1]. كما نقل عنه أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف: ٢٢]: «أنا من ذلك القليل»[2].

٣ ـ سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ):

ذكر ابن الزبير ما نسبوه إليه من أنه قال: إن الإشارة في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: ٢] إلى اللوح المحفوظ[3].

٤ ـ مجاهد بن جبر (ت ١٠٤ هـ):

نقل عنه أنه فسر كلمة (رمزاً) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران: ٤١] بأنه بالشفتين[4].

٥ ـ الحسن البصري (ت ١١٠ هـ):

ذكر ابن الزبير نقل المفسرين عن الحسن أنه قال: إن الفسق «إذا استعمل في نوع من المعاصي... وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره»[5].

٦ ـ قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨ هـ):

ذكر عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١] وقوله: ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤]: إن «النكر أشد من الإمر»[6].

٧ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ):

ذكر ابن الزبير أن الاسم المعرّف بـ (أل) بعد اسم الإشارة عطف بيان

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٤٣، وينظر تفسير الكشاف ٢/ ٤٧٩.
(٢) ملاك التأويل ٢/ ٦٤٤، وينظر تنوير المقباس ١٨٤.
(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٥٧.
(٤) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٥٥، وفي تفسير مجاهد «تومئ إيماءً» ١/ ١٢٦.
(٥) ملاك التأويل ١/ ٢٦٤.
(٦) ملاك التأويل ٢/ ٦٥٢، وينظر تفسير الطبري ٩/ ٢٨٧.

على رأي الخليل ، ونعت على الظاهر من كلام سيبويه[1]. كما ذكر أن الخليل فسر الواحد بالمنفرد[2].

٨ ـ الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد (ت ١٧٧ هـ):

ذكر ابن الزبير أن الأخفش الأكبر «سمع بعض العرب وقيل له: لم أفسدتم مكانكم هذا؟ فقال: الصبيان بأبي» [3].

٩ ـ سيبويه (ت ١٨٠ هـ):

نقل عنه ابن الزبير في مواضع عديدة من كتابه ، فقد أورد آراءه في أكثر من عشرين موضعًا من كتابه. وليست هذه الكثرة تدعو إلى العجب ، وإنما العجب ألاّ يفيد من آرائه ، لأن سيبويه إمام النحاة ، وكل من أتى بعده عيال عليه في النحو.

والأكثر أن ينقل نص كلامه وقد ينقل معناه. وقد يذكر القول نفسه في أكثر من موطن ، كذكره قوله: «كأنهم يقدمون الذي هو أهم ، وهم ببيانه أعنى» [4] ، فقد ذكره في مكانين في الملاك كلاهما في التقديم والتأخير ، أحدهما قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: ٥٨] ونظيرها (الأعراف١٦١) [5] ، والآخر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٧٣] ونظائرها في كل من الآيات (المائدة٣ ، والأنعام ١٤٥ ، والنحل١١٥) [6]. ولا داعي لسرد آرائه وأقواله[7].

---

(١) ينظر ملاك التأويل١/ ٩١ ، والكتاب١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٨.
(٢) ينظر ملاك التأويل٢/ ٩٦٢ ، وفي (العين) الوَحَد: المنفرد (٣/ ٢٨٠).
(٣) ملاك التأويل٢/ ٦٤٢ ، وينظر الكتاب١/ ١٢٩.
(٤) ينظر الكتاب١/ ١٥.
(٥) ينظر ملاك التأويل١/ ٦١.
(٦) ينظر ملاك التأويل١/ ١٠٧.
(٧) ينظر على سبيل المثال١/ ٣٦ ، ١٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣١٠.

وقد يذكر رأيه ورأي من خالفه ، كما رأينا خلافه مع الخليل ، وكما سنرى خلافه مع الفرّاء والمبرد عندما سنذكرهما .

١٠ ـ أبو بكر بن الأصم (ت ١٩٠ هـ) :

ذكر ابن الزبير أن أبا الفضل بن الخطيب حكى عن أبي بكر بن الأصم في التفسير المنسوب إليه أن المراد بـ (الشهيد) في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل : ٨٩] «هو أنه تعالى ينطق عشرة من أجزاء الإنسان تشهد عليه وهي الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان» (١) .

١١ ـ الفرّاء (ت ٢٠٧ هـ) :

ذكر ابن الزبير رأيه المخالف لرأي سيبويه في سبب رفع (الصابئون) في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [المائدة : ٦٩] فذكر أن سبب ذلك عند سيبويه هو أنه «مقدم من تأخير . . . وأما على طريقة الفرّاء ومن قال بقوله من حمله على الموضع ففيه التقديم ، وأن التحريك القطعي في اللفظ ـ وإن لم يكن مقطوعًا في المعنى ـ لا يكون إلا لإحراز معنى وليس إلا ما تقدم» (٢) .

ويقول الفرّاء في (معاني القرآن) : «فإن رفع (الصابئين) على أنه عطف على (الذين) ، و(الذين) حرف على جهة واحدة في رفعه ونصبه وخفضه ، فلما كان إعرابه واحدًا وكان نصب (إنّ) نصبًا ضعيفًا ـ وضعفه أنه يقع على الاسم ولا يقع على خبره ـ جاز رفع الصابئين» (٣) .

ومعنى هذا أن الذي سوّغ عطف (الصابئين) بالرفع على (الذين) هو أن

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٢٣ .

(٢) ملاك التأويل ١/ ٧٨ ، وينظر الكتاب ١/ ٢٩٠ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٣١٠ ـ ٣١١ .

كلمة (الذين) اسم موصول مبني لا يتغير آخره بتغير موقعه من الإعراب ، ونصب (إنّ) نصب ضعيف ، وسبب ضعفه أنه يؤثر في المبتدأ ولا يؤثر في الخبر فيبقى مرفوعًا.

١٢ ـ الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ):

ذكر ابن الزبير رأي الأخفش في جواز دخول همزة التعدية على (ظن) وأخواتها فتقول: أظَنَّ وأحسبَ وأخالَ ، فيصير متعديًا إلى ثلاثة مفاعيل بعد أن كان متعديًا إلى مفعولين[(١)].

وقد نسب الدكتور سعيد الفلاّح هذا الرأي إلى الأخفش الأكبر فقال في ترجمة صاحب هذا الرأي في الهامش: «الأخفش (ت ١٧٧هـ/ ٧٩٣م): عبد الحميد بن عبد المجيد ، مولى قيس بن ثعلبة أبو الخطّاب من أئمة العربية» [(٢)] وهذا وهم منه.

١٣ ـ أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥ هـ):

ذكر ابن الزبير خلاف المبرد مع سيبويه في موقع المصدر المؤول (أنْ وما دخلت عليه) بعد (حسب) ، حيث يرى سيبويه أنها سادّة مسد مفعولي (حسب) ، ويرى المبرد أنها «سادّة مسد المفعول الواحد ، والثاني عنده مقدّر» [(٣)].

١٤ ـ ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ):

نقل عنه ابن الزبير أن الآية الكريمة ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٠٥ ، والخصائص لابن جني ١/ ٢٧١ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٦٦ ، وشرح الكافية الشافية لابن مالك ٢/ ٥٧٣.

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٥٣٠ (تحقيق الفلاّح).

(٣) ملاك التأويل ١/ ١٢٣ ، وينظر الكتاب ١/ ٤٦١ ـ ٤٦٢ ، والمقتضب ٢/ ٣٤١.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥] نزلت «فيمن تاب من المخلفين» [(١)]. كما ذكر له آراءً أخرى [(٢)].

١٥ ـ أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ):

ذكر ابن الزبير أن الفارسي قدّر الخبر في قولهم: (كل رجل وضيعته): مقرونين [(٣)].

١٦ ـ أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ):

ذكر ابن الزبير رد الباقلاني على قول أبي بكر بن الأصم الذي ذكرناه آنفاً [(٤)].

١٧ ـ الخطيب الإسكافي (ت ٤٢١ هـ):

لم يذكر ابن الزبير اسمه في الملاك، وإنما اكتفى بقوله: «صاحب الدرة» [(٥)] ولعل سبب ذلك أنه لم يقف على اسمه. وقد يذكر قوله ويرد عليه كقوله: «وهو أعمد جوابي صاحب الدرة، وأراه لا يصلح» [(٦)]. وقد يذكر معنى قوله فيقول: «قال معناه صاحب الدرة» [(٧)]. وقد ذكرنا طريقة ابن الزبير في تعامله مع كتاب الدرة.

١٨ ـ مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ):

ذكر ابن الزبير قوله: «حصر عن الذنوب فلم يأتها» [(٨)].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٧٢، وينظر تفسير الطبري ٧/ ٢٠.
(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٧٦.
(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٣٦.
(٤) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤.
(٥) ينظر ملاك التأويل ١/ ٥٣.
(٦) ملاك التأويل ٢/ ٨٨٠.
(٧) ملاك التأويل ٢/ ٧٠١.
(٨) ملاك التأويل ٢/ ٦٥٧.

١٩ ـ أبو إسماعيل الهروي (ت ٤٨١ هـ):

ذكر ابن الزبير أنه فسّر الأنعام بـ «المواشي من الإبل والبقر والغنم»[(١)].

٢٠ ـ جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ):

ذكره المؤلف في مواضع كثيرة من كتابه، فقد نقل لنا نصوصًا كثيرة من تفسيره (الكشاف)، ولا عجب من هذه الكثرة، لأن هذا التفسير عني بالجوانب اللغوية والبلاغية للآيات القرآنية.

وأما طريقته في النقل عنه فقد ينقل نص كلامه مرة وينقل معناه مرة أخرى[(٢)].

وقد يتفق معه في الرأي فيقول: «فالجواب عن ذلك ما قاله الزمخشري»[(٣)].

وقد يعارضه ويرد عليه، ويقسو في الرد إذا كانت آراؤه فيها اعتزال كقوله: «وقد أجاب الزمخشري عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب بناء على استبداد العبيد وفعلهم ما لا يرضاه الخالق ولا يريد، فجعل لله شركاء، وأفرد العباد بأفعالهم استبدادًا وملكًا»[(٤)].

وقد يتعمد إسقاط كلمة لا تعجبه من النص الذي يقتبس منه. وهو في هذا أمين، لأنه يصرح بأنه أسقط كلمة من النص، فبعد أن نقل نص الزمخشري «والمعنى أن الإعراض... مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك...»[(٥)]، قال: «انتهى نص كلامه إلا في لفظة أسقطتها

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٣٠.

(٢) ينظر على سبيل المثال١/ ١٥٦، ١٨٨، ٢١٩، ٢٦٠، ٤١٤.

(٣) ملاك التأويل ١/ ١٥١، وينظر٢/ ٥٤٩، ٥٥٧.

(٤) ملاك التأويل ٢/ ٦٩١، وينظر٢/ ٨٢٣.

(٥) تفسير الكشاف ٢/ ٥٢٦.

لجريها فيما لا يكاد ينفك عنه في إحراز مذهبه الخبيث فتركتها. وإسقاطها لا يخل بشيء من المعنى»[(١)]. ولكنه لم يذكر الكلمة التي أسقطها وهي كلمة (العدل).

٢١ ـ ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ):

ذكر أقواله وآراءه في مواضع من كتابه، منها أنه فسر الانبجاس بالانفجار ولكنه أخف من الانفجار[(٢)]. وفسّر التأوّه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] بالتفجع[(٣)]. وفسر (الحليم) بالصابر المحتمل العظيم العقل[(٤)]. ولا داعي لسرد باقي آرائه[(٥)].

٢٢ ـ أبو الفضل بن الخطيب (٦٠٦ هـ):

هو الإمام الفخر الرازي صاحب تفسير (مفاتيح الغيب). ولم يتوصل إلى معرفة هذه الشخصية الدكتور محمود كامل حيث قال في تحقيقه: «لم أعثر على ترجمته في كتب طبقات المفسرين بهذه الكنية ولعله يعني لسان الدين بن الخطيب أبا عبد الله»[(٦)]. في حين توصل إليها الدكتور الفلاّح[(٧)].

وقد نقل عنه صاحب الملاك في مواضع كثيرة من كتابه، منها أنه عندما ذكر قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] ذكر رأيه في

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٥٠.
(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٦٨، والمحرر الوجيز ٦/ ١١١.
(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٧٧، والمحرر الوجيز ٧/ ٦٤.
(٤) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٨٨، والمحرر الوجيز ٧/ ٦٥.
(٥) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٧٦، ٢/ ٦٤٥، ٦٨٨.
(٦) ملاك التأويل ١/ ٣٤.
(٧) ملاك التأويل ١/ ١٦٣ (تحقيق الفلاّح).

سبب تخصيص الآية الأولى بقوله: ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ والثانية بقوله: ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فقال: «إنما قال في آخر هذه الآية ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وفيما قبلها ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لوجهين:

أحدهما: أن الوقف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل أمر عقلي نظري، وأما أن النفاق وما فيه من البغي يفضي إلى الفساد في الأرض فضروري جارٍ مجرى المحسوس.

والثاني: أنه لما ذكر السفه وهو جهل كان ذكر العلم أحسن طباقًا له»[1].

ونكتفي بهذا القدر ولا داعي لاستقصاء جميع آرائه التي ذكرت في الملاك[2].

٢٣ ـ الغزنوي (ت ٦٧١ هـ):

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي صاحب التفسير المعروف بـ (الجامع لأحكام القرآن)، والملاحظ أنه في الكتاب الذي هو بتحقيق محمود كامل لم يشر إليه إلا بالغزنوي[3]، وأما الكتاب الذي هو بتحقيق الدكتور سعيد الفلاّح فلم يشر إليه إلا بالقرطبي[4]. ولعل هذا يعود إلى اختلاف مخطوطتيهما.

وقد ذكر أنه فسر الانبجاس بأول الانفجار[5]، وفسر بهيمة الأنعام بوحشيها[6]، ولا داعي لسرد باقي آرائه[7].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٤. وينظر تفسير الرازي ٢/ ٦٨.
(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٤٤، ٢٦١، ٢/ ٦٢٣، ٨٢٠، ٩١٩، ٩٢٠.
(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ٦٧، ٢٣١، ٢٧٨، ٣٩٩.
(٤) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢١٢، ٣٦٧، ٤٠٩، ٥٢٥ (تحقيق الفلاّح).
(٥) ينظر ملاك التأويل ١/ ٦٧، والجامع لأحكام القرآن ١/ ٤١٩.
(٦) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٣١، والجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٤.
(٧) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٧٨، ٣٩٩.

و ـ مآخذ على ابن الزبير في الملاك :

لا يخلو كتاب الملاك من بعض الهنات العلمية والمنهجية على الرغم من أهميته في مجاله ، منها :

١ ـ في كلامه على قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة : ٣] بيّن سبب الفصل بهذه الآية بين قوله تعالى : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] وقوله : ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] [(١)] .

ويبدو لي أن هذا ليس مجال دراسته في الكتاب ، ذلك أن هذا الكتاب مختص بتوجيه الآي المتشابه ، وليس هنا آي متشابه .

٢ ـ عندما وجه قوله تعالى : ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ [هود : ٨١] ونظيره من قوله سبحانه : ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَـٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾ [الحجر : ٦٥] أثار ثلاثة سؤالات هي :

أ ـ لماذا وقع الاستثناء بقوله : ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ ﴾ في آية هود دون آية الحجر ؟

ب ـ لماذا خصصت آية الحجر بقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَـٰرَهُمۡ ﴾ ؟

ج ـ لماذا خصصت آية الحجر بقوله : ﴿ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾ دون آية هود ؟

وقد أجاب عن السؤالين الأول والثالث ، وترك السؤال الثاني بلا جواب[(٢)] . وهذا في كلا التحقيقين[(٣)] ، علمًا بأنهما اعتمدا نسختين مختلفتين في تحقيقيهما .

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٢ .

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .

(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦ (تحقيق الفلاّح) .

٣ ـ في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤] يقول ابن الزبير بعد أن ذكر هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل عن وجه ما ورد في هاتين الآيتين من قوله في الأولى: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ والاكتفاء في الثانية بقوله: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مع استوائهما في دعاء المخالفين ممن ذكر قبل كل آية منهما إلى متابعة الحق والرجوع إليه» (١). وهذا في كلتا النسختين المحققتين(٢).

والحقيقة أنه ورد قوله: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ في كلتا الآيتين، ولم يكتف في الآية الثانية بقوله: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كما جاء في الكتاب.

وينبغي الإشارة إلى أن محقق الكتاب الدكتور محمود كامل قد أشار إلى هذا الغلط في الهامش فقال: «هكذا في جميع النسخ، وليس صحيحاً، فقد ذكر في المائدة المُنزَل والرسول» (٣).

والذي يبدو أنه قد فاته أن صواب الآية مذكورة في نسخة الأسكوريال كما ذكر ذلك الدكتور سعيد الفلّاح(٤)، علماً بأن هذه النسخة قد اعتمدها الدكتور محمود كامل ورمزها عنده (ك) (٥).

وأما المحقق الآخر ـ وهو الدكتور سعيد الفلّاح ـ فقد ذكر هو الآخر النص خطأً اعتمادًا على ما هو مذكور في مخطوطته كما ذكرنا، ولكن أشار في الهامش إلى أن زيادة (وإلى الرسول) في آية المائدة مذكورة في

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٠٩.
(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩ (تحقيق الفلّاح).
(٣) ملاك التأويل ١/ ٢٠٩ (هامش ٦).
(٤) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٤٨ (هامش٩).
(٥) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣١.

نسخة الأسكوريال التي رمزها عنده هو (ن ٣) فقال: «في ن ٣: زيادة (وإلى الرسول) وهو خطأ»[1].

ويبدو لي أن المحقق قد فاته الرجوع إلى المصحف ليعلم أن الزيادة المذكورة في نسخة الأسكوريال هي عين الصواب.

وقد حاول الدكتور محمود كامل أن يلتمس عذرًا للمؤلف في وقوعه في هذا الخطأ فقال: «ولعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ في سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ في سورة لقمان، حيث اكتفى بهما بالمنزَل دون ذكر الرسول»[2].

ولي ملاحظتان على هذا التسويغ وهما ما يأتي:

الملاحظة الأولى ـ ذكر المحقق آيتي البقرة ولقمان، وقد وجههما المؤلف في مكان آخر من الكتاب[3]، وهذا يعني أنه لا داعي لإعادتهما.

الملاحظة الثانية ـ الذي يبدو لي أن المؤلف قد قصد الآيتين اللتين ذكرهما قصدًا، بدليل أنه قال: «فإن الآية الأولى في منافق ويهودي تخاصما وتحاكما إلى كعب بن الأشرف ورضيا بحكمه... وأما آية المائدة فمبنية على ما تقدمها من مرتكبات أهل الجاهلية»[4]، وهذا الكلام ينطبق على الآيتين اللتين ذكرهما.

٤ ـ في كلامه على سبب التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله:

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٤٨ (هامش٩ ـ تحقيق الفلاّح).

(٢) ملاك التأويل ١/ ٢٠٩ (هامش٦).

(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٤) ملاك التأويل ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦]، وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] وجّه آيتي يونس والفرقان وترك آية الأنبياء بلا توجيه(١).

٥ ـ يقول ابن الزبير بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤] وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]: «ففي العنكبوت والأحقاف (حسنًا) ولم يرد ذلك في سورة لقمان»(٢).

ومن الواضح أن آية العنكبوت قد خصصت بقوله: (حسنًا)، في حين خصصت آية الأحقاف بقوله: (إحسانًا)، وليس الأمر كما ذهب إليه المؤلف.

٦ ـ يقول ابن الزبير: «وسنورد إن شاء الله في قوله تعالى في سورة (والنجم) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾...»(٣).

وإذا رجعنا إلى سورة النجم في هذا الكتاب بطبعتيه المحققتين فإننا لا نجد فيه آيات سورة النجم التي وعد بإيرادها. وربما تكون موجودة في نسخ أخرى غير التي اعتمدها المحققان.

٧ ـ قد يذكر الآيتين في مكانين مختلفين ويوجههما توجيهين مختلفين أو متقاربين، فقد ذكر قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] في مكانين مختلفين ووجههما توجيهين مختلفين(٤). وقد

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥، وينظر ١/ ٦١٢ ـ ٦١٣ (تحقيق الفلاّح).
(٢) ملاك التأويل ٢/ ٧٦٣، وينظر ٢/ ٩١٢ (تحقيق الفلاّح).
(٣) ملاك التأويل ١/ ١٦٤، وينظر ١/ ٣٠٩ (تحقيق الفلاّح).
(٤) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٨٣ ـ ١٨٥، ٢/ ٧٩٠ ـ ٧٩١.

كان يفترض أن يذكر الآيتين في مكان واحد يذكر فيه كلا التوجيهين.

كما ذكر قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ٤٠] وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفتح: ١٤] في مكانين مختلفين ووجّههما توجيهين متقاربين(١). ويبدو لي أنه لا داعي للإعادة والتكرار.

ز ـ ملاك التأويل ومعترك الأقران:

ذكرنا أن السيوطي قال في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) إنه لم يقف على كتاب (الملاك)(٢)، في حين نقل في كتابه (معترك الأقران) نصًّا طويلاً من الملاك فقال: «قال ابن الزبير: وأما مناسبة الوصف الوارد في سورة الأنعام... ملائماً لما اتصل به والله أعلم»(٣). وهذا يعني أحد احتمالين:

الاحتمال الأول: أنه وقف على كتاب ابن الزبير بعد أن وضع كتابه (الإتقان).

الاحتمال الثاني: أنه اقتبس هذا النص من كتاب آخر نقله من الملاك.

ولكننا لا نجد له عذرًا في أنه نقل نصوصًا كثيرة من كتاب (الملاك) في كتابه (معترك الأقران) دون أن ينسبها إلى ابن الزبير أو إلى أي مصدر آخر نقلها منه، وسأنقل النصوص كاملة كما وردت في الكتابين ليرى القارئ كيف أن السيوطي دوّن هذه النصوص في كتابه دون أن يعزوها إلى أحد:

١ ـ جاء في الملاك: «ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن بناء آية الأنعام على

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٣٨ ـ ١٤٠، ٢٥٢ ـ ٢٥٤.

(٢) ينظر الإتقان ٣/ ٣٣٩.

(٣) معترك الأقران ١/ ٨٣ ـ ٨٤، وينظر ملاك التأويل ١/ ١٥ ـ ١٧.

آية بنيت على اسم الفاعل وإن كان خبراً وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ ، فلما اكتنفت الآية أسماء فاعلين جيء بها باسم الفاعل في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ ليناسب ذلك ، فعطف (مخرج) على (فالق) إذ هو معطوف على ما عطف عليه فهو معطوف عليه ، ثم جيء بعد باسم الفاعل وهو قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ فتناسب هذا»[1] .

وجاء في (معترك الأقران): «فالجواب لأن بناءها على آية بنيت على اسم الفاعل وإن كان خبرًا وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ ، فلما اكتنفت الآية اسما فاعلين جيء فيها باسم الفاعل ليناسب ذلك ، فعطف (مخرج) على (فالق) إذ هو معطوف على ما عطف عليه ، فهو معطوف عليه ، ثم جيء بعد باسم فاعل وهو قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ فتناسب هذا»[2] .

٢ ـ جاء في الملاك: «لا فرق بينهما إلا ما لا يعد فارقًا ، إذ الافتعال والتفاعل متقاربان ، أصولهما الشين والباء والهاء من قولك (أشبه هذا هذا) إذا قاربه وماثله. ورد في أولى الآيتين على أخف البناءين وفي الثانية على أثقلهما رعيًا للترتيب المتقرر»[3] .

وجاء في (معترك الأقران): «ولا فرق بينهما إلا ما لا يعد فارقًا ، إذ الافتعال والتفاعل متقاربان ، أصولهما الشين والباء والهاء من قولك (أشبه هذا هذا) إذا قاربه وماثله. ورد في هذه الآية على أخف البناءين وفي الثانية على أثقلهما رعيًا للترتيب المقرر»[4] .

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٥٠ .

(٢) معترك الأقران ٢/ ٤٩٢ .

(٣) ملاك التأويل ١/ ٣٣٩.

(٤) معترك الأقران ٢/ ٤٩٣ .

٣ ـ جاء في الملاك: «والجواب عنه ـ والله أعلم ـ أن الآيات المتصلة بآية سورة النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط. قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ـ الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ ثم قال: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ وتوالت الآي بعدُ على هذا المعنى، فقدم قوله (بالقسط) ليناسب ما ذكر.

وأما آية المائدة فثبت قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه فناسب قوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ ثم أتبع بما بني على ذلك من الشهادة بالقسط، فتأمل ما بني على هذه وما بني على آية النساء يتضح لك ما قلته»[(١)].

وجاء في (معترك الأقران): «والجواب آيات سورة النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط. قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وقال بعد: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ ثم قال: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ وتوالت الآي بعدُ على هذا المعنى، فقدم القسط ليناسب ما ذكر.

وأما آية المائدة فذكر قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمته والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه فناسب قوله: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ ثم أتبع بما بني على ذلك من الشهادة بالقسط، فتأمل ما بني على هذه وما بني على آية النساء يتضح لك ما قلت»[(٢)].

٤ ـ جاء في (الملاك): «والجواب... أن مورد الآيتين مختلف في الموضعين. أما الوارد في البقرة فقصد به مجرد الإخبار والإعلام لرسول الله ﷺ بما جرى في قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه، وابتداء خلقه، وأمر الملائكة بالسجود له، وما جرى من إباية إبليس عن

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٢١.

(٢) معترك الأقران ٣/ ١٧٦.

السجود ، ثم ما أمر به آدم من سكنى الجنة والأكل منها ، ولم يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زماني أو تحديد غاية ، فناسبه الواو وليس الفاء.

وأما آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم الله ـ جل وتعالى ـ على آدم وذريته» [1].

وجاء في (معترك الأقران): «والجواب أن مورد الآيتين مختلف في الموضعين ، لأن الوارد في البقرة قصد به مجرد الإخبار والإعلام لرسوله ﷺ بما جرى في قصة آدم عليه السلام ، وابتداء خلقه ، وأمر الملائكة له بالسجود ، وما جرى من إباية إبليس عن السجود ، ثم ما أمر به آدم من سكنى الجنة والأكل منها ، ولم يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زماني أو تحديد غاية ، فناسبه الواو وليس موضع الفاء.

وأما آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم الله تعالى على آدم وذريته» [2].

٥ ـ جاء في (الملاك): «والجواب أن آية البقرة مبنية على ما أعد الله تعالى للمنفق في سبيله وما يضاعف له من أجر إنفاقه ، وأن ذلك ينتهي إلى سبعمائة ضعف. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ قد يفهم الزيادة على ما نص عليه من العدد كما أشارت إليه آيات وأحاديث ، فبناء هذه الآية على التكثيرِ ، فناسب ذلك ورود المفسَّر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظًا للغاية المقصودة ، ولم يكن ما وضعه للقليل في الغالب ليناسب ما تلحظ فيه من الغاية من التكثير.

أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات ، فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة ، لأنه إخبار برؤيا ، فوجه الإتيان من

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٢.

(٢) معترك الأقران ٣/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

أبنية الجموع بما يناسب المرئيّ وهو قليل ، لأن ما دون العشرة قليل.

فلحظ في آية البقرة ما بعده مما يتضاعف إليه هذا العدد وليس في آية يوسف ما يلحظ، فافترق القصدان، وجاء كل على ما يجب ويناسب» [١].

وجاء في (معترك الأقران): «لأن آية البقرة مبنية على ما أعد الله تعالى للمنفق في سبيله وما يضاعف له من أجر إنفاقه ، وأن ذلك ينتهي إلى سبعمائة ضعف. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ قد يفهم الزيادة على ما نص عليه من العدد كما أشارت إليه آيات وأحاديث ، فمبنى هذه الآية التكثير ، فناسب ذلك ورود المفسِّر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظًا للغاية المقصودة ، ولم يكن ما وضعه للقليل في الغالب ليناسب ما لحظ فيه من الغاية من التكثير.

أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات ، فلا طريق هنا للحظ قلة ولا كثرة ، لأنه إخبار برؤيا ، فوجهه الإتيان من أبنية الجموع بما يناسب المراد وهو قليل ، لأن ما دون العشرة قليل.

فلحظ في آية البقرة وما بعدها مما يتضاعف إليه هذا العدد وليس في آية يوسف ما يلحظ ، فافترق القصدان ، وجاء كل على ما يجب» [٢].

٦ ـ جاء في (الملاك): «والجواب... أن جمع التكسير يشمل أولي العلم وغيرهم. وجمع السلامة يختص في أصل الوضع بأولي العلم ، وإن وجد في غيرهم فبحكم الإلحاق والتشبيه كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ وما يلحق بهذا. وإذا تقرر هذا فورود جمع السلامة في قوله في سورة البقرة: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ مناسب من جهتين: **إحداهما**: شرف الجمع لشرف المجموع.

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) معترك الأقران ٣/ ٢٣٣.

والثانية: مناسبة زيادة المد لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق.

وأما الآية الأولى من سورة آل عمران فمثل الأولى في مناسبة الشرف، ومناسبة زيادة المد للزيادة في الفعل العامل في اللفظ المجموع في قراءة من قرأ (ويقاتلون). ولما لم يكن في الآية الثالثة سوى شرف المجموع، وكانت العرب تتسع في جموع التكسير فتوقعها على أولي العلم وغيرهم أتى بالجمع هنا مكسرًا لتحصل اللغتان حتى لا يبقى لمن تحدي بالقرآن حجة، إذ هم مخاطبون بما في لغاتهم، فلا يقصر في شيء من خطابهم على أحد الجائزَين دون الآخر لئلا يتكرر، فإن ذلك يرد على وجه واحد مما يجوز فيه. فتفهّم ما أجملته فسوف يتضح لك به إذا استوفيته ما يعينك على فهم الإعجاز»[(١)].

وجاء في (معترك الأقران): «فالجواب أن جمع التكسير يشمل أولي العلم وغيرهم. وجمع السلامة يختص في أصل الوضع بأولي العلم، وإن وجد في غيرهم فبحكم الإلحاق والتشبيه كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآية، وما يلحق بهذا، وإذا تقرر هذا فورود جمع السلامة في قوله في سورة البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مناسب من جهتين: **إحداهما**: شرف الجمع لشرف المجموع. **والثانية**: مناسبة زيادة المد لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق.

وأما الآية الأولى من سورة آل عمران فمثل الأولى في مناسبة الشرف، ومناسبة زيادة المد للزيادة في الفعل العامل في اللفظ المجموع في قراءة من قرأ (ويقاتلون). ولما لم يكن في الآية الثالثة سوى شرف المجموع، وكانت العرب تتسع في جموع التكسير فتوقعها على أولي العلم وغيرهم أتى بالجمع هنا مكسرًا لتحصل اللغتان حتى لا يبقى لمن

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٧٣ ـ ٧٤.

يُتحدّى بالقرآن حجة ، إذ هم مخاطبون بما في لغاتهم ، فلا يقتصر في شيء من خطابهم على أحد الجائزَين دون الآخر إلا أن يتكرر ، فإذ ذاك يرد على وجه واحد مما يجوز فيه. فتأمل ما أجملته فسوف يتضح لك به إذا استوفيته ما يعينك على فهم الإعجاز» (١).

٧ ـ جاء في (الملاك): «ثم أُعقب بقوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ والمراد: من يصرف عنه العذاب في الآخرة فقد رحمه ، عطف عليه قوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ وكأن الكلام في قوة قوله: فقد رُحم وفاز ، كما في قوله: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾. والفاء هنا وفي قوله: ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ جواب الشرط ، والفوز مسبب عن الرحمة ، فاكتفي بذكره في آية آل عمران وذكرا معًا في آية الأنعام ، فعطفُه عليه بيّن. ولم يتقدم من أول السورة إلى هنا ما يتوهمه العاقل فوزًا فيتحرّز منه بما يعطيه ضمير (هو) من المفهوم ، فلم يقع الضمير هنا» (٢).

وجاء في (معترك الأقران): «ثم أعقبه بقوله تعالى: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ والمراد من يصرف عنه العذاب في الآخرة فقد رحمه ، عطف عليه قوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وكأن الكلام في قوة: فقد رُحم وفاز ، كما في قوله: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾. والفاء هنا وفي قوله: ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ جواب الشرط ، والفوز مسبب عن الرحمة ، فاكتفي بذكره في آية آل عمران وذكرا معًا في آية الأنعام ، فعطفُه عليه بيّن. ولم يتقدم من أول السورة إلى هنا ما يتوهمه العاقل فوزًا فيتحرّز منه بما يعطيه ضمير (هو) من المفهوم ، فلم يقع الضمير هنا» (٣).

٨ ـ جاء في (الملاك): «إنه لما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل

---

(١) معترك الأقران ٣/ ٣٢٠.
(٢) ملاك التأويل ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(٣) معترك الأقران ٣/ ٣٣٢.

وجود الضلال في الذرية المدعو لها ، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يُمنحونه في التعليم وما يتلى عليهم من الآيات ، لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال إذا وفّقوا للانقياد له. ألا ترى ارتباط التزكية بأعمال الطاعات ، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ، وإنما كانت تزكية لهم بانقيادهم للطاعة فيما يطالبهم به من ذلك ويأخذه منهم ، فتأخر ذكر التزكية المسبَّبة عما به تحصل ، وذلك بعد هدايتهم للإيمان ، فجاء على الترتيب من بناء المسبَّب على سببه.

ولما كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام أخّر ذكر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ليكون تلوه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علّمهم وأعطاهم وامتنّ عليهم وهو ثاني المسببَّين ، فكأن الكلام في قوة أن لو قيل: ويعلمهم ما به زوال ضلالهم ، وأخر في هاتين الآيتين ذكر السبب ليوصل بمسببَّه الأكيد هنا الذي قد كان وقع ، وهو رفع ضلالهم وإنقاذهم من عظيم محنته. ولو أخر ذكر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا. فاختلاف الترتيب هنا إنما هو بحسب اختلاف القصدين ، فروعي ما ذكر ، فورد كل على ما يجب» [١].

وجاء في (معترك الأقران): «إنه لما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضلال في الذرية المدعو لها ، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يُمنحونه من التعليم وما يتلى عليهم من الآيات ، لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال إذا

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٩٢ ـ ٩٣.

وفّقوا للانقياد له. ألا ترى ارتباط التزكية بأعمال الطاعات، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، وإنما كانت تزكية لهم لانقيادهم بالطاعة فيما يطالبهم به من ذلك ويأخذه منهم، فتأخر ذكر التزكية المسبَّبة عما به تحصل، وذلك بعد هدايتهم للإيمان، فجاء على الترتيب من بناء المسبَّب على سببه.

ولما كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام أخّر ذكر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ليكون تلوه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علّمهم وأعطاهم وامتنّ عليهم وهو ثاني المسبَّبين، فكأن الكلام في قوة أن لو قيل: ويعلمهم ما به زوال ضلالهم، وأخر في هاتين الآيتين ذكر السبب ليوصل بمسببَّه الأكيد هنا الذي قد كان وقع، وهو رفع ضلالهم وإنقاذهم من عظيم محنته. ولو أخر ذكر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا. فاختلاف الترتيب هنا إنما هو بحسب اختلاف القصدين، فروعي ما ذكر، فورد كل على ما يجب»[(١)].

لقد ذكرت هذه النصوص كاملة من الكتابين ليتبين منها أن ما ورد في (معترك الأقران) مشابه لما ورد في (ملاك التأويل)، ولا يوجد اختلاف بينها إلا في ألفاظ قليلة. وللأمانة العلمية فقد كان يفترض أن يعزوها السيوطي إلى صاحبها أو إلى من أخذها منه لكي لا يظن ظانّ أن هذا الكلام هو كلام السيوطي.

* * *

---

(١) معترك الأقران ٣/ ٥٣٣.



الفصل الثاني

دراسة المفردة

يعرض هذا الفصل المفردة في القرآن الكريم من خلال كتاب (ملاك التأويل) ، فيقف على أبنية الأسماء ثم أبنية الأفعال ، ثم يدرس أحوال المفردة من حيث التنكير والتعريف ، وأنواع المعارف ، ثم يتناول تذكير الفعل وتأنيثه ، ثم يبحث سبب تعاور الحروف في الآيات المتشابهة سوا كانت حروف الجر أم أحرف النفي أم أحرف العطف. وأخيرًا يعرض الفروق اللغوية في قسم من الآيات المتشابهة.



المبحث الأول
دراسة اختلاف أبنية الألفاظ

يدرس هذا المبحث اختلاف أبنية الألفاظ ، فقد نرى آيات متشابهة تختلف مفرداتها من حيث الاسمية والفعلية فترد في موطن بالصيغة الاسمية وفي نظيره بالصيغة الفعلية ، أو تختلف فيها أبنية الأسماء من حيث صيغ الوصف فنجدها في آية بوصف معين وفي آية أخرى شبيهة بها بوصف آخر ، أو نجد الكلمة مفردة في موطن ، ومثناة أو مجموعة في الآية المشابهة لها ، أو تتباين في صيغ جموعها.

وقد يكون الاختلاف في أبنية أفعالها ، حيث يرد الفعل في موطن مجردًا وفي موطن آخر شبيه به مزيدًا ، أو قد يرد مزيدًا في الموطنين ولكن الاختلاف في أحرف زيادته ، أو يأتي مدغمًا في موطن ومفكوك الإدغام في موطن آخر شبيه به ، أو يأتي مبنيًّا للمعلوم وفي نظيره مبنيًّا للمجهول ، كل ذلك بصورة فنية يقتضيها سياق نص كما سنرى ذلك.

أولاً ـ المفردة بين الاسمية والفعلية

في القرآن الكريم آيات متشابهة تختلف مفرداتها من حيث الاسمية والفعلية ، فترد في موطن بالصيغة الاسمية وفي موطن آخر بالصيغة الفعلية. وقبل أن نقف على ما وقف عليه ابن الزبير ينبغي أن نبيّن ما يفيده كل من الاسم والفعل.

يذكر اللغويون أن الاسم يفيد الثبوت، والفعل يفيد الحدوث والتجدد. فإذا قلنا: (محمد مجتهد) فقد أسندنا الاجتهاد إلى محمد على وجه الثبوت، وإذا قلنا: (يجتهد محمد) فقد أسندناه إليه على وجه الحدوث والتجدد.

وإذا قلنا: (يخطب زيد) فقد أسندنا إليه الفعل على وجه الحدوث ، أي خطب بعد أن لم يكن يخطب، ولكن إذا قلنا: (زيد خطيب) فقد أسندنا إليه هذا الوصف على وجه الثبوت ، أي أن هذا الوصف ثابت في صاحبه.

يقول عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) وهو يتكلم على الفرق بين الإسناد إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل: «وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء. وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء. فإذا قلت: (زيد منطلق) فقد أثبتّ الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئًا فشيئًا ، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: (زيد طويل وعمرو قصير) ، فكما لا يقصد ههنا إلى أن تجعل

الطول أو القصر يتجدد ويحدث بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك: (زيد منطلق) لأكثر من إثباته لزيد.

وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك ، فإذا قلت: (زيد ها هو ذا ينطلق) فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا وجعلته يزاوله ويزجيه» [(١)].

ويقول الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ): «الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها ، فإذا قلت: (زيد منطلق) لم يفد إلا إسناد الانطلاق إلى زيد. وأما الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها ، فإذا قلت: (انطلق زيد) أفاد ثبوت الانطلاق في زمان معين لزيد. وكل ما كان زمانيًّا فهو متغير ، والتغير مشعر بالتجدد ، فإذن الإخبار بالفعل يفيد وراء أصل الثبوت كون الثابت في التجدد والاسم لا يقتضي ذلك» [(٢)].

ويقول الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ): «وأما كونه ـ يعني المسند ـ فعلاً فللتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصر ما يكون مع إفادة التجدد. وأما كونه اسمًا فلإفادة عدم التقييد والتجدد» [(٣)].

وقد قلنا إن هناك آيات قرآنية وردت فيها مفردات بالصيغة الاسمية وفي نظائرها بالصيغة الفعلية. ولا بد أن يكون هناك سبب للتخصيص بحيث لا يمكن أن تقع مفردة مكان نظيرتها ، ولو وقعت لاختل النظم. وقد ذكر ابن الزبير بعض هذه الآيات وبيّن سبب التخصيص فيها ، فوجّه بعضها بناءً على ما يفيده الاسم من الثبوت والفعل من التجدد ، ووجّه بعضها توجيهًا آخر.

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٢.

(٢) نهاية الإيجاز ٧٥.

(٣) الإيضاح ١/ ٧٨ ، وينظر١/ ٩٩ ، وحاشية يس على التصريح ١/ ١٧٣ ، وحاشية الصبان ١/ ٢١٠.

فمن الآيات التي وجهها بناء على ما يفيده الاسم من الثبوت والفعل من الحدوث والتجدد قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقوله على لسان هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

فقد ذكر ابن الزبير سبب قول نوح في الآية الأولى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ بالصيغة الفعلية، وقول هود في الآية الثانية: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ بالصيغة الاسمية فقال: إن نوحاً في الآية الأولى «بيّن لهم نصحه واستمراره في إبلاغهم ونصحهم فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾، ثم أتبع بتعريفهم بجهلهم بما عنده من ربه وبعلمه هو بذلك فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإنما قال: (وأنصح)، (وأعلم) ليعلم بتماديه على النصح لهم وهم لا يشعرون ولا يهتدون...

وأما جواب هود عليه السلام... [فـ] إنما أتى في إخبارهم بنصحه وأمانته بالاسم فقال: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، ولم يقل (أنصح) فيأتي بالفعل، ليحصل منه أن ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق، ولم يكن الفعل ليعطي ذلك، فجاء بالاسم وجعله الخبر عن ضميره الذي هو (أنا)» (١).

وقد سبقه إلى هذا الرأي الفخر الرازي حيث قال: «فلما كان من عادة نوح عليه السلام العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل فقال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾. وأما هود عليه السلام فقوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ يدل على كونه مثبتاً في تلك النصيحة مستقرًّا فيها» (٢).

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٦.

ويؤيد ما ذهبا إليه ما جاء في القرآن الكريم على لسان نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٥ ـ ٩] فأسلوب هذه الآيات يشعر بالتجدد في دعوة نوح عليه السلام.

وقد جعل ابن الزبير هذه الدلالة ـ أي: دلالة الاسم على الثبوت، والفعل على الحدوث والتجدد ـ شبيهة بقوله سبحانه في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤] فقال: إن المنافقين خاطبوا المؤمنين بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد (آمنّا)، وخاطبوا إخوانهم وشياطينهم بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام فقالوا: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (١).

وجاء في (تسهيل السبيل) لأبي الحسن البكري (ت ٩٥٥ هـ) أنهم «خاطبوا بالجملة الفعلية أولاً في ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ وبضدها في ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ لإظهار الثبات على معتقدهم الفاسد، وأن ما خاطبوا به المؤمنين أمر متجدد بسبب لقائهم تقية فقط» (٢).

ثم إن قول نوح عليه السلام جاء بعد أن اتهمه قومه بالضلال فقالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وأما قول هود عليه السلام فقد جاء بعد أن رماه قومه بالسفاهة فقالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦]، والسفاهة صفة لازمة لصاحبها ثابتة فيه، فأتى بالصيغة التي تدل على الثبوت فقال: ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾، بخلاف الضلال فإنه وصف عارض يمكن تركه إلى نقيضه من الهدى، فناسبه الصيغة التي تدل

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.
(٢) تسهيل السبيل للبكري (سورة البقرة).

على الحدوث ، فجاء بعده قوله : ﴿وَأَنصَحُ﴾ ليناسب الحدوث الحدوث والثبوت الثبوت(١) .

* * *

ومنها قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق : ٢٢ ـ ٢٣] وقوله : ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج : ١٩ ـ ٢٠] .

يقول ابن الزبير : إن سبب اختصاص الآية الأولى بقوله : ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ ، والآية الثانية بقوله: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ هو «أن آية الانشقاق تقدمها وعيد أخراوي كله لم يقع بعد، وهم مكذبون بجميعه، فجيء هنا باللفظ المقول على الاستقبال. . . فأما آية البروج فقد تقدمها قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (٢) وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقيل : ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ وجيء بالمصدر ليحرز تماديهم، وأن ذلك شأنهم أبدًا فيما أخبرهم به» (٣) .

أما الخطيب الإسكافي فقد وجههما بناءً على اختلاف الفواصل في السورتين فقال : «إن ما قبل الأولى ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ (٤) فكانت الفواصل التي تقدمتها على (يفعلون) فجعلت هذه تابعة لها مع صحة المعنى واللفظ ، والثانية في فواصل مرادفة بياء أو واو وهي قوله : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ (٥) وعلى ذلك

---

(١) ينظر كشف المعاني ١٧٩ .

(٢) الآيتان ١٧ ـ ١٨ .

(٣) ملاك التأويل ٢/ ٩٤٩ .

(٤) الانشقاق ٢٠ ـ ٢٢ .

(٥) البروج ١٧ ـ ٢٠ .

بنيت السورة فكان حملها على نظائرها من السور أولى مع صحة اللفظ والمعنى»[1].

ثم إن آية البروج يمكن أن نوجهها توجيهاً آخر فنقول: إن (في) تفيد الظرفية، يقول سيبويه: «وأما (في) فهي للوعاء»[2] فكأن (التكذيب) وعاء ضم الكافرين وأحاط بهم. وهذا مناسب للإحاطة المذكورة في الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾.

* * *

وقد يكون لبعض الآيات أكثر من توجيه يستنبط كله مما يدل عليه الفعل من الحدوث، والاسم من الثبوت. من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] ففي هذه الآية ورد (ليهلك) بالصيغة الفعلية.

في حين ورد بالصيغة الاسمية في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

يرى ابن الزبير أن سبب قوله: (ليهلك) أي بالصيغة الفعلية في الآية الأولى هو أن «تكررَ الفساد وعم كل قرن فتكرر عليهم الجزاء والأخذ فأشار الفعل إلى التكرر»[3].

وأما في الآية الثانية فقد قصد ذكر الاتصاف بعدم الإهلاك ولم يقصد التكرار[4].

---

(١) درة التنزيل ٥٢٩.
(٢) الكتاب ٢/٣٠٨.
(٣) ملاك التأويل ٢/ ٥٣٤.
(٤) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥.

وهناك توجيه آخر لآية هود استنبط أيضًا مما يفيده الفعل من التجدد وهو: «أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها وذكر سنة الله في الأمم. قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٢ ـ ١١٧].

فهو ـ كما ترى ـ في سياق الدنيا وسنن البقاء ، فجاء بالصيغة الفعلية ؛ لأن الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا. فجاء بالصيغة الفعلية الدالّة على الحدوث والتجدد (ليهلك)» [1].

وأما آية القصص فقد ذكر فيها أن أهلها ظالمون «والظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات.

ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال: ﴿وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: (يظلمون) ، وذلك معناه أن الظلم كان وصفًا ثابتًا لهم مستقرّاً فيهم غير طارئ عليهم ، فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيّء» [2].

وهكذا رأينا أن لآيتي هود والقصص توجيهين مختلفين قد استنبطا مما يفيده الفعل من الحدوث والتجدد ، والاسم من الثبوت.

* * *

---

(١) التعبير القرآني ٢٥.

(٢) التعبير القرآني ٢٦.

ومن الآيات المتشابهة التي اختلفت مفرداتها بين الاسمية والفعلية قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقوله: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ [يونس: ٣١] باستعمال الفعل (تخرج) في الآية الأولى، و(يخرج) في الآية الثانية.

وقوله في نظيرها: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ [الأنعام: ٩٥] باستعمال اسم الفاعل (مخرج).

يرى ابن الزبير أن آية الأنعام جاءت على هذه الصيغة؛ لأنها قد تقدمها قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ﴾ وجاء بعدها قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾، و(فالق) اسم فاعل، فناسب ذلك أن تأتي ﴿وَمُخۡرِجُ﴾ على هذه الصيغة لأنها اسم فاعل أيضاً، بخلاف الآيتين الأخريين[1]. ومعنى هذا أن التناسب عنده لفظي.

ويمكن توجيه هذه الآيات بناءً على ما يفيده الاسم من الثبوت، والفعل من التجدد، ففي آية الأنعام «استعمل الفعل مع (الحي) فقال (يخرج)، واستعمل الاسم مع الميت فقال (مخرج)، وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد، فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد، ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال: ﴿وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾...

إن السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتجدد عمومًا، فالله سبحانه يؤتي ملكه من يشاء أو ينزعه منه، ويعز من يشاء أو يذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وغير ذلك من

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٥٠.

الأحداث. فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل ، فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة»[1].

وكذلك في آية يونس استعمل الفعل (يخرج) مع (الميت) كما رأينا في آية آل عمران ، وذلك لأن سياق هذه الآية في الحركة والحدوث والتجدد ، فعملية الرزق من السماء والأرض وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي وتدبير الأمر ، كل هذا يتكرر ويحدث بصورة مستمرة ، ولهذا جاء بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد.

* * *

ثانيًا ـ أبنية الأسماء

هناك آيات متشابهة يكون الاختلاف في أبنية أسمائها ، وذلك كأن يكون الاختلاف في صيغ الوصف كما نجد ذلك في قوله تعالى في موطن: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ ، وفي موطن آخر شبيه به: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ ، أو يكون الاختلاف في المفردة من حيث إفرادها وتثنيتها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ، وفي آية شبيهة به: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، أو من حيث إفرادها وجمعها كما في قوله سبحانه في آية: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ، وفي آية أخرى شبيهة بها: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ، أو يكون التباين في صيغ الجموع نحو قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وقوله في نظيره: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾. ولابد أن نتيقن أن هذا التباين والاختلاف قد دعا إليه سياق النص كما سيتبين لنا ذلك من خلال توجيه ابن الزبير وغيره من العلماء لهذه الآيات وغيرها.

---

(١) التعبير القرآني ٢٣.

أ ـ اختلاف صيغ الوصف :

هناك آيات قرآنية متشابهة تختلف مفرداتها في صيغ وصفها ، فيأتي الوصف في موطن منها على صيغة وفي موطن آخر على صيغة أخرى. ولا بد أن يكون لهذا الاختلاف سبب ، ونريد أن نعرف هذا السبب من خلال توجيه ابن الزبير وغيره من العلماء.

من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقوله : ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١] .

فقد خصت الآية الأولى بقوله : ﴿مُشْتَبِهًا﴾ ، والآية الأخرى بقوله : ﴿ مُتَشَٰبِهًا﴾ فما الفرق بين الصيغتين؟ وما سبب التخصيص؟

ذهب كثير من العلماء إلى مجيء (تفاعلَ) بمعنى (افتعلَ). جاء في (الكتاب) : «وأما (تفاعلت) فلا يكون إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعداً. . . وذلك قولك : تضاربنا وترامينا وتقاتلنا. وقد يشركه (افتعلنا) فتريد بهما معنًى واحداً وذلك قولهم : تضاربوا واضطربوا ، وتقاتلوا واقتتلوا ، وتجاوروا واجتوروا ، وتلاقوا والتقوا» (١) .

وجاء في (لسان العرب) : «وتشابه الشيئان واشتبها : أشبه كل واحد منهما صاحبه» (٢) .

وجاء في (تاج العروس) : «وتشابها واشتبها : أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾» (٣) .

---

(١) الكتاب ٢/ ٢٣٩ ، وينظر شرح الرضي على الشافية ١/ ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) لسان العرب (مادة شبه) ١٧/ ٣٩٨ .

(٣) تاج العروس (مادة شبه) ٩/ ٣٩٣ .

وقد ذهب ابن الزبير وغيره من العلماء إلى أنه لا فرق بين (مشتبهًا) و (متشابهًا) [(١)].

وعلى الرغم من أن صيغة (تفاعلَ) تأتي بمعنى (افتعلَ) لا بد أن يكون هناك فرق دقيق بينهما دعا القرآن الكريم إلى أن يخصص كل آية بالصيغة التي وردت فيها ؛ لأن «اختلاف المباني دليل على اختلاف المعاني» [(٢)] ، والقرآن الكريم لا يستعمل كلمة بصيغة ما إلا لسبب يقتضيه سياق النص.

وذكر ابن الزبير أن سبب التخصيص هو أن الصيغة في الآية الأولى وردت«على أخف البناءين ، وفي الثانية على أثقلهما رعيًا للترتيب المقرر» [(٣)] ، ويعني بالترتيب المقرر أن القرآن الكريم إذا وردت فيه صيغتان لكلمة واحدة إحداهما أخف من الأخرى فإنه يذكر أخف الصيغتين أولاً ثم يثني بالأثقل.

مثال ذلك أنه بدأ بقوله: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ [البقرة: ٣٨] قبل قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣] لأن الصيغة الثانية أثقل من الصيغة الأولى كما هو واضح.

وكذلك هاتان الآيتان فقد وجههما بناءً على ذلك فقال: إن سبب ورود (مشتبهاً) في الآية الأولى ، و(متشابهاً) في الآية الثانية هو أن الصيغة الأولى أخف من الصيغة الثانية.

ونقل عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنه قال: «متشابهًا في النظر وغير متشابه في الطعم ، مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف» [(٤)]

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٣٩ ، وتفسير الكشاف ١/ ٥٢٠ ، وتفسير الرازي ١٣/ ١١٠ ، والبحر المحيط ٤/ ١٩١.

(٢) معاني النحو ١/ ١١.

(٣) ملاك التأويل ١/ ٣٣٩.

(٤) البحر المحيط ٤/ ١٩١ ، وينظر تفسير الطبري ٥/ ٥٢ ، وتفسير البيضاوي ٢/ ٢٠٠.

ولا أرى في النص ما يدل على هذا.

وقد ذكرت المعاجم اللغوية الفرق الدلالي بين الصيغتين، فقد جاء في (القاموس المحيط): «وأمور مشتبهة ومشَبَّهة كمعَظَّمة: مشكِلة»[1].

وجاء في (تاج العروس): «أمور مشتبهة ومشبَّهة كمعظَّمة، أي: مشكِلة ملتبسة يشبه بعضها بعضاً»[2].

وجاء في (المصباح المنير): «فالمشابهة: المشاركة في معنى من المعاني، والاشتباه: الالتباس»[3].

فاتضح مما سبق «أن (اشتبه) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال كقولهم: (اشتبهت عليه القبلة، واشتبه علية الأمر)، وأن (تشابه) أكثر ما يفيد المشاركة في معنى من المعاني سواء أدّى إلى الالتباس أم لم يؤد»[4].

بعد بيان الفرق الدلالي بينهما يحسن أن نضع كلاًّ من الكلمتين في سياقهما لنقف على سبب تخصيص كل آية بما خُصَّت به.

قال تعالى في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال في الآية الأخرى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

---

(١) القاموس المحيط (مادة شبه) ٤/ ٢٨٦.

(٢) تاج العروس (مادة شبه) ٩/ ٣٩٣، وينظر لسان العرب(مادة شبه) ١٧/ ٣٩٨.

(٣) المصباح المنير ٣٠٤.

(٤) بلاغة الكلمة ٩٢.

إن سياق الآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته الباهرة في خلقه ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ . . . ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا . . . ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا . . . ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . . ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً . . . ﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩].

وأما سياق الآية الأخرى ففي بيان الأطعمة وما يحلّله ويحرّمه أهل الكفر افتراء على الله وبيان عقائدهم الباطلة ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ . . . ﴿١٣٦﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ . . . ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ . . . ﴿١٣٩﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ . . . ﴾ [الأنعام: ١٣٦ ـ ١٤١] (١).

«إن الأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمل لإدراك حقيقة أمرها ، فوضع (مشتبهاً) في السياق الدالّ على قدرته وآياته ، وفي موضع الأمر بالنظر ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ دون الموضع الآخر مما ليس في هذا السياق. فكان كل تعبير أنسب في سياقه الذي ورد فيه» (٢).

* * *

ومن الآيات التي اختلفت فيها صيغ الوصف قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ [هود: ٢٢]. وقوله : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [النحل: ١٠٩].

---

(١) ينظر بلاغة الكلمة ٨٧ ـ ٨٩.

(٢) بلاغة الكلمة ٩٢.

يرى ابن الزبير أن سبب تخصيص آية هود بقوله: ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ وآية النحل بقوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ هو أن آية هود تقدمها قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: ١٧] وهذه الآية تفهم المفاضلة، أي من كان على بينة من ربه ليس كمن كفر وجحد وكذب الرسل. ثم قال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨] فقد جاء باسم التفضيل (أظلم)، فناسب هذا لفظ (الأخسرون) بصيغة المفاضلة.

أما آية النحل فلم يقع قبلها اسم تفضيل ولا ما يفهم المفاضلة، فناسب هذا لفظ (الخاسرون) [(١)].

ويرى الخطيب الإسكافي أنهم وُصفوا بالأخسرين في آية هود لأنهم ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾، فهم لا يكتفون بضلالهم، وإنما يضلون غيرهم ليكونوا في الضلال سواء، فاستحقوا الوصف بالخسران بصيغة التفضيل.

وأما في آية النحل فلم يخبر عن الكفار أنهم مع ضلالهم أضلوا من سواهم، وإنما قال فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧] فلم يذكر ما يوجب مضاعفة العذاب[(٢)].

وقد ذهب الكرماني إلى ما ذهب إليه الخطيب فقال: «لأن هؤلاء صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فضلوا فهم الأخسرون يضاعف لهم العذاب، وفي النحل صدّوا فهم الخاسرون» [(٣)].

ولا أرى ما يمنع من أن يعود سبب التخصيص إلى كلا السببين والله أعلم.

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥١٢.

(٢) ينظر درة التنزيل ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٣) البرهان ٩٦ ـ ٩٧.

ب ـ اختلاف الاسم إفرادًا وتثنيةً:

قد تختلف آيتان متشابهتان في مفردة من حيث الإفراد والتثنية ، فترد المفردة في آية بصيغة الإفراد وفي آية أخرى بصيغة التثنية ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧] فقد جاءت كلمة (رسولا) في هذه الآية بصيغة التثنية.

في حين جاءت بصيغة الإفراد في قوله سبحانه: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] علمًا بأن المخاطبَين في كلتا الآيتين موسى وهارون.

ولا بد أن يكون هناك سبب دعا إلى تخصيص آية (طه) بصيغة التثنية ، وآية (الشعراء) بصيغة الإفراد دون العكس.

والسبب عند ابن الزبير هو أن آية (طه) وردت على اللغة الشهيرة ، فجاءت بصيغة التثنية وذلك لتقدمها.

وأما آية (الشعراء) فقد وردت على لغة من يطلق (رسول) على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، وهذه اللغة أقل شهرة من الأولى. فوردت آية الشعراء على هذه اللغة لتأخرها[١].

ولعل هذا التوجيه فيه شيء من التكلف ، إذ لو سأل سائل: لمَ لمْ ترد كلتا الآيتين على اللغة الشهيرة؟ ما وجد جوابًا.

ويوجههما الكرماني توجيهًا آخر فيقول: إنه «حيث وحّد حمل على الرسالة ، لأنهما أُرسلا لشيء واحد، وحيث ثنّى حمل على الشخصين»[٢].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٨٢.

(٢) البرهان ١٢٧.

وهذا التوجيه غير مرضيٍّ عندي أيضًا ، لأنه لا يبين لنا سبب التخصيص ، أي : لا يبين سبب حمله على الرسالة في آية (الشعراء) وعلى الشخصين في آية (طه) .

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن سبب إفراد الرسول في آية الشعراء هو «أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوّة كأنهما رسول واحد» (١) .

وهذا الكلام صحيح لكنه ليس بيانًا للتخصيص ، ولو كان كذلك لتساءلنا عن سبب عدم الإفراد في آية (طه) .

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أن سبب التخصيص هو أن الكلام في آية (طه) مبنيّ على التثنية ، قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٢ ـ ٤٧] .

نلاحظ في هذه الآيات أن القصة مبنية على التثنية فناسبها تثنية (رسول) .

وأما الكلام في آية الشعراء فمبني على الوحدة ، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . . . ﴾ [الشعراء : ١٢ ـ ١٨] .

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٤ ، وينظر تفسير الكشاف ٢/ ٤٢١ ، والبحر المحيط ٧/ ٨ ، وفتح القدير ٤/ ٩٣ ، وفي ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٠ .

نلاحظ من هذه الآيات أن القصة في هذه السورة مبنية على الوحدة مع إشارات إلى هارون ، فناسبها إفراد الرسالة وتثنية الضمير[1] .

وعلى هذا فليس من المناسب أن توضع (رسولا) ـ بالتثنية ـ في آية الشعراء ، ولا أن توضع (رسول) ـ بالإفراد ـ في آية طه .

ج ـ اختلاف الاسم إفرادًا وجمعًا :

وقد يكون الاختلاف في المفردة من حيث الإفراد والجمع ، فترد في مكان بصيغة الإفراد ، وفي مكان آخر بصيغة الجمع ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : ٨٠] ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [آل عمران : ٢٤] .

فما سبب ورود (معدودة) ـ بصيغة الإفراد ـ في آية البقرة ، و(معدودات) ـ بصيغة الجمع ـ في آية آل عمران؟

يذكر علماء اللغة في كلامهم على صفة جمع ما لا يعقل أن العرب تستعمل الجمع للقلة والمفرد للكثرة . جاء في (درّة الغوّاص) أن العرب «ألحقوا بصفة الجمع الكثير الهاء فقالوا : (أعطيته دراهم كثيرة) و(أقمت أيامًا معدودةً) ، وألحقوا بصفة الجمع القليل الألف والتاء فقالوا : (أقمت أيامًا معدودات) و(كسوته أثوابًا رفيعات) و(أعطيته دراهم يسيرات)» [2] .

وجاء في (شرح الأشموني) : «والأفصح في جمع القلة مما لا يعقل وفي جمع العاقل مطلقًا المطابقة نحو (الأجذاع انكسرن) و (منكسرات) ، و(الهندات انطلقن) و (منطلقات) . والأفصح في جمع الكثرة مما لا يعقل الإفراد نحو (الأجذاع انكسرت) و (منكسرة)» [3] .

---

(١) ينظر بلاغة الكلمة ٩٧ ـ ٩٩ .

(٢) درة الغواص ١٠١ .

(٣) شرح الأشموني ١/ ٧ .

وعلى هذا فقوله تعالى مخبراً عن نعيم الجنة : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية : ١٣ ـ ١٦] يدل على أن في الجنة سررًا وأكوابًا ونمارق وزرابي كثيرة ، ولو قال: (مرفوعات ، موضوعات ، مصفوفات ، مبثوثات) لدلّ على أنهنّ قليلات ، هذا علاوة على ما تقتضيه فواصل الآيات .

وأما قوله تعالى : ﴿ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] فيدل على أنها قليلات ، لأن أيام الحج قليلات .

ولم يوجه ابن الزبير آيتي البقرة وآل عمران بناء على ما ذكرناه عن اللغويين في كلامهم على صفة جمع ما لا يعقل ، وإنما وجههما توجيهًا لفظيًا فقال: إن في آية البقرة إيجازاً وفي آية آل عمران إطالة ، حيث أخبر تعالى في الآية الثانية عن اغترارهم بقوله: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤] «وهذا بسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم. ولم يقع في سورة البقرة تعرض لشيء من ذلك، بل أوجز القول ولم يذكر سببه. فناسب الإفراد الإيجاز وناسب الجمع الإسهاب» (١) .

أما الخطيب الإسكافي فيقول: «فأما المعنى في القلة فسواء في قوله: (معدودة) و(معدودات)» (٢) . وهذا الكلام يرده ما ذكرناه من أن (معدودة) للكثرة ، و(معدودات) للقلة .

ويبين الكرماني سبب التخصيص فيقول: «لأن الأصل في الجمع إذا كان واحده مذكرًا أن يقتصر في الوصف على التأنيث نحو قوله: ﴿ سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ وقد يأتي (سرر مرفوعات) على تقدير: ثلاث سرر مرفوعة، وتسع سرر مرفوعات (٣) ، إلا

(١) ملاك التأويل ١/ ٨٣.

(٢) درة التنزيل ٢٤ .

(٣) كذا في المطبوع ، والصواب: ثلاثة سرر ، وتسعة سرر.

أنه ليس بالأصل ، فجاء في البقرة على الأصل وفي آل عمران على الفرع»[1] .

وذهب الفخر الرازي إلى ما ذهب إليه الكرماني فقال: «إن الاسم إن كان مذكرًا فالأصل في صفة جمعه التاء ، يقال: (جرة وجرار مكسورات) و(خابية وخوابي مكسورات) إلا أنه قد يوجد الجمع بالألف والتاء فيما واحده مذكر في بعض الصور نادرًا نحو حمام وحمامات ، وجمل سبطر وجمال سبطرات ، وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ و ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ فالله تعالى تكلم في سورة البقرة بما هو الأصل وهو قوله: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ وفي آل عمران بما هو الفرع»[2] .

ولي أكثر من ملاحظة على ما ذكره الكرماني والرازي:

١ ـ يقول الرازي: «إن الاسم إذا كان مذكرًا فالأصل في صفة جمعه التاء. . . وإن كان مؤنثًا كان الأصل في صفة جمعه الألف والتاء».

وفي القرآن الكريم جموع لأسماء مؤنثة ، صفاتها مختومة بالتاء نحو قوله تعالى: ﴿غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٢٠] وقوله: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥ ـ ١٦] ، فغرف جمع (غرفة) ، ونمارق جمع (نمرقة) ، وزرابي جمع (زربية). وهذه الصفات ليست خارجة عن الأصل ، وإنما جاءت مختومة بالتاء لكثرة الموصوف.

كما أن في القرآن الكريم جموعًا لأسماء مذكرة صفاتها مختومة بالألف والتاء نحو قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، وقوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨] ، وقوله: ﴿۞وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

---

(١) البرهان ٣٢.
(٢) تفسير الرازي ٣/ ١٤٢.

فأشهر جمع (شهر) ، وأيام جمع (يوم) ، وهذه الصفات ليست خارجة عن الأصل ، وإنما جاءت مختومة بالألف والتاء لقلة الموصوف.

وبناءً على هذا يكون ما ذكره الرازي من الأمثلة من قوله: (كوز وكيزان مكسورة ، وجرة وجرار مكسورات ، وخابية وخوابي مكسورات) سواء في الأصل ، ولكن إذا كان الموصوف قليلاً جاءت الصفة مختومة بالألف والتاء ، وإذا كان كثيرًا جاءت الصفة مختومة بالتاء والله أعلم.

٢ ـ يذهب الرازي والكرماني إلى أن الله تعالى تكلم في البقرة بما هو الأصل فقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ، وفي آل عمران بما هو الفرع فقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

ولم يبينا سبب مجيء الأصل في آية البقرة والفرع في آية آل عمران ولم يكن العكس مثلاً ، فإذا كان السبب تقدم آية البقرة وتأخر آية آل عمران فلماذا نجد في سورة البقرة آيات وردت فيها كلمة (أيام) صفاتها مختومة بالألف والتاء نحو قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] ، وقوله: ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فلمَ لم ترد صفاتها على الأصل؟

ولعل الصواب توجيههما على وفق ما ذكرناه من استعمال العرب لصفة جمع ما لا يعقل فنقول: إن الكلام في الآية الأولى«على بني إسرائيل ، وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة ، فذكر أنهم يحرفون كلام الله وهم يعلمون. قال تعالى: ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٦].

فهم يعرفون جرمهم ويقرّون به ويعملون به عن قصد وإصرار ، وقد

توعدهم الله بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

إذن فهم يعملون بالجرم عن قصد ويحرفونه عن علم ليشتروا به ثمنًا قليلاً. وإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ فجاء بصيغة الكثرة.

وليس الأمر كذلك في آية آل عمران، فقد قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ ـ ٢٤].

فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرق كبير بين المقامين، فجاء بزمن العذاب الطويل للجرم الكبير، والقليل للذنب القليل فقال: (معدودات) بصيغة جمع القلة في آل عمران، بخلاف آية البقرة»[(١)].

والدليل الآخر على شدة العذاب وطوله في آية البقرة تكرار (الويل) ثلاث مرات ومجيئه مرفوعاً في الآية التي قبلها للتأكيد على دوام العذاب واستمراره.

* * *

ومن الآيات المتشابهة التي اختلفت مفرداتها إفرادًا وجمعًا قوله تعالى مخبرًا عن قوم صالح عليه السلام: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] فقد أفرد الدار في هذه الآية.

---

(١) التعبير القرآني ٤١ ـ ٤٢.

في حين جمعها في قوله تعالى مخبراً عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٩٤].

يقول ابن الزبير: إن الصيحة «تطلق على ما كان من العذاب بالرجفة وغيرها. وإذا عبر بالرجفة لم يتناول لفظها إلا ما كان عذابًا بها، فناسب عموم الصيحة جمع الديار مناسبة تركيب نظم، وناسب خصوص الرجفة إفراد الدار»[١].

ويؤيد ما ذهب إليه ابن الزبير أننا إذا تصفحنا المصحف وجدنا أنه حيث ذكر الرجفة أفرد الدار وحيث ذكر الصيحة جمعها، فمثال ما أفرد فيه الدار بسبب ذكره الرجفة قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١]، وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٧].

ومثال ما جمع فيه الدار لذكره الصيحة قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٧].

وسبب ذلك أن الصيحة من السماء فتبلغ مساحة من الأرض أكبر مما تبلغه مساحة الرجفة، لأن الرجفة وهي الزلزلة الشديدة تختص بجزء من الأرض، فلذلك وحّد الدار مع الرجفة وجمعها مع الصيحة[٢].

د ـ تباين صيغ الجموع:

من المعروف في اللغة العربية أنه قد تكون للكلمة الواحدة أكثر من جمع، فتجمع مرة جمع مذكر ومرة أخرى جمع تكسير، نحو كلمة (نبي) التي تجمع على نبيين وأنبياء.

وقد تجمع الكلمة جمع مؤنث سالمًا تارة، وتارة أخرى جمع تكسير،

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٠٩.

(٢) ينظر البرهان ٩٩.

نحو كلمة (سنبلة) التي تجمع على سنبلات وسنابل.

وقد تتباين الكلمة في جمعها جمع تكسير، فتأتي مرة على صيغة، ومرة ثانية على صيغة أخرى نحو كلمة (بحر)، فقد تجمع جمع قلة على (أبحر) نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [القمان: ٢٧]، وقد تجمع جمع كثرة على (بحار) نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

وقد جاءت هذه الصور من الجموع في القرآن الكريم، فنرى أن الكلمة الواحدة قد اختلفت في جموعها. فكلمة (خطيئة) ـ مثلاً ـ جمعت على خطيئات وخطايا، وكلمة (نبي) جمعت على أنبياء ونبيين... وهكذا.

ولا بد أن يكون هناك سبب لتخصيص الآية بالجمع الذي وردت فيه دون الجمع الآخر، لأن القرآن لا يستعمل صيغة جمع اعتباطًا، وإنما يراعي في ذلك السياق.

ونريد أن نقف على بعض ما وقف عليه ابن الزبير من الآيات المتشابهة التي تباينت في صيغ جموعها لنرى سبب التخصيص فيها.

فمن الآيات التي وردت فيها مفردات جُمعت في موطن جمع مؤنث، وفي موطن آخر جمع تكسير قوله تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقوله في موطن آخر مخبرًا عنهم أيضًا: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١].

على الرغم من أن الخطاب في الموطنين لبني إسرائيل قال في الآية

الأولى: (خطاياكم) وفي الآية الثانية (خطيئاتكم) فما سبب هذا التخصيص؟

يذكر النحاة أن الجمع السالم بنوعيه يفيد القلة (أي: من الثلاثة إلى العشرة)، وجمع التكسير يفيد الكثرة (أي: فوق العشرة)[1]، ومعنى هذا أن كلمة (خطيئة) جمعت في آية البقرة جمع تكسير الذي يفيد الكثرة، وفي آية الأعراف جمع مؤنث الذي يفيد القلة.

ويرى ابن الزبير وغيره من العلماء أن سبب التخصيص هو أن آية البقرة جاءت في مقام تعداد النعم والآلاء على بني إسرائيل، فجاءت كلمة (خطايا) على جمع التكسير الذي يفيد الكثرة ليناسب ما قصد من تكثير الآلاء والنعم، بخلاف آية الأعراف فإنها لم تُبنَ على تعداد النعم على بني إسرائيل كما بنيت عليه آية البقرة، فجاءت مجموعة جمع مؤنث الذي يفيد القلة[2].

ولتوضيح هذا الرأي أقول: إن آية البقرة جاءت في مقام تعداد النعم والآلاء على بني إسرائيل كما نرى ذلك في الآيات التي تكتنفها، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ . . . وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ . . . ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ . . . وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ

---

(١) ينظر الكتاب ٢/ ١٨١ ـ ١٨٢، وملاك التأويل ١/ ٦٢، وشرح المفصل ٥/ ١٠.
(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٦٢ ـ ٦٣، ونظم الدرر ١/ ٣٩٦.

ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ . . . ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ . . . ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٤٧ ـ ٦٠].

نلاحظ أن آية البقرة في سياق تعداد النعم على بني إسرائيل وتكريمهم. فناسب هذا التكريم مجيء (خطايا) بصورة جمع التكسير ليبين لنا أن الله يغفر لهم خطاياهم مهما كثرت.

وهذا بخلاف آيات الأعراف، فإن المقام فيها مقام تقريع وتأنيب، فإن بني إسرائيل قوم لا يتعظون. قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فإنهم من بعد ما أنجاهم الله من فرعون وأغرق فرعون وآله وهم ينظرون إليهم مروا على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى أن يجعل لهم أصنامًا يعبدونها تأسيًا بهم. وعندما ذهب موسى لميقات ربه عبد قومه العجل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. ثم إنهم كانوا ينتهكون محارم الله، فقد حرم الله عليهم أن يصطادوا يوم السبت تعظيمًا لحرمته فانتهكوها وأخذوا يحتالون لاصطياد الحيتان في هذا اليوم، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ولهذا جاء الجمع بالتكسير في سياق تعداد النعم ليفيد أن الله يغفر لهم خطاياهم مهما كثرت، بخلاف آية الأعراف، فإنه لما كان المقام فيها مقام تقريع وتأنيب جاءت (خطيئة) مجموعة بالألف والتاء لتدل على القلة.

وهناك سبب آخر للتخصيص ، وهو أن الله تعالى أسند القول إلى نفسه في آية البقرة فناسب هذا الإسناد أن تأتي كلمة (خطيئة) مجموعة جمع تكسير ليدل هذا الجمع على أنه يغفر لهم خطاياهم مهما كانت كثيرة. بخلاف آية الأعراف فإنه لما لم يسند القول فيها إلى نفسه وإنما ذكر القول بالبناء للمجهول فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ أتى بجمع القلة فقال (خطيئات) [1].

ولعل كلا التوجيهين مقبول ومراد ، ولا أرى ما يمنع من تعدد أسباب التخصيص ، فالله تعالى عدّد النعم على بني إسرائيل وأضاف القول إلى نفسه في آية البقرة فناسب هذا التعداد وهذا التكريم جمع التكسير الذي يفيد الكثرة ، بخلاف آية الأعراف والله أعلم.

* * *

ومن الآيات التي تباينت مفرداتها في صيغ جموعها فجاءت مرة مجموعة جمع مذكر ، ومرة أخرى مجموعة جمع تكسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١] ، فقد جمعت كلمة (نبي) جمع مذكر في هاتين الآيتين.

في حين جمعت جمع تكسير في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢] فما سبب هذا التخصيص؟

ذكرنا أن النحاة قالوا: إن الجمع السالم بنوعيه يفيد القلة ، وجمع

---

(١) ينظر درة التنزيل ١٥ ـ ١٦ ، والبرهان للكرماني ٢٩ ، وتفسير الرازي ٣/ ٩٢ ـ ٩٣ ، والبحر المحيط ١/ ٢٢٥ ، وروح المعاني ١/ ٢٦٧.

التكسير يفيد الكثرة. وعلى هذا فإن جمع المذكر يفيد القلة.

ومعنى هذا أن كلمة (نبي) جمعت جمع قلة في آية البقرة والآية الأولى من آيتي آل عمران، في حين جمعت جمع كثرة في الآية الثانية من آيتي آل عمران.

ولم يوجه ابن الزبير هذه الآيات بناءً على ما يفيده الجمع السالم من القلة وجمع التكسير من الكثرة، وإنما وجهها توجيهًا آخر، فذكر أن سبب التخصيص هو أن جمع المذكر أشرف من جمع التكسير، لأن جمع التكسير يشمل العقلاء وغيرهم، أما جمع المذكر فهو خاص بالعقلاء. وعلى هذا فإن جمع المذكر في آية البقرة مناسب من جهتين:

الجهة الأولى: شرف الجمع لشرف المجموع، أي أن جمع المذكر أشرف لجمع (نبي) من جمع التكسير.

والجهة الثانية: أن زيادة المد في (نبيين) مناسبة لزيادة أداة التعريف في لفظ (الحق).

أما الآية الأولى من آيتي آل عمران فمثل آية البقرة في مناسبة الشرف، وزيادة المد في (نبيين) مناسبة لزيادتها في قراءة من قرأ ﴿وَيُقَاتِلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾[1].

وأما الآية الثانية من آيتي آل عمران فلم يكن فيها شرف جمع لأنه جمع تكسير، وإنما كان فيها شرف مجموع وهو كلمة (نبي)، والعرب تتسع في جموع التكسير فتوقعها على العقلاء وغيرهم، فأتى بالجمع هنا مكسرًا لكي لا يقتصر على جمع دون آخر[2].

وجاء في تفسير (البحر المحيط): «ولا فرق في الدلالة بين النبيين

---

(١) الآية ٢١، وهي قراءة حمزة (ينظر النشر ٢/ ٢٣٨).

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٧٣ ـ ٧٤.

والأنبياء ، لأن الجمعين إذا دخلت عليهما (أل) تساويا ، بخلاف حالهما إذا كانا نكرتين ، لأن جمع السلامة إذ ذاك ظاهر في القلة ، وجمع التكسير على (أفعلاء) ظاهر في الكثرة» (١) .

وهذا الكلام فيه نظر ، لأن جمع المذكر وجمع التكسير لا يتساويان ، فالجمع السالم بنوعيه يفيد القلة ، وجمع التكسير يفيد الكثرة سواء دخلت عليهما (أل) أم لم تدخل .

وهناك توجيه لهذه الآيات مستنبط من قاعدة استعمال العرب للجموع ، وهو أن موطن الذم والتشنيع على بني إسرائيل «والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة . يدل على ذلك أمور منها : أنه في سورة البقرة جمع (الذلّة والمسكنة) وأما في آية آل عمران فقد أكّد وكرّر وعمّم فقال : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ فجعلها عامّة ، ثم قال : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد ، فإن قولك : (أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) آكد من قولك : (أنهاك عن الكبر والرياء) .

ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلّة فقال : ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال : ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ أي يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حق . فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد» (٢) .

وما ذكر في آية البقرة يمكن أن يقال في الآية الأولى من آيتي آل عمران .

* * *

---

(١) البحر المحيط ١/ ٢٣٧ .

(٢) معاني النحو ١/ ١١٩ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] فقد جمعت (سنبلة) في هذه الآية على (سنابل).

في حين جمعت جمع سلامة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣].

يوجّه ابن الزبير وغيره من العلماء هاتين الآيتين بناءً على ما ذكرناه من إفادة جمع السلامة القلة، وجمع التكسير الكثرة فيقولون: إن سبب ذلك هو «أن آية البقرة مبنية على ما أعد الله تعالى للمنفق في سبيله وما يضاعف له من أجر إنفاقه وأن ذلك ينتهي إلى سبعمائة ضعف، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ . . .﴾ قد يفهم الزيادة على ما نص عليه من العدد. . . فبناء هذه الآية على التكثير، فناسب ذلك ورود المفسر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظًا للغاية المقصودة. ولم يكن ما وضعه للقليل في الغالب ليناسب ما تُلحَظ فيه الغاية من التكثير.

أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات، فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة لأنه إخبار برؤيا، فوجهه الإتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئي وهو قليل، لأن ما دون العشرة قليل»[(١)].

ثالثاً ـ أبنية الأفعال

في القرآن الكريم آيات متشابهة يكون الاختلاف في أبنية أفعالها، حيث يرد الفعل مجردًا مرة، ومزيداً مرة أخرى، أو يكون مزيدًا في كلتا الآيتين ولكن الاختلاف في أحرف الزيادة، أو يكون الاختلاف في

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٣١، وينظر التفسير القيّم ١٥٤ ـ ١٥٥، والبرهان للزركشي ٤/ ٢٢، ومعترك الأقران ٣/ ٢٣٣.

الإدغام وعدمه ، أو من حيث البناء للمعلوم والمجهول ، إلى غير ذلك من أوجه الاختلاف.

وقد كان لابن الزبير وقفات على قسم من هذه الآيات. ونريد أن نقف على نماذج مما وقف عليه لنرى توجيهه لها.

أ ـ الفعل بين التجرد والزيادة:

من المعروف في اللغة العربية أن هناك أفعالاً مجردة وأخرى مزيدة. وقد ورد في القرآن الكريم آيات متشابهة تختلف أفعالها من حيث التجرد والزيادة ، فجاءت في موطن بصيغة مجردة وفي موطن آخر بصيغة مزيدة.

وإذا تأملنا في التعبير القرآني وجدنا أن الصيغة المجردة جاءت في الموطن الذي يقتضي تجريدها ، والمزيدة جاءت في السياق الذي يقتضي زيادتها كما سنرى ذلك.

ومن هذه الآيات المتشابهة التي وقف عليها ابن الزبير قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] بمجيء الفعل (تبع) مجرداً.

وقوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] بمجيئه مزيداً بالهمزة والتاء.

ومن المناسب هنا أن نقف على الفرق الدلالي بين صيغتي (فعِل) بتخفيف العين وبين (افتعل) وعلى الاستعمال القرآني لهما قبل أن نذكر توجيه ابن الزبير لهاتين الآيتين.

يقول اللغويون: إن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى(١).

---

(١) ينظر تفسير الكشاف ١/ ٣٤.

وبناء على هذه القاعدة نقول: إن زيادة الهمزة والتاء في (افتعل) تفيد معنًى لا تفيده صيغة (فعِل) المجردة.

يقول سيبويه مفرّقًا بين (كسب) و (اكتسب): «وأما (كسب) فإنه يقول (أصاب)، وأما (اكتسب) فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب» [(١)].

ويقول ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) في الشافية: «و(افتعل) للمطاوعة غالبًا نحو: غمَمته فاغتمّ، وللاتخاذ نحو اشتوى، وللتفاعل نحو اجتوروا، وللتصرف نحو اكتسب» [(٢)].

ويقول رضي الدين الاستراباذي (ت ٦٨٦ هـ) وهو يشرح هذا القول: «قوله: (وللتصرف) أي: الاجتهاد والاضطراب في تحصيل أصل الفعل، فمعنى (كسب) أصاب، ومعنى (اكتسب) اجتهد في تحصيل الإصابة بأن زاول أسبابها، فلهذا قال الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: اجتهدت في الخير أو لا فإنه لا يضيع، و﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي لا تؤاخذ إلا بما اجتهدت في تحصيله وبالغت فيه من المعاصي» [(٣)].

وقد فرّق ابن الزبير بين (تبع) و (اتّبع) بناءً على ما رأينا من الفرق بين (كسب) و(اكتسب) فقال: «إن (اتبع) مزيد منبئ عن التعمل والعلاج كما تقدم. ولا يفهم ذلك من (تبع) الذي هو الأصل» [(٤)].

ثم ضرب على ذلك أمثلة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] فقال: إنه استعمل (تبع) بصيغتها المجردة في هذه الآية لأنه «يريد الجري على مقتضى الفطرة وميز الحق بديهًا بسابقة التوفيق

---

(١) الكتاب ٢/ ٢٤١.
(٢) شرح الرضي على الشافية ١/ ١٠٨.
(٣) شرح الرضي على الشافية ١/ ١١٠، وينظر شذا العرف ٤٤.
(٤) ملاك التأويل ١/ ٤٦.

من غير إطالة نظر أو كبير علاج لسبقية الهدى ووضوح الشواهد»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] فيرى ابن الزبير أن سبب تخصيص هذه الآية بقوله: (اتّبع) يعود إلى أن «هؤلاء تعملوا في ذلك وعالجوا أنفسهم حتى انقادت طباعهم إلى غير ما تشهد به الفطرة»[2].

وقد لاحظت أن جميع الآيات التي تضمنت اتّباع الهوى أتت على صيغة (افتعل). قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦، الكهف: ٢٨، طه: ١٦]، وقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩] وذلك لأن الأصل أن يسير الإنسان على مقتضى فطرته التي فطره الله عليها، وإذا خالف فطرته واتبع هواه فإن هذا تكلف منه وقهر لنفسه على أن تخرج عن فطرتها. أما الجري على الفطرة فهو الأصل ولا يحتاج إلى تكلف وجهد والله أعلم.

يتبين لنا مما سبق أن قول الكرماني: «تبع واتّبع بمعنى»[3] ليس صحيحًا، لأننا رأينا في (اتّبع) معنًى ليس في (تبع).

ويبين ابن الزبير سبب تقديم قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ فقال: «وتقدم في الترتيب المقرر ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ لإنبائه عن الاتّباع من غير تعمّل ولا تكلف ولا مشقة. وأما (اتّبع) فإن هذه البنية ـ أعني بنية (افتعل) ـ تنبئ عن تعمّل وتحميل للنفس. فقدّم ما لا تعمل فيه، وأخّر (اتّبع) لما يقتضيه من الزيادة»[4].

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٧.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٤٧.

(٣) البرهان ٢٧.

(٤) ملاك التأويل ١/ ٤٦.

ثم يبين سبب التخصيص فيقول: إن آية البقرة لما تقدمها «قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾. ولم يرد فيها ما كان من إبليس سوى ما أخبر تعالى عنه من قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [1] من غير تعرض لكيفية تناوله ما فعل ولا إبداء علة ولا كبير معالجة، ناسب هذا (تبع).

ولما ورد في آية (طه) ذكر الكيفية في إغوائه بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [2] ... فأفهمت الآية قوة كيد اللعين واستحكام حيلته... فصار تميز الحق لا يحصل إلا بمعالجة وتعمّل فناسبه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ كما ناسب ما تقدم في آية البقرة ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ من حيث لم يبسط فيها من كيد اللعين ما بسط في آية (طه)» [3].

وقد ذهب البقاعي إلى ما ذهب إليه ابن الزبير[4].

وقد اتضح أن هذا التوجيه قد استنبطه ابن الزبير ومن ذهب مذهبه مما يفيده الفعل (اتّبع) من التكلف والاجتهاد، بخلاف الفعل (تبع).

وهناك توجيه آخر لآيتي البقرة وطه مستنبط أيضًا مما تفيده صيغة (افتعل) من التكلف والاجتهاد وهو «أن آية (طه) تتضمن أمرين: مجاهدة الضلال في الدنيا والفوز في الآخرة. وآية البقرة تتضمن الفوز في الآخرة. والحالة الأولى تتطلب عملاً أكثر وأشق، فجاء بالفعل الدال على المبالغة والتكلف للأمر الشاق، وجاء بالفعل الخفيف للعمل الخفيف» [5].

---

(١) الآية ٣٦.
(٢) الآية ١٢٠.
(٣) ملاك التأويل ١/٤٨ ـ ٤٩.
(٤) ينظر نظم الدرر ١/٢٩٨، ١٢/٣٦١.
(٥) التعبير القرآني ٢٩٤.

ثم «إن التخفيف الذي يفيد التلطف بالعباد جاء مع إسناد القول إلى نفسه ، وأن التشديد جاء مع إسناد القول إلى الغائب (قال). . . [و] الله سبحانه يُظهر نفسه في موطن التلطف والتكريم» [(١)].

ومن أسرار ذلك «أن نهاية الآية في البقرة تتعلق بالآخرة وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: في الآخرة. ونهاية الآية في (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة وهو قوله: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ، فقوله: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ متعلق بالدنيا لأن الضلال إنما يكون فيها ، وأما في الآخرة فينكشف الغطاء ويصبح الناس كلهم على بصيرة. وقوله: ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ متعلق بالآخرة لأن الدنيا لا تخلو من الشقاء ، بدليل قوله تعالى لآدم قبيل هذه الآية: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ أي إذا خرجت من الجنة شقيت ، وقد أخرجهما من الجنة ، فلا بد من الشقاء إذن.

ولما كانت آية (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة بخلاف آية البقرة زاد في بناء الفعل إشارة إلى زيادة متعلقه» [(٢)].

وهكذا رأينا أن هناك أكثر من سبب للتخصيص ، كل سبب مستنبط مما تفيده صيغة (افتعل) من التكلف والاجتهاد.

ب ـ اختلاف أحرف الزيادة:

قد يرد الفعل مزيدًا في كلتا الآيتين المتشابهتين ولكن الاختلاف في أحرف الزيادة ، فيأتي في موطن على صيغة (فعّل) وفي موطن آخر على صيغة (أفعل) مثل: نجّى وأنجى ، ونزّل وأنزل. ولا بد أن يكون بينهما فرق يستدعي أن يكون استعمال الفعل في موطن على (فعّل) وفي موطن آخر شبيه به على (أفعل) بحيث لا يمكن استعمال أحدهما مكان الآخر.

---

(١) التعبير القرآني ٢٩٣.
(٢) التعبير القرآني ٢٩٣.

وقبل أن نقف على نماذج مما وقف عليه ابن الزبير من هذه الآيات المتشابهة ونعرف سبب التخصيص فيها يحسن أن نمهد القول بالوقوف على معنى صيغة (فعّل) ومعنى صيغة (أفعل).

يقول اللغويون: إن صيغة (فعّل) تفيد التكثير والمبالغة غالباً ، بخلاف صيغة (أفعل) فإنها تأتي للتعدية. جاء في (أدب الكاتب): «وتدخل (فعّلت) على (فعَلت) إذا أردت كثرة العمل ، فتقول: (قطَعته) باثنين ، و(قطّعته) آراباً ، وكذلك (كسَرته) و (كسّرته) ، و(جرَحته) و (جرّحته) إذا أكثرت الجراحات في جسده ، و(جوّلت في البلاد) و (طوّفت) إذا أردت كثرة التطواف والجوَلان فيها» [1].

وجاء في (شرح الرضي على الشافية): «الأغلب في (فعّل) أن يكون لتكثير فاعله أصل الفعل» [2].

وقد ذكر ابن الزبير آيات عديدة تضمنت أفعالاً على صيغة (فعّل) في موطن، وصيغة (أفعل) في موطن آخر، وبيّن سبب التخصيص فيها، فوجّه بعضها بناء على قول اللغويين الذي ذكرته ، ووجّه بعضها توجيهًا آخر.

فمن الآيات التي وجهها بناء على قول اللغويين المذكور آنفاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١].

ففي آية البقرة استعمل الفعل (نجّى) ، بخلاف آية الأعراف فإنه استعمل فيها الفعل (أنجى). وسبب ذلك عند ابن الزبير أن آية البقرة

---

(١) أدب الكاتب ٣٥٤.
(٢) شرح الرضي على الشافية ١/ ٩٢.

جاءت في سياق تذكير بني إسرائيل بتعداد النعم وتوالي الامتنان عليهم ليبين شنيع مرتكبهم في مقابلة ذلك الإنعام بالكفر، وليزدجروا عن المخالفة والعناد، فناسب هذا المقصود الإتيان بصيغة (فعّل) التي تفيد التكثير، بخلاف آية الأعراف.

ثم إن التضعيف في (نجّيناكم) مناسب للتضعيف الوارد بعده في قوله: (يذبّحون) [1].

ولتوضيح رأيه أقول: إن المقصود في آية البقرة تذكيرهم بالنعم التي أنعمها الله عليهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ... ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم...﴾ [البقرة: ٤٩ ـ ٥٧].

فالنعم التي عددها كثيرة، فناسب هذه الكثرة الإتيان بالصيغة التي تدل على التكثير والمبالغة وهي صيغة (فعّل).

وأما الآيات التي تكتنف آية الأعراف فلا نرى فيها تعداد نعم على بني إسرائيل كما رأينا في آية البقرة، فناسب ذلك الإتيان بصيغة (أفعل).

ويضع الدكتور فاضل السامرائي قاعدة في الاستعمال القرآني للفعلين (نجّى) و (أنجى)، ولكن هذه القاعدة ليست بناءً على ما تفيده صيغة (فعّل) من المبالغة والتكثير فيقول: «إن القرآن الكريم كثيرًا ما يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل في التنجية، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإن (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخليص من الشدة والكرب» [2].

ثم يوجه آيتي البقرة والأعراف بناءً على ما ذكره من الاستعمال القرآني

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٥٣ ـ ٥٥.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٧٠.

فيقول: «إنه لم يذكر في سورة البقرة شيئًا عن حالهم مع فرعون والمجتمع الذي يعيشون فيه سوى هذه الآية. أما في سورة الأعراف فقد أطال وفصّل في حالتهم مع فرعون وقومه ابتداءً من الآية الرابعة بعد المائة إلى الآية الحادية والأربعين بعد المائة (من ١٠٤ ـ ١٤١).

فإنه بعد أن ذكر مواجهة سيدنا موسى لفرعون ودعوته للإيمان وإظهار الآيات الدالّة على صدقه، ذكر شأنه مع السحرة وإيمانهم به وتهديد فرعون لهم.

ثم ذكر قول الملأ لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

فاستمر الأذى على ما كان عليه قبل مجيء موسى وزاد، حتى قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وذكر أمورًا تبيّن حالة التوتر والمعاناة التي يعيشونها في ذلك المجتمع مما لم يذكر في سورة البقرة.

لقد ذكر في الأعراف ما ذكره في البقرة من الأذى وزاد عليه، فاقتضى ذلك الإسراع في إنجائهم، فقال في البقرة (نجّى) وفي الأعراف (أنجى)» (١).

* * *

وقد ذكرنا أن هناك آيات أخرى استعمل فيها الفعلان (نجّى) و (أنجى) ولم يوجههما ابن الزبير بناءً على ما تفيده صيغة (فعّل) من التكثير

---

(١) بلاغة الكلمة ٧٦.

والمبالغة. من ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: ٧٣].

يقول ابن الزبير في توجيه هاتين الآيتين: «لما ورد في الأولى (فأنجيناه) بزيادة همزة النقل المثبت لها صورة الألف في الخط ونطق يخصها بحركة الهمزة فطالت الكلمة بالألف خطًّا وبالنطق بحركة الهمزة لفظًا ناسبها الموصول الذي هو (الذين) لزيادة حروفه على حروف (مَن).

ولما قيل في الثانية (فنجّيناه) فجيء بما هو أخصر في الخط ناسبه من الموصولات (مَن) المفرد في معنى (الذي) وهو أخصر»[1].

نلاحظ في هذا التوجيه أن ابن الزبير قد وجّه هاتين الآيتين توجيهًا خطّيًّا. ومعنى هذا الكلام أن في (أنجى) زيادة همزة على (نجّى) في الخط، وهذه الهمزة ناسبها (الذين) الذي يزيد حروفه على حروف (مَن). أما (نجّى) فهي أخصر في الخط من (أنجى)، فناسبه (مَن) الذي هو أخصر من (الذين).

ولعل في هذا التوجيه تكلفًا واضحًا، فكما اجتمع الاسم الموصول (مَن) مع الفعل (نجّى) في آية يونس فقد اجتمع أيضًا مع الفعل (أنجى) في موطن آخر وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

وقد وجّههما الخطيب الإسكافي توجيهًا آخر فقال: «إن (أنجيناه) أصل في هذا الباب، لأن (أفعلت) في باب النقل أصل لـ (فعلت) وهو أكثر، تقول: نجا وأنجيته، كما تقول: ذهب وأذهبته، ودخل وأدخلته، وخرج وأخرجته... فالآية الأولى جاءت على الأصل الأكثر، ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على (أنجينا) كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ

(١) ملاك التأويل ١/٤٠٦.

مِّنَّا﴾ [1] وكقوله: ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ [2] وقوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ [3] . . .

وأما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ فهو الأصل، و(مَن) تجيء بمعناها وتكونان مشتركتين في معانٍ. و(الذين) خالصة للخبر مخصوصة بالصلة، فاستعمل الأصل في اللفظتين (أنجينا) و (الذين). ولما كرر هذا الذكر كان العدول إلى اللفظين الآخرين اللذين هما بمعناهما وهما (نجّينا) و (مَن) أشبه بطريقة الفصحاء وعادة البلغاء» [4].

ولي أكثر من ملاحظة على هذا النص وهي ما يأتي:

١ ـ يقول الخطيب: إن «الآية الأولى جاءت على الأصل الأكثر».

ولا أدري لمَ لم ترد آية يونس على الأصل أيضًا؟ إذن لأمكن مجيء (الذين) فيها.

٢ ـ ويقول: «ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على (أنجينا)».

والحق أننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا نرى أنه استعمل (نجّى) وما يتصرف منه أكثر مما استعمل (أنجى) وما يتصرف منه بأربع عشرة مرة. فقد ورد الفعل (نجّى) وما يتصرف منه في سبعة وثلاثين موطنًا هي: البقرة: ٤٩، والأنعام: ٦٣، ٦٤، والأعراف: ٨٩، ويونس: ٧٣، ٨٦، ٩٢، ١٠٣، وهود: ٥٨ (مرتان)، ٦٦، ٩٤، ويوسف: ١١٠، والإسراء: ٦٧، ومريم: ٧٢، وطه: ٤٠، والأنبياء: ٧١، ٧٤، ٧٦، ٨٨، والمؤمنون: ٢٨، والشعراء: ١١٨، ١٦٩، ١٧٠، والقصص: ٢١، والعنكبوت: ٢٣، ٦٥، ولقمان: ٣٢، والصافات: ٧٦، ١١٥،

---

(١) الأعراف ٧٢.

(٢) الشعراء ٦٥.

(٣) العنكبوت ٢٤.

(٤) درة التنزيل ١٥٤.

١٣٤ ، والزمر: ٦١، وفصّلت: ١٨، والدخان: ٣٠، والقمر: ٣٤، والتحريم: ١١ (مرتان).

في حين ورد الفعل (أنجى) وما يتصرف منه في ثلاثة وعشرين موطنًا هي: البقرة: ٥٠، والأنعام: ٦٣، والأعراف: ٦٤، ٧٢، ٨٣، ١٤١، ١٦٥، ويونس: ٢٢، ٢٣، ١٠٣، وهود: ١١٦، وإبراهيم: ٦، وطه: ٨٠، والأنبياء: ٩، ٨٨، والشعراء: ٦٥، ١١٩، والنمل: ٥٣، ٥٧، والعنكبوت: ١٥، ٢٤، والصف: ١٠، والمعارج: ١٤.

وهذا يعني أن استعمال الفعل (نجّى) وما يتصرف منه يزيد عن استعمال الفعل (أنجى) وما يتصرف منه بأربع عشرة مرة(١).

٣ - ويقول: إن مجيء (أنجى) الذي هو الأصل مناسب للاسم الموصول (الذين) الذي هو الأصل في الصلة.

وأقول: إذا كان كلامه صحيحًا فلماذا اجتمع (أنجى) مع الاسم الموصول (مَن) في قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء: ١١٩]؟

وقد وجههما الكرماني بناءً على ما تفيده كلمة (نجّى) من الكثرة والمبالغة فقال: «إن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة، فكان في يونس ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾، ولفظ (مَن) يقع على أكثر مما يقع عليه (الذين)، لأن (مَن) تصلح للواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث، بخلاف (الذين) فإنه لجمع المذكر فحسب، فكان التشديد مع (مَن) أليق» (٢).

وهذا الربط بين ما يفيده الفعل (نجّى) من الكثرة والمبالغة وبين سعة استعمال (مَن) ربط جميل، ولكنه غير مطرد في القرآن الكريم، فقد

---

(١) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (مادة نجو).
(٢) البرهان ٧٧.

نلاحظ في القرآن اجتماع (مَن) مع (أنجى) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

والحق أننا إذا وجهنا آيات الأعراف ويونس والشعراء بناءً على قاعدة الاستعمال القرآني للفعلين (نجّى) و (أنجى) التي وضعها الدكتور فاضل السامرائي والتي تشير إلى «أن القرآن الكريم يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل في التنجية ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها» فإننا سنتوصل إلى سبب تخصيص كل آية بالاسم الموصول الذي وردت فيه فنقول:

يقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ . . . فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

ويقول في سورة يونس: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ . . . وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [٧١ ـ ٧٣].

ويقول في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ . . . قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ . . . فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١١٩].

نلاحظ في هذه الآيات أن المحاجّة في آيات الأعراف والشعراء أوضح منها في آيات يونس، فلم يذكر من المحاجّة في آيات يونس إلا أنهم كذبوه. أما في آيات الأعراف فقد رموه بالضلال، وفي آيات الشعراء ازدروا أتباعه وهددوه بالرجم إن لم ينته عن دعوتهم. فاستدعى الموقف

في آيات الأعراف والشعراء الإسراع في إنجائه مع من آمن به ، بخلاف آية يونس والله أعلم.

* * *

ومنها قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣].

نلاحظ في هذه الآية أنه استعمل الفعل (نزّل) مع القرآن الكريم ، والفعل (أنزل) مع التوراة والإنجيل. ويرى ابن الزبير أن سبب ذلك هو «أن لفظ (نزّل) يقتضي التكرار لأجل التضعيف. تقول: (ضرَب) مخففاً لمن وقع منه ذلك مرة واحدة ويحتمل الزيادة. . . أما إذا قلنا (ضرّب) بتشديد الراء ، فلا يقال إلا لمن كثر ذلك منه. فقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ مشير إلى تفصيل المنزّل وتنجيمه بحسب الدواعي وأنه لم ينزل دفعة واحدة[1]».

واستعمل الفعل (أنزل) مع التوراة والإنجيل لأنهما نزلا دفعة واحدة[2].

وقد ذهب كثير من المفسرين هذا المذهب[3].

وهناك علماء خالفوا هذا الرأي فقالوا: إن هذا الرأي يردّه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] ، وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٤] [4]. وهذا يعني أن لو كان ما ذهب إليه ابن الزبير ومن ذهب مذهبه صحيحاً ما ورد الفعل (أنزل) مع الفرقان ـ وهو

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٤١.
(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٤١ ـ ١٤٢.
(٣) ينظر تفسير الكشاف ١/ ٣٠٩ ، وتفسير الرازي ٧/ ١٥٧ ، وتفسير القرطبي ٤/ ٥ ، والإتقان ٣/ ٣٤٣ ، ومعترك الأقران ١/ ٩٣ ، وفتح القدير ١/ ٢٨٢.
(٤) ينظر البحر المحيط ٢/ ٣٧٨.

القرآن ـ والفعل (نزّل) مع قوله: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

وللآلوسي توجيه أكثر قبولاً لآية آل عمران، حيث قال: «والتعبير بـ (أنزل) فيهما[1] للإشارة إلى أنه لم يكن لهما إلا نزول واحد. وهذا بخلاف القرآن فإن له نزولين، نزول من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا جملة واحدة، ونزول من ذلك إليه ﷺ منجّمًا في ثلاث وعشرين سنة على المشهور، ولهذا يقال فيه (نزّل وأنزل).

وهذا أولى مما قيل: إن (نزّل) يقتضي التدريج، و(أنزل) يقتضي الإنزال الدفعي، إذ يشكل عليه ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ حيث قرن (نزّل) بكونه جملة، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[2]»[3].

وعلى الرغم من وجاهة رأي الآلوسي لا نتبين منه سبب التخصيص، فلا نستطيع أن نتبين سبب قوله تعالى في موطن: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٣] وفي موطن آخر: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد وضع الدكتور فاضل السامرائي قاعدة للتفريق بين استعمال (نزّل) و (أنزل) فقال: «إن استعمال (نزّل) قد يكون للتدرج والتكثير، وقد يكون للاهتمام والمبالغة، كما في أوصى ووصّى، فالتنزيل يستعمل فيما هو أهم وأبلغ من الإنزال... فما استعمل فيه (نزّل) يكون أهم وآكد مما استعمل فيه (أنزل)»[4].

وباعتمادنا هذه القاعدة نبتعد عن الإشكالات التي مرت بنا. فالفعل (نزّل) إما أن يأتي للتدرج والتكثير وإما أن يأتي للاهتمام والمبالغة، فما لا يمكن توجيهه على وفق التدرج والتكثير يمكن توجيهه على وفق

---

(١) أي: التوراة والإنجيل.

(٢) النساء ١٤٠.

(٣) روح المعاني ٣/ ٧٦.

(٤) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٦٤ ـ ٦٦.

الاهتمام والمبالغة.

وبناءً على هذا نستطيع أن نوجه آية آل عمران فنقول: إنه استعمل الفعل (نزّل) مع الكتاب ـ وهو القرآن ـ و(أنزل) مع التوراة والإنجيل ، لأن تنزيل الكتاب أهم عندنا من إنزال التوراة والإنجيل ، وذلك لأن التوراة والإنجيل قد حرّفا وانتهى الحكم بهما. أما القرآن الكريم فلم يدخله تحريف ، وهو دستور الأمة الإسلامية الباقي إلى يوم القيامة والله أعلم.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] باستعمال الفعل (نزّل).

وباستعمال الفعل (أنزل) في قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

يرى ابن الزبير أنهم أتوا بالفعل (نزّل) مضعفًا في آية الأنعام «لما أرادوه من التأكيد. . . وأما آية العنكبوت فلم يتقدمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام ، فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعف»(١).

ولتوضيح رأيه أقول: إن الموقف في الأنعام أشد ، وإن موقف الكافرين أعنت. ويتضح هذا من سياق الآيتين. قال تعالى في الأنعام: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ . . . وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ . . . قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ . . . وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الأنعام: ٢٥ ـ ٣٧].

وقال في العنكبوت: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦ ـ ٥٠].

«فالاختلاف بين المقامين واضح، وإن موقف الشدة والمجادلة بالباطل والعنت والتكذيب في الأنعام أظهر وأوضح، فاستعمل في الشدة وقوة المواجهة (نزّل)»(١).

ج ـ الفعل بين الإدغام وفكه:

تمر بنا آيات قرآنية متشابهة فيها أفعال تختلف من حيث الإدغام وعدمه، فترد مدغمة في موطن، وفي موطن آخر يشبهه غير مدغمة نحو (يشاقّ ـ يشاقق).

ولا يوجد فرق في المعنى بين الفعل المدغم ونظيره غير المدغم، ولكن لا يعني عدم وجود فرق معنوي بينهما أن القرآن الكريم استعملهما بصورة اعتباطية، وإنما استعملهما لغرض يقتضيه سياق النص.

---

(١) بلاغة الكلمة ٦٨.

وقد كان لابن الزبير وقفات على بعض الآيات التي ورد فيها هذا النوع من الأفعال بيّن فيها سبب تخصيص كل آية بالفعل الذي وردت فيه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

بفك الفعل (يشاقق) في هاتين الآيتين.

في حين ورد مدغمًا في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

يرى ابن الزبير أن سبب ذلك التخصيص هو أن الفعل ورد في آية النساء على الأصل وهو فك الإدغام، لأنه ليس هناك ما يستدعي الإدغام.

في حين ورد في آية الحشر مدغمًا ليناسب إدغام الماضي، بمعنى أن (يشاقّ) ناسب قوله (شاقّوا).

وأما آية الأنفال فقد جاء فيها الفعل (يشاقق) ـ بفك الإدغام ـ ليتناسب مع العطف الذي بعده في قوله: ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ لأن العطف يشبه الفك، فعلى الرغم من أن الفعل الماضي الذي قبله ورد مدغمًا روعي البعدي وهو العطف[1].

وقد وضعت قاعدة في التفريق بينهما وهي أنه «يستعمل الفك حيث ورد ذكر الرسول. وحيث لم يرد ذكر الرسول بل ورد ذكر الله وحده أدغم... ولعله وحّد الحرفين في حرف واحد لأنه ذكر الله وحده، وفكهما وأظهرهما لأنه ذكر الله ورسوله فكانا اثنين»[2].

* * *

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) الجملة العربية والمعنى ٢٦٢.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات متشابهة فيها أفعال تذكر مبدلة مدغمة مرة ، وغير مبدلة مرة أخرى نحو (يضّرّعون ـ يتضرّعون) و (يذّكّر ـ يتذكّر) إلى غير ذلك من الأفعال.

ولابن الزبير وقفات على بعض الآيات التي ورد فيها هذا النوع من الأفعال. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

فكلمة (يتضرّعون) في آية الأنعام لم يحصل فيها إبدال ولا إدغام ، أما آية الأعراف فقد جاء فيها الفعل (يضّرّعون) مبدلاً مدغمًا ، حيث إن أصل الفعل (يتضرّعون) فأبدل التاء ضادًا فأدغم في الضاد الذي بعدها.

ولا بد أن يكون هذا لسبب يقتضيه سياق النص. وهذا السبب عند ابن الزبير هو أن الفعل (يتضرّعون) في آية الأنعام قد وافق الفعل الماضي في الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٣] والفعل الماضي (تضرّعوا) لا إدغام فيه ، ولذلك ورد الفعل المضارع (يتضرّعون) مفكوكًا غير مدغم.

أما آية الأعراف فلم يرد فيها مثل هذه المناسبة ،ولذلك جاء الفعل مدغمًا على الوجه الأخف[1]. ومعنى هذا أن المناسبة عنده لفظية.

وللدكتور فاضل السامرائي قاعدة للتفريق بين صيغتي (يفّعّل) و(يتفعّل) في الاستعمال القرآني وهي أنه «إذا اجتمعت صيغتان من هذا البناء في اللغة (يتفعّل) و (يفّعّل) استعمل (يتفعّل) لما هو أطول زمنًا من (يفّعّل) وذلك لأن الفك أطول زمنًا في النطق... فهو ملائم للطول في الحدث...

(١) ينظر ملاك التأويل ١/٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، والبرهان ٦٤.

وما كان على وزن (يفّعّل) يأتي به القرآن فيما يحتاج إلى المبالغة في الحدث ، وذلك لأن التضعيف كثيرًا ما يؤتى به للمبالغة نحو فعَل وفعّل كـ (قطَع وقطّع) و (كسَر وكسّر) ، ففي (قطّع وكسّر) من المبالغة ما ليس في (قطَع وكسَر). ونحو فُعال بتخفيف العين وفُعّال بتشديدها مثل كُبَار وكُبّار ، فـ (كُبّار) أبلغ من (كُبَار) في الاتصاف بالحدث. . .

وعلى هذا فإنه يستعمل بناء (يتفعّل) لما هو أطول زمنًا ، وقد يستعمله في مقام الإطالة والتفصيل ، ويستعمل (يفّعّل) للمبالغة في الحدث والإكثار منه» [١] .

ثم وجّه آيتي الأنعام والأعراف بناءً على قاعدة التفريق التي ذكرها فقال: «إنه قال في آية الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ، وقال في الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ والأمم أكثر من القرية. وهذا يعني تطاول الإرسال على مدار التاريخ. فلما طال الحدث واستمرّ جاء بما هو أطول بناءً فقال: (يتضرّعون). ولما كان الإرسال في الأعراف إلى قرية قال: (يضّرّعون) فجاء بما هو أقصر في البناء.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه استعمل في الأنعام (أرسل إلى) فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ ، واستعمل في الأعراف (أرسل في) فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ والإرسال إلى شخص ما يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث ، فإنك قد ترسل إلى شخص رسالة فيبلغها ويعود. وأما الإرسال في القرية أو في المدينة فإنه يقتضي التبليغ والمكث، فإن (في) تفيد الظرفية ، وهذا يعني بقاء النبي بينهم يبلّغهم ويذكرهم بالله ويريهم آياته المؤيدة ، ولا شك أن هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه ، فجاء بالصيغة الدالّة على المبالغة في الحدث والإكثار منه فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ

---

(١) بلاغة الكلمة ٤٢ ـ ٤٣ .

﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ فوضع كل مفردة في المكان اللائق بها»[(١)].

وبالجمع بين الرأيين نرى أن لهاتين الآيتين توجيهين أحدهما لفظي والآخر معنوي.

* * *

ومنها قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

نلاحظ في هاتين الآيتين أن الفعل (يذّكّر) جاء في آية إبراهيم مبدلاً مدغمًا، حيث إن أصل الفعل (يتذكّر)، فأبدل التاء ذالاً وأدغم في الذال الذي بعدها. أما في آية (ص) فلم يحصل فيها إبدال ولا إدغام. ولا بد أن يكون هناك سبب للتخصيص.

يرى ابن الزبير أن سبب تخصيص كل آية بما خصت به يعود لسببين:

الأول - هو أن كلمة (ليدّبّروا) في آية (ص) فيها حرفان من أحرف الشدة هما الباء والدال وثانيهما مضعّف. وكذلك في قوله: (وليتذكّر) حرفان من أحرف الشدة هما التاء والكاف وثانيهما مضعّف، فجاءت (وليتذكّر) مفكوكة الإدغام لتتناسب الكلمتان.

أما آية إبراهيم فقد سبقها قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا﴾ وقد عري هذان الفعلان من حروف الشدة، حيث إن جميعها من الحروف الرخوة، وهي ضد الشديدة، فناسب أن يعطف عليها قوله: (وليذّكّر) بالإدغام، إذ ليس في هذا الفعل من الحروف الشديدة غير الكاف[(٢)].

---

(١) بلاغة الكلمة ٤٣.

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٨٢.

والثاني: «أن (يذّكّر ويتذكّر) معناهما واحد، والأصل للمدغم مفكوكه، فلفظ (يذّكّر) ثان عن (يتذكّر)، وهو أكثر استعمالاً وأخف لفظًا، فقدّم في سورة إبراهيم، وأخّر الأثقل في سورة (ص) على الترتيب المتقرر»[1].

وللدكتور فاضل السامرائي قاعدة مطردة للتفريق بينهما في الاستعمال القرآني يشمل هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات التي ذكر فيها هذان الفعلان، وهي أن القرآن الكريم استعمل «(يتذكّر) للتذكر العقلي ولما يحتاج إلى طول وقت. واستعمل (يذّكّر) لما كان فيه هزة للقلب وإيقاظ له ولما كان فيه مبالغة وقوة في التذكر»[2]. وضرب على ذلك أمثلة كثيرة.

ولهذه القاعدة ارتباط بما نقلناه عنه من أن القرآن استعمل (يتفعّل) لما هو أطول زمناً من (يفّعّل)، واستعمل (يفّعّل) لما يحتاج إلى المبالغة في الحدث.

وما يهمنا هنا هو أن نوجه آيتي إبراهيم و (ص) على وفق هذه القاعدة فنقول: إن آية (ص) قد جاء فيها الفعل (يتذكّر) لأن هذا الفعل سبق بقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وتدبر الآيات أمر عقلي يحتاج إلى طول وقت، فالتذكر في هذه الحالة يستغرق وقتًا طويلاً.

أما آية إبراهيم فقد جاء فيها الفعل (يذّكّر) الدال على المبالغة في التذكر، لأن الآية جاءت في سياق الحديث عن عقوبة الظالمين والمجرمين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ... وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٥٠]،

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٥٨٢.

(٢) بلاغة الكلمة ٥١.

فبعد أن ذكر ما سيلاقونه من العذاب يوم القيامة قال: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي أن ما ذكرناه بلاغ للناس لإنذارهم. وهذا الإنذار والتذكر لا يحتاج إلى طول وقت، وإنما يحتاج إلى هزة عنيفة لقلوب الناس لإيقاظها من غفلتها ليرتدعوا ويزدجروا فلا يكونوا مثل أولئك الظالمين والمجرمين، ولذا قال: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والله أعلم.

د ـ البناء للمعلوم والمجهول:

هناك آيات متشابهة ذكرت أفعال مبنية للمعلوم في مواطن منها ومبنية للمجهول في مواطن أخرى. وقد ذكر ابن الزبير من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ... ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦ ـ ٨٧].

وقوله في السورة نفسها: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

يرى ابن الزبير أن سبب بناء الفعل (طبع) للمجهول في الآية الأولى هو أن مطلع الآية قبلها قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ببناء (أُنزل) للمجهول، فكما أنه لم يسند الإنزال إلى الله تعالى لم يسند الطبع إليه.

وأما الآية الثانية فلم يقع قبلها فعل مبني للمجهول، ولذا جاء مبنيًا للمعلوم فقيل: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [(١)]. وهذا تناسب لفظي جميل.

وقد سبقه إلى هذا التوجيه الخطيب الإسكافي في درته[(٢)].

وهناك توجيه آخر لهما وهو أن «إسناد الطبع إلى الله أشد تمكنًا في القلب من بنائه للمجهول، فما أسند إليه صراحة يكون أثبت وأقوى مما

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٧٠.

(٢) ينظر درة التنزيل ٢٠١.

لم يسند إليه. وعلى هذا فهو يسند الطبع إلى الله في مواطن المبالغة والتأكيد ، ويبنيه للمجهول فيما هو أقل من ذلك ، وذلك واضح في الآيتين المذكورتين. . . وبالنظر في السياق يتضح ذلك:

قال تعالى في سياق الآية الأولى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وقال في سياق الآية الثانية: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

فأنت ترى أن الآخرين أشد ضلالاً وكفرًا من الأوّلين ، يدلك على ذلك ما ذكره من صفاتهم وأحوالهم. فإنه لم يذكر في الأوّلين سوى أنهم يستأذنون الرسول إذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد ، وأنهم يقولون: ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ وعقّب على ذلك بقوله: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ. . . ﴾ الآية.

في حين ذكر من صفات الآخرين ما يدل على شدة كفرهم وضلالهم وغضب الله عليهم ما لم يذكره في الأوّلين.

١ ـ فقد طلب الله رد اعتذارهم إذا اعتذروا ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ ﴾ .

٢ ـ وطلب أن يُخبروهم بعدم تصديقهم ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ .

٣ ـ وأن يخبروهم بأن الله نبأ المؤمنين بأخبارهم وأحوالهم ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ .

٤ ـ وطلب من المؤمنين أن يُعرضوا عنهم ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ .

٥ ـ ووصفهم بأنهم رجس ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ .

٦ ـ وذكر عاقبتهم وسوء مآلهم في الآخرة ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

٧ ـ وطلب من المؤمنين ضمنًا ألّا يرضوا عنهم إذا ما حاولوا استرضاءهم لأن الله غير راض عنهم : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

فناسب ذلك إسناد الطبع إلى الله للدلالة على شدة تمكّن الكفر في نفوسهم وقلوبهم ، بخلاف الآية الأخرى» (١) .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٥ ـ ١٦] .

وقوله فيما بعد في السورة نفسها : ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان : ١٩] .

نلاحظ في هذه الآيات أن الفعل المبني للمجهول قد تقدّم الفعل المبني للمعلوم. وهذا خلاف ما هو معروف في اللغة من تقديم المبني للمعلوم على المبني للمجهول لكي يغني ذكر الفاعل في المرة الأولى عن ذكره في المرة الثانية ، وهذا لغرض مقصود يوضحه ابن الزبير في قوله :

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٨٤ ـ ٨٦.

«وقدّم المطاف به لأنه الذي به تنعمهم تناولاً واتصالاً وتطعّمًا وغذاء مأكلاً ومشربًا فكان أهم للتقديم ، ثم أعقب بذكر الطائفين وهم الولدان المخلدون» [(١)] .

ومعنى كلامه هذا أنه قدّم الأهم وهو المطاف به ثم ذكر المهم وهم الطائفون ، ومن المعروف أن تقديم الأهم على المهم قاعدة مطّردة في كلام العرب ذكرها سيبويه في قوله: «كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم» [(٢)] .

وقد سبق ابنَ الزبير إلى هذا التوجيه الخطيبُ الإسكافي فقال: «إن القصد في الآية الأولى وصف ما يطاف به من الأواني دون وصف الطائفين ، فلما كان المعتمد بالإفادة ذاك بني الفعل مقصودًا به ذكر المفعول لا الفاعل. . . وأما الموضع الثاني الذي سمي فيه الفاعل وهو قوله: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴾ فإن القصد فيه وصف الفاعلين الذين يطوفون بهذه الآنية ، فوجب ذكرهم لتعلق الصفة بهم» [(٣)] .

ويوضّح الدكتور عودة الله القيسي هذا الرأي فيقول: «إن المبني للمجهول تقدم المبني للمعلوم لأن السياق الذي ورد فيه المبني للمجهول كان تعداد النعم التي يتمتع فيها المؤمن في الجنة. . . فناسب ذلك أن تذكر آنية الفضة والأكواب القوارير التي يشربون بها لأنها من جملة النعم. فإذا انتهى من تعداد ذلك كان لائقًا التعقيب بذكر هؤلاء الغلمان الذين يقومون بخدمة المؤمنين ويقدّمون لهم ما يقدّم من ألوان هذه النعم التي ذكرت قبل. وإنه لمن المعقول حقًّا أن يتقدم تعداد النعم على من يقومون

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٩٣٥ .

(٢) الكتاب ١/ ١٥ .

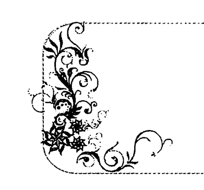
(٣) درة التنزيل ٢٩٢ ، وينظر بصائر ذوي التمييز ١/ ٤٩٤ ، والبرهان للكرماني ٣٥٤ .

بتقديمها ، لأن من طبيعة الأشياء أن لا يكون للمرء خدم وحشم إلا إذا كان صاحب نعمة»[1] .

وهناك سبب آخر للتقديم وهو أن سورة الإنسان مدنية ، وقد سبقها سورة مكية ذكرت ما يطوف به الولدان المخلدون على المؤمنين وهي سورة الواقعة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة : ١٧ ـ ١٨] فأغنى ورودها في هذه السورة المكية عن ورودها في سورة الإنسان المدنية والله أعلم .

* * *

(١) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن ١٠١ ـ ١٠٢ .



المبحث الثاني
دراسة أحوال المفردة

أولاً ـ التنكير والتعريف

أ ـ النكرة والمعرفة:

يعرّف النحاة النكرة بأنه ما كان شائعًا في جنس موجود أو مقدّر، والمعرفة ما استعمل في شيء بعينه(١).

وقد وردت آيات متشابهة تختلف مفرداتها من حيث التنكير والتعريف، حيث وردت في مكان نكرة وفي مكان آخر شبيه به معرفة.

ولابن الزبير وقفات على هذه الآيات وتوجيهات لها استند فيها على الفرق بين النكرة والمعرفة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [البقرة: ٦١] بتعريف (الحق).

وبتنكيره في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٢].

يذكر ابن الزبير سبب تعريف (الحق) في آية البقرة دون آيتي آل عمران

---

(١) ينظر شرح الكافية الشافية ١/ ٢٢٢، والفوائد الضيائية ٢/ ١٥٥، ١٤٩، وحاشية الخضري ١/ ٥٣.

فيقول: إن معنى قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أي بغير سبب ولا شبهة ، وبتعبير آخر: بلا وجه من وجوه الحق ، وذلك أوغل في ذمهم وسوء حالهم.

ومعنى قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي بغير وجه الحق المبيح للقتل المتقرر في شريعتهم. فالألف واللام للعهد ، أي أن الحق المبيح للقتل معروف لديهم ، ومعنى هذا أن آيتي آل عمران أشد ذمًّا لهم من آية البقرة(١).

وقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من العلماء ، جاء في (تفسير الرازي) مثلاً: أن الحق المذكور بحرف التعريف إشارة إلى الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل ، وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم ،أي لم يكن هناك حق أصلاً لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره ألبتة(٢).

وقد تكلم الدكتور فاضل السامرائي على آية البقرة والآية الثانية من آيتي آل عمران فقال: «إن كلمة (الحق) المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل ، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حقّ يدعو إلى قتل ولا غيره. أي ليس هناك وجه من وجوه الحق يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم. فكلمة (حق) ههنا نكرة عامة ، وكذلك (الحق) معرّفة معلومة. والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف ، وذلك لأن التعريف معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب يدعو إلى القتل ، وأما التنكير فمعناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٧٠ ـ ٧٣.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٣/١٠٣ ، والبرهان للكرماني ٣٠ ، والبرهان للزركشي ٣/ ٢١٩ ، ومعترك الأقران ٢/ ٣٢٠ ، وتسهيل السبيل (سورة البقرة).

أصلاً لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره. فمقام التبشيع والذم ههنا أكبر من ثَمّ وكلاهما شنيع وذميم. فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم»[1].

ثم أتى بما يدل على أن الذم وتبشيع الفعل في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة فقال: «إنه في سورة البقرة جمع (الذلة والمسكنة)، وأما في آية آل عمران فقد أكّد وكرّر وعمّم فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ فجعلها عامة، ثم قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد...

ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ أي يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حق. فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد»[2].

* * *

ومن الآيات المتشابهة التي اختلفت مفرداتها تنكيرًا وتعريفًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٤] فقد ورد (المعروف) في هذه الآية معرَّفًا.

في حين ورد منكرًا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

يبين ابن الزبير سبب ذلك فيقول: إن المراد بالمعروف في الآية الأولى

---

(١) معاني النحو ١/١١٨ ـ ١١٩.

(٢) معاني النحو ١/١١٩.

الوجه الذي لا ينكره الشرع ولا يمنعه. وأما الآية الثانية فهي إشارة إلى تفصيل ما يفعلن في أنفسهن من التزيّن والتعرض للخاطبين وما إلى ذلك من أوجه المعروف مما هو مباح شرعًا(١).

ويرى الخطيب الإسكافي أن المقصود بـ (المعروف) المعرّفة في الآية الأولى الزواج خاصة، وأما غير المعرّفة فيراد به ما لم يستنكر فعله من خروج أو تزيّن ونحوه فيقول: «إن الأول تعلق بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة. فالمعروف ههنا أمر الله المشهور وهو فعله وشرعه الذي شرعه وبعث عليه عباده.

والثاني المراد به: فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود، فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه»(٢).

وممن ذهب هذا المذهب بدر الدين بن جماعة، حيث قال: «إن المراد بالآية الأولى ما شرعه الله تعالى من الأحكام، ولذلك عرّفه بالألف واللام وبالإلصاق. وفيما فعلن: أي من التعرض للخُطّاب بالمعروف.

والمراد بالثانية: أفعالهن بأنفسهن من مباح مما يتخيرنه من تزين للخطّاب وتزويج أو قعود أو سفر أو غير ذلك مما لهن فعله، ولذلك نكّره وجاء فيه بـ (من)»(٣).

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٢٩.

(٢) درة التنزيل ٢٩.

(٣) كشف المعاني ١١٦، وينظر البرهان للكرماني ١٤٠، وبصائر ذوي التمييز ١/ ١٥٥.

وهناك أمور عدة تدل على ذلك «منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ ، فقوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ معناه: يصبّرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج ، ثم ذكر العدة التي يحق لهن الزواج بعدها. ثم جاء بالباء الدالة علي الإلصاق ، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ. . . ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى ، فإنه ليس هناك ذكر للتربّص ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها. ومن ناحية أخرى أنه عرّف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف ، ونكّر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين ، بل كل ما كان مباحًا لهن في الشرع فنكّره لذلك» [1].

ب ـ أنواع المعارف:

المعرفة أنواعها عديدة ، فمنها المعرّف بـ (أل) والمعرّف بالإضافة والاسم الموصول والضمير. وقد نقف على آيتين متشابهتين فيهما مفردتان معرفتان ، لكنهما يختلفان في نوع التعريف ، فترد إحداهما معرّفة بـ (أل) والأخرى بالإضافة. وقد يكون الاختلاف في الضمير أو الاسم الموصول ، فالضمير قد يرد في موطن مذكرًا ، وفي موطن آخر مؤنثًا ، أو ظاهرًا في مكان ، ومستترًا في مكان آخر. وأما الاسم الموصول فقد نقف على استعمال (الذي) في آية ، و(ما) في آية أخرى شبيهة بها ، أو (مَن) في موطن ، و(ما) في موطن آخر. . . وهكذا.

وقد كان لابن الزبير وقفات وتوجيهات لهذا النوع من المتشابه سنعرض نماذج منها.

---

(١) التعبير القرآني ١٩١.

١ ـ المعرّف بأل والإضافة :

ففي القرآن الكريم آيات متشابهة فيها مفردات تختلف في نوع التعريف ، فترد في موطن معرّفة بـ (أل) وفي موطن آخر معرّفة بالإضافة ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٥] بتعريف اللعنة بـ (أل) ، وبتعريفها بالإضافة في قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص: ٧٨].

وسبب ذلك عند ابن الزبير أنه قال في آية (ص): ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥] ، فكانت إضافة اللعنة إلى ياء المتكلم مناسبة لإضافة اليدين إليه ، ولما لم يكن كذلك في آية الحجر قال (اللعنة) (١) .

وقد سبقه إلى هذا الرأي الخطيب الإسكافي(٢) ، فالمناسبة عندهما لفظية.

«ثم إنه في قصة (ص) ذكر نفسه أكثر مما في الحجر ، فإنه ذكر نفسه في (ص) ست مرات وفي الحجر ثلاث مرات. قال في الحجر: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] ، وقال في (ص) مثل ذلك وزاد عليه قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥] ، وقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ ﴾ فكان كل تعبير مناسبًا لجو القصة التي ورد فيها» (٣) .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٨٧.

(٢) ينظر درة التنزيل ٢٥٢.

(٣) التعبير القرآني ٣٠٨.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨] فقد وردت (الآيات) معرّفة بـ (أل) في هذه الآية.

في حين وردت معرفة بالإضافة في الآية التي تليها، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩].

يرى ابن الزبير أن سبب ذلك هو أن (الآيات) تكررت في مكانين متقاربين فعدل عن تكرارها بلفظها لأن العرب تستثقل تكرر اللفظ الواحد بعينه فيما تقارب من الكلام إلا إذا اقتضى المعنى ذلك، «وكانت الثانية هي المضافة لأنها مع ما تعطيه من النسبة مبيّنة للأولى بيانًا تأكيديًّا، إذ من المعلوم أنها آياته سبحانه»[١].

ويقول الخطيب الإسكافي: عبّر في الآية الأولى بالآيات «لما لم يكن تبيين الأوقات من الأفعال التي تتخصص بقدرته. ولما كان بلوغ الحلم مما يختص بفعله ولم يقدر فاعل على مثله أضافه إلى نفسه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ﴾»[٢].

ويوضح بدر الدين بن جماعة هذا الرأي فيقول: لما كان الاستئذان في هذه الأوقات من أفعال العباد قال (الآيات). وأما بلوغ الحلم فهو من فعله تبارك وتعالى لا من فعل العبد ولذلك نسب الآيات إلى نفسه فقال (آياته) لاختصاص الله تعالى بذلك[٣].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٤٢.

(٢) درة التنزيل ٣٢٣.

(٣) ينظر كشف المعاني ٢٧٢.

٢ ـ الضمير :

ذكرنا أن في القرآن الكريم آيات متشابهة تختلف في ضمائرها ، حيث يرد الضمير مذكرًا في موطن منها ، ومؤنثًا في موطن آخر نحو قوله تعالى : ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ وقوله : ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا ﴾ .

ويرد مستترًا تارة ، وبارزًا تارة أخرى وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ .

ولا بدّ أن يكون لهذا الاختلاف سببه . ونريد أن نقف على نماذج مما ذكره ابن الزبير لنرى رأيه في سبب التخصيص ونقارنه مع باقي الآراء .

فمن الآيات التي اختلف فيها الضمير تذكيرًا وتأنيثًا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢١ ـ ٢٢] .

نلاحظ أنه قال في آية النحل : (بطونه) ، وفي آية المؤمنون : (بطونها) مع أن الضمير في كلتا الآيتين يعود إلى الأنعام، فما سبب هذا التخصيص؟

يذكر النحاة أن الضمير المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة ، بخلاف الضمير المذكر فإنه يؤتى به للدلالة على القلّة[١] . وقد أتى الضمير في آية النحل مذكرًا وفي آية المؤمنون مؤنثًا ، وهذا يعني أن الأنعام في آية المؤمنون أكثر منها في آية النحل .

ولم يوجه ابن الزبير هاتين الآيتين بناءً على ما ذكرنا من إفادة الضمير المذكر القلة والضمير المؤنث الكثرة ، ولكن وجههما توجيهًا لفظيًا

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٣٥ ، والمساعد على تسهيل الفوائد ٢/ ٩٣ ، والبحر المحيط ٤/ ٧٨ ، وحاشية الصبان ٤/ ٧٨ .

فقال: إن تأنيث الضمير في كلمة (بطونها) يناسب تأنيثه في الكلمات التي بعدها وهي (فيها - منها - عليها). أما إفراد الضمير وتذكيره في سورة النحل فالمراد به الجنس[1].

وأما الخطيب الإسكافي وغيره من العلماء فقد وجهوهما بناءً على ما ذكرنا من إفادة الضمير المذكر من القلة والضمير المؤنث من الكثرة فقالوا: إن المراد بالأنعام في آية النحل هو بعضها لأن الكلام فيها على إسقاء اللبن من بطون الأنعام، واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من بعض إناثها.

وليس كذلك في آية (المؤمنون) لأن الكلام فيها على منافع الأنعام من لبن وغيره، قال تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها، صغارها وكبارها. فجاء بالضمير المذكر مع الأنعام التي يستخلص منها اللبن، وذلك لأنها أقل من عموم الأنعام، وجاء بالضمير المؤنث مع عموم الأنعام[2].

ودلالة التذكير على التقليل والتأنيث على التكثير نجده «في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرهما وذلك نحو قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾[3] بتذكير الفعل (قال)، وقوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾[4] بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلّة، بخلاف التأنيث»[5].

* * *

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦١١.

(٢) ينظر درة التنزيل ٢٦٨، والبرهان للكرماني ١١٤، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٢٥٨.

(٣) يوسف ٣٠.

(٤) الحجرات ١٤.

(٥) التعبير القرآني ١٧٧.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى في موطن: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٤٩] بتذكير الضمير في قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾.

وقوله في موطن آخر: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾ [المائدة: ١١٠] بتأنيث الضمير في قوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾.

فما سبب هذا الاختلاف؟

نقل ابن الزبير رأي الزمخشري في توجيهه الآيتين وهو أنه في آية آل عمران أعاد الضمير على الكاف في (كهيئة) أي أنفخ في المِثْل، والكاف هنا بمعنى (مِثْل)، أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، فأعاد الضمير بالتذكير، لأن المِثْل مذكر(١).

وأما في آية المائدة فقد قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ فأعاد الضمير على الكاف «لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خَلْقه ولا من نفخه في شيء»(٢).

وذهب الفراء إلى أن الضمير يعود على الهيئة وهي مؤنثة(٣).

وجاء في (البحر المحيط) أنه جوّز بعضهم عود الضمير على الهيئة «على تقدير: وإذ تخلق من الطين طائرًا صورة مثل صورة الطائر الحقيقي

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٥٦، وتفسير الكشاف ١/ ٥٦٠.
(٢) ملاك التأويل ١/ ١٥٦ ـ ١٥٧، وينظر الكشاف ٢/ ٣١٢.
(٣) ينظر معاني القرآن ١/ ٢١٤.

فتنفخ فيه فيكون طائرًا حقيقة بإذن الله»[1].

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أن «لا مانع من عود الضمير على الهيئة. . . لأن الهيئة صورة الشيء وشكله، والمعنى أنه ينفخ فيما هو على صورة الطائر وشكله، وهذه الهيئة صنعها هو من الطين، فلا يلزم ما قاله المانعون»[2].

ولابن الزبير توجيه آخر للآيتين وهو أنه «ورد قبل ضمير آية آل عمران من لدن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ نحوٌ من عشرين ضميرًا من ضمائر المذكر، فورد الضمير في قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ مذكرًا ليناسب ما تقدمه. . .

أما آية العقود[3] فمفتتحة بقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ وخلْقه الطائر ونفخه فيه من أجلّ نعمه تعالى عليه لتأييده بذلك، فناسب ذلك تأنيث الضمير، ولم تكثر الضمائر هنا ككثرتها هناك، فجاء كل من الآيتين على أتم المناسبة»[4].

وهناك توجيه ثالث لهما استفيد مما يدل عليه الضمير المذكر من القلة والضمير المؤنث من الكثرة وهو «أن آية آل عمران من كلام المسيح عليه السلام في ابتداء تحديه بالمعجزة المذكورة ولم تكن صورة بعدُ فحسن التذكير والإفراد.

وآية المائدة من كلام الله تعالى له يوم القيامة معدّدًا نعمه عليه بعد ما

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٥٦.
(٢) من أسرار البيان القرآني ١٥٧.
(٣) يعني آية المائدة.
(٤) ملاك التأويل ١/ ١٥٨.

مضت وكان قد اتفق ذلك منه مرات ، فحسن التأنيث لجماعة ما صوّره من ذلك ونفخ فيه»[1] .

«ومن الطريف أن نذكر أيضًا أنه في آية آل عمران كان الكلام في الدنيا فأعاد الضمير على اللفظ المتقدم وهو الكاف ، ذلك أن الدنيا متقدمة على الآخرة.

وأعاد الضمير على اللفظ المتأخر في المائدة وهو الهيئة لأن الكلام إنما هو في الآخرة ، والآخرة إنما تأتي بعد الدنيا.

فناسب كل تعبير الزمن الذي قيل فيه»[2]

* * *

ومن الآيات التي اختلف فيها الضمير بروزًا واستتارًا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام: ٢٥] فقد أتى ضمير الفعل (يستمع) مستترًا.

في حين أتى بارزًا في قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ٤٢].

يقول النحاة: إن اللفظين (من و ما) مفردان مذكران. ويجوز مراعاة لفظهما ـ أي: الإفراد والتذكير ـ ويجوز مراعاة معناهما. جاء في (الكتاب): «هذا باب إجرائهم صلة (مَن) وخبره إذا عنيت اثنين كصلة (اللذين) وإذا عنيت جميعًا كصلة (الذين) ، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾»[3] .

---

(١) كشف المعاني ١٢٩ ، وينظر البرهان للكرماني ٩٠.

(٢) من أسرار البيان القرآني ١٥٨.

(٣) الكتاب ١/ ٤٠٤.

وجاء في (المقتضب) أن (مَن) «تكون جمعًا على لفظ الواحد وكذلك الاثنان ، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [1] فحمل على اللفظ. وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [2] فحمل مرة على اللفظ ومرة على المعنى» [3].

وجاء في (همع الهوامع): «ويجوز مراعاة اللفظ والمعنى في ضمير (مَن وما وأل). . . لأنها في اللفظ مفردة مذكرة ، فإن عني بها غير ذلك جاز مراعاة المعنى أيضًا ، والأحسن مراعاة اللفظ لأنه الأكثر في كلام العرب ، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾» [4].

ويبدو لي أن مراعاة اللفظ هو الأكثر وليس الأحسن كما قال السيوطي ، ولو كان الأحسن ما روعي المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾.

وإذا كان من الجائز مراعاة اللفظ والمعنى في ضمير (مَن وما وأل) فإنه لا بد أن يكون في الكلام البليغ مرجح لمراعاة اللفظ أو مراعاة المعنى ، وخير دليل على ذلك الاستعمال القرآني ، فقد راعى القرآن الكريم اللفظ مرة والمعنى مرة أخرى وفق ما يقتضيه سياق النص.

ولنعد بعد هذه المقدمة إلى آيتي الأنعام ويونس لنرى سبب الحمل على اللفظ في آية الأنعام ، وعلى المعنى في آية يونس من خلال توجيهات ابن الزبير وغيره من العلماء.

---

(١) يونس ٤٠.
(٢) البقرة ١١٢.
(٣) المقتضب ٢/ ٢٩٥.
(٤) همع الهوامع ١/ ٢٩٩ ، وينظر المساعد على تسهيل الفوائد ١/ ١٦٠.

يرى ابن الزبير أن سبب الحمل على اللفظ في آية الأنعام هو أنه قد اقترن بها ما يبيّن أن المستمعين جماعة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ فأمن اللبس وارتفع الاحتمال، ولهذا جاء بصيغة الإفراد.

أما آية يونس فلم يقترن بها ما يبين أن المستمعين جماعة، فقد قال بعدها: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فجاء الفعل مسندًا إلى واو الجماعة لئلا يتوهم أن المستمع واحد[1].

وذهب غيره من العلماء إلى أن سبب ذلك هو أن آية الأنعام نزلت في قوم قليلي العدد هم أبو سفيان والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، فحمل على اللفظ لقلتهم.

وأما آية يونس فإنها نزلت في جميع الكفار، فحمل على المعنى لكثرتهم[2]. وقد حسن الربط ما بين قوله: ﴿ يَسْتَمِعُ ﴾ وقلة العدد، وقوله: ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ وكثرته.

وهناك من يرى أن السبب هو «أن المستمعين في آية يونس أكثر وأن مواقع الاستماع مختلفة في قلوب السامعين، بخلاف المستمعين في آيتي الأنعام ومحمد[3]، ذلك أن المستمعين في آية الأنعام على نمط واحد وهم من الكفرة الذين لا يفقهون ولا يسمعون، فقد قال فيهم:

١ ـ وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه.

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٠٧.

(٢) ينظر درة التنزيل ١١٧، والبرهان للكرماني ٦١، ومعترك الأقران ٣/ ٣٣٢، وتسهيل السبيل (سورة الأنعام)، وروح المعاني ١١/ ١٢٥.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

٢ ـ وفي آذانهم وقرًا .

٣ ـ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها .

٤ ـ وذكر صفات أخرى تزيد في عنادهم وكفرهم .

فهؤلاء كأنهم مستمع رافض واحد ، فمواقع الاستماع عندهم واحدة . . .

وليس الأمر كذلك في آية يونس ، فقد قال قبل هذه الآية : ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠] .

وعلى هذا فالمستمعون ههنا أكثر من صنف : صنف مؤمن وصنف كافر . . . فوحّد المستمعين في آيتي الأنعام ومحمد لأنهم صنف واحد ولأن مواقع الكلام في نفوسهم واحدة وكأنهم مستمع واحد ، بخلاف ما في يونس ، فقد جمع المستمعين لأنهم أكثر من صنف ولأن مواقع الكلام مختلفة في نفوسهم» [١] . وهذا تناظر فني جميل .

٣ ـ الاسم الموصول :

في القرآن الكريم آيات متشابهة تختلف في الاسم الموصول ، وقد ذكر ابن الزبير من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وقوله : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] .

وقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧] .

---

(١) الجملة العربية والمعنى ١٣٣ ـ ١٣٤ .

نلاحظ أن الآية الأولى من آيتي البقرة قد خُصّصت بالاسم الموصول (الذي) ، بخلاف الآية الثانية منهما وآية الرعد فإنهما قد خصصتا بالاسم الموصول (ما) ، فما السبب؟

يقول النحاة: إن (الذي) أخصّ من (ما) و (من) وذلك لأنهما قد يأتيان لأكثر من معنى ، فقد تأتي (مَن) للاستفهام والموصولية والشرط ، وتأتي (ما) للاستفهام والموصولية والشرط والنفي والتعجب، أما (الذي) فلا يأتي إلا اسماً موصولاً. جاء في (حاشية الصبان) أن الاسم الموصول «أعرفه ما كان مختصًّا ثم ما كان مشتركًا» [1]. وعلى ذلك فإن (الذي) أعرف من (ما) و (مَن) الموصولتين، لأن (الذي) اسم موصول مختص بالموصولية، بخلاف (مَن) و (ما) فإنهما يأتيان لأكثر من معنى كما ذكرنا[2].

بعد هذه المقدمة نعود إلى الآيات التي ذكرناها لنرى سبب التخصيص فيها.

يقول ابن الزبير: إن سبب ذلك هو أن كلمة (ما) أوجز من كلمة (الذي) ، فـ (ما) تتكون من حرفين ، و(الذي) تتكون من خمسة أحرف ، ولما أوجز الكلام في آية الرعد على أهل الكتاب ناسبه إيجاز التحذير من حالهم ، وناسبه مجيء (ما) الموصولة التي هي أوجز من (الذي).

أما الآية الأولى من آيتي البقرة فقد تقدمها عدة آيات في الكلام على أهل الكتاب وقبيح مرتكباتهم. ولما أطنب في الكلام عليهم ناسب هذا الإطناب (الذي) الذي هو أطول من (ما) لفظًا.

ثم إن كلمة (نصير) أوسع من كلمة (واق) لأن صيغة (فعيل) صيغة مبالغة بخلاف صيغة فاعل ، وكلمة (واق) أوجز من كلمة (نصير) فناسب

---

(١) حاشية الصبان ١/ ١٠٧.

(٢) ينظر معاني النحو ١/ ١٤٨ ـ ١٤٩.

الإيجاز الإيجاز والإطناب الإطناب[1].

ويقول في الآية الثانية منهما: لما ذكر بعدها مرتكبات أهل الكتاب وعنادهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] «وجاء قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد إطناب زائد وتعريف بأكثر مما تقدم، وردت المتكررة مراعى فيها ذلك... فجيء بـ (ما) عوضاً عن (الذي) لأنها هنا بسياقها بعد (مَن) كيفما قدرتها من موصولية أو موصوفية تعطي الاستيفاء وتقتضيه، فروعي معناها وروعي فيها تقدم لفظها»[2].

ولي توجيه آخر غير ما ذكره ابن الزبير وهو أن ضمير الفصل في الآية الأولى من آيتي البقرة وهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يفيد الاختصاص والقصر، فناسب هذا الضمير المجيء بالاسم الموصول (الذي) المقتصر على الموصولية.

أما الآية الثانية من آيتي البقرة فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ فجاءت كلمة (آية) نكرة، والنكرة تفيد العموم والشمول، فناسبها (ما) الموصولة التي يراد بها الإطلاق والعموم.

وأما آية الرعد فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ﴾ بصيغة التنكير، وجاء بعدها قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ بصيغة التنكير أيضًا، والنكرة تفيد العموم والشمول، فناسبها (ما) الموصولة التي يراد بها الإطلاق والعموم أيضاً والله أعلم.

* * *

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٨٥ ـ ٨٧.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٨٧.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦]

وقوله في الآية التي تليها: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقوله في سورة الزمر: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٥].

فقد قال في آيتي النحل: ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، وفي آية الزمر: ﴿ بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾. ولهذا التخصيص سببه يبيّنه ابن الزبير فيقول: إن آية النحل الأولى قد افتتحت بـ (ما) الموصولة في قوله: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ وتكررت في قوله: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ والمراد بها الإطلاق والعموم، فناسبها قوله: ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

وأما آية النحل الثانية فقد افتتحت بقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ وهو عامّ، لأن (مَن) شرطية وهي نكرة فتشمل كل عامل، وفسّره بقوله: ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ وهو نكرة، ولذا جاء الجزاء عامًّا فجاء بـ (ما) وقال: ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

وأما آية الزمر فقد وردت في طائفة بعينها، حيث سبقها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٣] فالذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدّق به متقدمو أصحابه، وهؤلاء لا يشاركهم في حالهم غيرهم، وفيهم ورد ما بعد، وإليه ترجع الضمائر من قوله: ﴿ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقوله: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر: ٣٤] ولذا جاء بـ (الذي) المختصة في الموضعين فقال: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٢٦ ـ ٦٢٨.

ونظير آية الزمر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]. فقد جاء «بـ (الذي) لا بـ (مَن) وهو اسم موصول معرفة، ثم عرّف العمل الصالح فقال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولذا جاء الجواب مخصّصًا فجاء بـ (الذي) فقال: ﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾»[١]. فآية العنكبوت تشترك مع آية الزمر في الخصوص، وآيتا النحل تشتركان في العموم، فاستعمل (ما) لما هو عام و(الذي) لما هو خاص.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٤٩].

نلاحظ أن الآية الأولى قد خصصت بالاسم الموصول (مَن)، والثانية بالاسم الموصول (ما) فما سبب ذلك؟

ذهب النحاة إلى أن الفرق بين (مَن) و (ما) الموصولتين أن (مَن) مختصة بالعقلاء، و(ما) تقع على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل. جاء في (الكتاب): «و(مَن) وهي للمسألة عن الأناسي ويكون بها الجزاء للأناسي وتكون بمنزلة الذي للأناسي... و(ما) مثلها، إلا أن (ما) مبهمة تقع على كل شيء»[٢].

وقد فرق ابن الزبير بين آيتي النحل والرعد معتمدًا الفرق بين (مَن) و(ما) الموصولتين فقال: إنه جاء في آية الرعد بـ (مَن) التي تخص العقلاء

---

(١) معاني النحو ١/ ١٥٠.
(٢) الكتاب ٢/ ٣٠٩، وينظر شرح المفصل ٣/ ١٤٥، وشرح الكافية الشافية ١/ ٢٧٦.

لأنه قال: ﴿ طَوۡعًا وَكَرۡهًا ﴾ ، والذي يسجد لله طوعًا وكرهًا هو العاقل. وجاء في آية النحل بـ (ما) التي تشمل ذوات ما لا يعقل لأنه قال: ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ والدابّة لفظ عامّ يشمل العاقل وغيره(١).

ثانياً ـ تذكير الفعل وتأنيثه:

يذكر النحاة أن هناك مواطن يجوز فيها ذكر تاء التأنيث وحذفها ، من ذلك أن يكون الفاعل جمع تكسير نحو قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٌ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ [يوسف: ٣٠] ، وقوله: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّا ﴾ [الحجرات: ١٤]. ومن ذلك أن يفصل بين الفعل وفاعله بفاصل سواء كان الفاعل حقيقيًّا نحو قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ﴾ [الممتحنة: ١٢] أم مجازيًّا نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ [هود: ٦٧]. قال الناظم:

وقد يبيح الفصل ترك التاء في نحو أتى القاضيَ بنتُ الواقف(٢)

وعلى الرغم من جواز ذكر تاء التأنيث وحذفها في هذه المواطن فالكلام البليغ لا تذكر فيه تاء التأنيث أو تحذف بصورة عشوائية ولكن حسبما يقتضيه المعنى، وخير مثال على ذلك الاستعمال القرآني، فقد ذكّر الفعل في موطن وأنّثه في موطن آخر شبيه به مراعيًا في ذلك سياق النص.

من ذ لك قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٨٤] ، وقوله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [فاطر: ٤].

نلاحظ أن القرآن الكريم قد أدخل تاء التأنيث على الفعل (كُذِّب) في آية فاطر دون آية آل عمران علمًا بأن كلا الفعلين قد أسند إلى جمع التكسير (رُسُل).

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٢٦.

(٢) شرح ابن عقيل ١/ ٤٧٧ ، ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

أقول: على الرغم من جواز ذكر تاء التأنيث وحذفها إذا كان الفاعل جمع تكسير نرى أن القرآن الكريم لا يتعامل مع هذا الجواز تعاملاً عشوائيًّا وإنما يراعي في ذلك السياق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧] فقد ذكّر الفعل (أخذ) في هذه الآية.

في حين أنّثه في قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

نلاحظ أن هاتين الآيتين متشابهتان تمامًا، إلا أن الفعل (أخذ) أنّث في الآية الثانية دون الآية الأولى. وقد ذكّر الفعل وأنّثه في كلتا الآيتين على الرغم من طول الفصل بين الفعل والفاعل. وبناءً على هذا فقد اعترض الدكتور فاضل السامرائي على قول سيبويه: «وكلما طال الكلام فهو أحسن نحو قولك: (حضر القاضيَ امرأةٌ) لأنه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل» [1] قائلاً: «والذي أراه أن هذا الكلام ليس على إطلاقه، وإنما الذي يقرره المعنى، فليس إثبات التاء في الحقيقي التأنيث أجود، ولا إذا طال الكلام كان الحذف أجمل سواء كان المؤنث حقيقيًّا أم مجازيًّا، ودليلنا على ذلك كلام الله تعالى» [2].

بعد هذه المقدمة نستعرض وقفات ابن الزبير على بعض الآيات المتشابهات التي يذكّر الفعل في موطن منها ويؤنّث في موطن آخر شبيه به، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

---

(١) كتاب سيبويه ١/ ٢٣٥، وينظر بدائع الفوائد ١/ ١٢٥.

(٢) معاني النحو ٢/ ٤٨٢.

يرى ابن الزبير أن سبب ذكر تاء التأنيث في (كُذِّبت) في آية فاطر دون آية آل عمران أن في آية آل عمران قوله تعالى: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بواو الجماعة، وواو الجماعة خاص بالمذكر، فناسب ذلك تذكير الفعل (كُذّب).

أما في آية فاطر فقد حصل تناسب بين تأنيث (كُذّب) وتأنيث (تُرجَع)[1].

ولي توجيه آخر أفدته مما ذكره النحاة من أن تذكير الفعل يدل على القلة وتأنيثه يدل على الكثرة[2] فأقول: إن الفعل في آية آل عمران يدل على القلة لأنه جاء مذكّراً، بخلاف الفعل في آية فاطر فإنه يدل على الكثرة لأنه جاء مؤنثاً، أي أن الرسل الذين كُذّبوا في آية آل عمران أقل من الرسل الذين كُذّبوا في آية فاطر، ووجه ذلك أن الرسل المذكورين في آية آل عمران قد خصصوا بصفة وهي جملة ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، بخلاف آية فاطر فإنهم لم يخصصوا بشيء، وما خصّص أقل مما لم يخصّص والله أعلم.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى مخبرًا عن قوم صالح عليه السلام: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

وقوله مخبرًا عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٨٢.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٣٥، والمساعد على تسهيل الفوائد ٢/ ٩٣، والبحر المحيط ٤/ ٧٨، وحاشية الصبان ٤/ ٧٨.

للسائل أن يسأل عن سبب تذكير الفعل في الآية الأولى وتأنيثه في الآية الثانية.

ذهب ابن الزبير إلى ما ذهب إليه سيبويه من أنه كلما كثر الفصل حسُنَ الحذف فقال: «وكلما كثر الفصل حسن الحذف، ومن كلامهم (حضر القاضيَ اليوم امرأةٌ)» [١]. وهذا ـ كما نرى ـ شبيه بما نقلناه عن سيبويه من قوله: «وكلما طال الكلام فهو أحسن نحو قولك: (حضر القاضيَ امرأةٌ) لأنه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل».

ثم وجّه الآيتين بناء على ما ذهب إليه فقال: «ومنه ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ فالحذف والإثبات هنا جائزان، والحذف أحسن، فجاء الفعل في الآية الأولى على الأول، ثم ورد في قصة شعيب ـ وهي الثانية ـ بإثبات علامة التأنيث على الوجه الثاني جمعًا بين الوجهين، إذ الآيتان في سورة واحدة، وتقدمها الأولى على ما ينبغي» [٢].

وقوله: «وكلما كثر الفصل حسن الحذف» نرد عليه بمثل رد الدكتور فاضل السامرائي على قول سيبويه الذي ذكرناه آنفًا.

ثم إنه يقول إن الفعل في الآية الأولى جاء مذكّرًا لأنه ورد ذكره أولاً، وجاء مؤنّثًا في الآية الثانية لأنه تأخر ذكره، ومعنى هذا الكلام أنه لو وردت قصة شعيب أولاً لذكّر فعله، ولو وردت قصة صالح ثانيًا لأنّث فعله. ولعل في هذا التوجيه تكلفًا واضحًا.

وذهب الخطيب الإسكافي إلى أن سبب ذلك هو «أن الله تعالى أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ منها (الرجفة) في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٥٢٣.

(٢) ملاك التأويل ٢/ ٥٢٣.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ (١) وذكر ذلك قبله في مكان آخر.

ومنها (الصيحة) في سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (٢).

ومنها (الظلة) في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ (٣).

وفي التفسير أن هذه الثلاث جمعت لهم لإهلاكهم واحدة بعد أخرى ، لأن الرجفة بدأت بهم فانزعجوا لها عن الكنّ(٤) إلى البراح ، فلما أصحروا نال منهم حر الشمس وظهرت لهم ظلة تبادروا إليها وهي سحابة سكنوا إلى رَوْح تحت ظلها فجاءتهم الصيحة فهمدوا لها ، فلما اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به ، غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات ، فلذلك جاء في قصة شعيب «﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾» (٥).

وأما أبو البركات ابن الأنباري فقد ذهب إلى أن حذف التاء من الفعل (أخذ) في الآية الأولى يرجع إلى ثلاثة أسباب هي:

السبب الأول: أنه فصل بين الفعل والفاعل بالمفعول به وهو (الذين ظلموا).

---

(١) الآيتان ٩٠ ـ ٩١.
(٢) الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.
(٣) الآية ١٨٩.
(٤) الكنّ: البيت.
(٥) درة التنزيل ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

السبب الثاني: أن تأنيث الصيحة غير حقيقي ، ألا ترى أنه يجوز أن نقول: (حسن دارك) و (اضطرم نارك)؟

والسبب الثالث: أنه محمول على المعنى ، لأن الصيحة في معنى الصياح كقوله تعالى: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ولم يقل (جاءته) ، لأن (موعظة) في معنى الوعظ. والشواهد على الحمل على المعنى كثيرة جدّاً[١].

وهذه الأسباب الثلاثة فيها نظر:

أما السبب الأول فقد ذكر فيه أن سبب حذف التاء من الفعل (أخذ) في الآية الأولى هو الفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول به وهو (الذين ظلموا).

ونقول: إن الفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول به (الذين ظلموا) قد حصل في الآية الثانية كما حصل في الآية الأولى ، فلماذا ذكر التاء معها؟

وأما السبب الثاني فقد ذكر فيه أن تأنيث الصيحة في الآية الأولى غير حقيقي.

ونقول: إن لفظ (الصيحة) قد ذكر في الآية الثانية كما ورد ذكره في الآية الأولى ، وتأنيثها في الآيتين غير حقيقي ، فلم أنّث الفعل معها في الآية الثانية دون الآية الأولى؟

وأما السبب الثالث فقد ذكر فيه ابن الأنباري أن لفظ (الصيحة) في الآية الأولى محمول على معنى الصياح. ولم يبيّن سبب حملها على المعنى في الآية الأولى دون الآية الثانية.

ويوجّه الفخر الرازي الآية الأولى فيقول: «إنما قال (أخذ) ولم يقل

---

(١) ينظر البيان في غريب إعراب القرآن ٢/ ٢٠.

(أخذت) لأن الصيحة محمولة على الصياح. وأيضًا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث» (١).

ويمكن أن نرد هذين التوجيهين بمثل ما رددنا توجيه ابن الأنباري فنقول: إن الصيحة قد وردت في الآية الثانية أيضًا، فلمَ لم تحمل على الصياح كذلك؟ إذن لأمكن مجيء الفعل فيها مجرداً من تاء التأنيث.

وكذلك فقد حصل الفصل بين الفعل والاسم المؤنث في الآية الثانية، فلمَ لم يأت الفعل فيها مذكرًا كما جاء في الآية الأولى؟

وقد ذكر السهيلي أن «الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي، إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية فقوي التذكير، بخلاف قصة شعيب فإنه لم يذكر فيها ذلك» (٢).

يقول ابن القيم معلقاً على كلام السهيلي: «وعندي فيه جواب أحسن من هذا إن شاء الله وهو أن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح فيحسن فيه التذكير، ويراد بها الواحدة من المصدر فيكون التأنيث أحسن. وقد أخبر تعالى عن العذاب الذي أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور كلها مؤنثة في اللفظ: **أحدها** (الرجفة) في قوله في الأعراف: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٣). **الثاني**: الظلة بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ (٤) **الثالث**: الصيحة ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وجمع لهم بين الثلاثة، فإن الرجفة بدأت بهم فأصحروا إلى الفضاء خوفًا من سقوط الأبنية عليهم، فصهرتهم الشمس بحرها ورفعت لهم الظلة فأهرعوا إليها

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٢١.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٢٦، وينظر البرهان ٣/ ٣٨٦.

(٣) الأعراف ٩١.

(٤) الشعراء ١٨٩.

يستظلون بها من الشمس فنزل عليهم منها العذاب وفيه الصيحة ، فكان ذكر الصيحة مع الرجفة والظلة أحسن من ذكر الصياح ، وكان ذكر التاء والله أعلم»[1] .

وهذا التوجيه شبيه بتوجيه الخطيب الإسكافي الذي مر بنا آنفًا .

ثالثاً ـ تعاور الحروف:

قد تتعاور الحروف في الآيات المتشابهة ، ففي حروف الجر ـ مثلاً ـ نجد أن القرآن قد يستعمل حرف جر ما في موطن ، وفي موطن آخر شبيه به يستعمل حرف جر آخر .

وأما حروف النفي فقد نقف على آية قد نفيت بحرف نفي ما ، وآية أخرى نفيت بحرف آخر .

وهذا ما نلاحظه أيضاً في الآيات المتشابهة التي استعمل فيها حروف العطف ، حيث نجد في موضع العطف بالواو ، وفي موضع شبيه به العطف بالفاء . . . وهكذا .

ولا بد أن نتيقن أن تعاور الحروف في الآيات المتشابهة ليس اعتباطيّاً ، ولكن سياق النص القرآني يقتضي حرفاً دون آخر ، وسنبرهن على ذلك من خلال ما سنتناوله من تعاور حروف الجر وأحرف النفي وأحرف العطف .

أ ـ حروف الجر :

ذكرنا أن في القرآن الكريم آيات متشابهة تختلف مفرداتها في حروف الجر ، فترد في موطن بحرف جر ، وفي موطن آخر بحرف جر مغاير له ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] .

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٢٦ ، وينظر البرهان للزركشي ٣/ ٣٨٦ .

وقوله في موطن آخر: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقبل أن أذكر رأي ابن الزبير في سبب تخصيص الآية الأولى بـ (إلى) والثانية بـ (على) نذكر معنى هذين الحرفين.

يذكر النحاة أن الأصل في (إلى) أن تكون لانتهاء الغاية، و(على) للاستعلاء. جاء في (الكتاب): «أما (على) فاستعلاء الشيء، تقول: (هذا على ظهر الجبل) و(هي على رأسه)... وأما (إلى) فمنتهى لابتداء الغاية، تقول: (من كذا إلى كذا)»(١).

وبناءً على هذين المعنيين يقول ابن الزبير ذاهبًا مذهب كثير من العلماء: إن سبب تخصيص آية البقرة بـ (إلى) هو أنها خطاب للمسلمين، والمسلمون لم ينزّل عليهم القرآن وإنما انتهى إليهم بعد أن أُنزل على النبي ﷺ، ولذا استعمل هنا (إلى) التي تفيد انتهاء الغاية.

وأما آية آل عمران فهي خطاب للنبي ﷺ، ومن المعلوم أن القرآن أُنزل عليه مباشرة، ولهذا استعمل (على) التي تفيد الاستعلاء(٢).

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

---

(١) الكتاب ٢/ ٣١٠، وينظر المقتضب ٤/ ١٣٩، والأصول في النحو ١/ ٥٠١، والجنى الداني ٣٧٣ ـ ٤٤٤.

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٩٥ ـ ٩٦، ودرة التنزيل ٣٥، والبرهان للكرماني ٣٥، والإتقان ٣/ ٣٤٣.

وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

نلاحظ أنه قال في الآية الأولى: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وفي الثانية: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ فما السبب؟

يذكر النحاة أن حرف الجر (عن) تفيد المجاوزة والابتعاد، قال الناظم:

على للاستعلا ومعنى في وعن   بعن تجاوزًا عنى من قد فطن[1]

«تقول (انصرف عنه) أي تركه... و(وضعه عنه) بمعنى رفعه عنه بعد أن كان عليه... وتقول (عدل عنه) و(مال عنه) أي ابتعد عنه... وتقول (رغبت عنه) إذا ابتعدت رغبتك عنه وجاوزته»[2].

ويفرّق الخطيب الإسكافي بين (عن) و (بعد) الظرفية فيقول: إن (بعد) «قد تكون لما تأخر زمانه بأزمنة كثيرة وبزمن واحد، و(عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقًا زمنه لزمنه»[3].

وهذا الفرق واضح عند ابن الزبير، فقد وجّه الآيتين بناءً على هذا الفرق فقال: «إن الآية الأولى تضمنت إخبار الله سبحانه لنبيه عليه السلام بمرتكب من تقدّم من كفار بني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق...

وأما الآية الثانية فتعريف له عليه السلام بأحوال معاصريه منهم...

فلما كان هذا إخبارًا بحال خلفهم، والأول إخبار بحال سلفهم، ناسب حال الأولين ذكر ما تناولوه بأنفسهم وباشروه بالتحريف والتبديل

---

(١) شرح الأشموني ٢/ ٢٩٤، وينظر جواهر الأدب ١٩٤، والجنى الداني ٢٦١.
(٢) معاني النحو ٣/ ٥١.
(٣) درة التنزيل ٩١.

فقيل: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾»[1].

وقد سبقه إلى هذا الرأي الكرماني حيث قال: «الأولى في أوائل اليهود، والثانية فيمن كانوا في زمن النبي ﷺ، أي حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زمانًا»[2].

وقد رأيت هذا النص في كتاب (تسهيل السبيل) للبكري دون أن ينسبه إلى أحد[3].

* * *

ومن الآيات التي تعاور فيها أحرف الجر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩].

وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥].

فقال في آية لقمان: (إلى أجل) وقال في آيتي فاطر والزمر: (لأجل).

ذكرنا أن النحاة قالوا: إن الأصل في (إلى) أن تكون لانتهاء الغاية، وأما اللام فمن معانيها التعليل[4]. ولكن ابن الزبير لم يوجه هذه الآيات بناءً على هذه المعاني، وإنما قال: إنه لما طال الكلام في آية لقمان ناسب

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢) البرهان ٥٦، وينظر كشف المعاني ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) ينظر تسهيل السبيل (سورة المائدة).

(٤) ينظر جواهر الأدب ٣٢، والجنى الداني ٤٤١، وشرح الأشموني ٢/ ٢٩٥.

طوله الجر بـ(إلى) ، وأما الآيتان الأخريان فقد بنيتا على الإيجاز فناسبهما الجر باللام[1] . وهذا تناظر فني جميل .

وقد ذكر الخطيب الإسكافي الفرق بين قوله: (إلى أجل) ، وقوله: (لأجل) فقال: «إن معنى قوله: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى ، وقوله: ﴿يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ معناه: لا يزال جاريًا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له» [2] .

ومعنى كلامه هذا أن معنى قوله: ﴿يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ أي كل يجري حتى ينتهي إلى الأجل المسمى له ، ومعنى قوله: (لأجل) أي من أجل أن يبلغ أجلاً مسمى ، أي من أجل هذه العلة .

ثم بيّن سبب تخصيص كل آية بالحرف الذي وردت فيه فقال: «وإنما خص ما في سورة لقمان بـ(إلى) التي للانتهاء ، واللام تؤدي نحو معناها ؛ لأنها تدل على جريها لبلوغ الأجل المسمى ، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة ، فقبلها ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [3] ، وبعدها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [4]فكان المعنى: كلٌّ يجري إلى ذلك الوقت ، وهو الوقت الذي تكوّر فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى .

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٩٢ .

(٢) درة التنزيل ٣٧٤ .

(٣) الآية ٢٨ .

(٤) الآية ٣٣ .

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (١) فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السماوات والأرض وابتداء جري الكواكب ، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية. وكذلك قوله في سورة الملائكة(٢) إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر ، إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ (٣). فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها ، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها» (٤).

مما سبق رأينا أن سبب التخصيص يتعلق باللفظ إضافة إلى تعلقه بالمعنى.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].

يقول ابن الزبير: إن سبب تخصيص آية العنكبوت باللام في قوله:

---

(١) الزمر ٥ ـ ٦.
(٢) أي: فاطر.
(٣) فاطر ١٢ ـ ١٣.
(٤) درة التنزيل ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ، وينظر كشف المعاني ٢٩٧.

(لتشرك) ، وآية لقمان بـ (على) في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ هو «بناء آية العنكبوت على الإيجاز ، فناسب ذلك الاكتفاء باللام ، وبناء آية لقمان على الإطالة ، فناسب ذلك التعدية بـ (على)»[1] .

وهذا التوجيه سديد ، فالوصية في آية العنكبوت أوجز منها في آية لقمان ، ففي آية العنكبوت يقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وفي آية لقمان يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].

فالوصية في سورة لقمان أطول منها في آية العنكبوت.

ولي توجيه معنوي لهاتين الآيتين ، فاللام في قوله: (لتشرك) للتعليل ، و(على) في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ للاستعلاء ، إضافة إلى ما تحمل من معنى التعليل ، ويبدو أن الحمل على الشرك في آية لقمان أشد ، ويدل على ذلك أمور منها:

أولاً ـ أنه قال تعالى في آية العنكبوت: (حسنًا) ولم يقل ذلك في آية لقمان ، لأن شدة الحمل على الشرك المذكور في آية لقمان في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ لا يناسبها مجيء كلمة (حسنًا).

ثانيًا ـ أن شدة الحمل على الشرك ربما يؤدي إلى المنافرة وقطيعة الرحم ، فاقتضى ذلك أن يتبع النهي في قوله في آية لقمان: ﴿فَلَا

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٦٤.

تُطِعۡهُمَاۖ﴾ بقوله: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ ، بخلاف آية العنكبوت والله أعلم.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وقوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩].

فقال في الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ ، وقال في طه والشعراء: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ فما سبب هذا التخصيص؟

يرى ابن الزبير أن ضمير الغيبة في (به) و (له) يعود على موسى عليه السلام. والفرق بينهما أن معنى قوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: صدّقتم به، فالباء للتصديق، ومعنى قوله: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾: انقدتم له، فاللام للانقياد، فبدأ بالتصديق في الآية التي ذكرت أولاً، ثم ثنّى بالانقياد في الآيتين اللتين ذكرتا فيما بعد[1]. وهذا أمر بديهي فإن الإنسان يصدق أولاً في المبدأ الذي يؤمن به ثم ينقاد له.

وهناك من يرى أن ضمير الغيبة في (به) يعود على الله، وفي (له) يعود على موسى عليه السلام، ووجه ذلك «أن موسى أغضبه في الشعراء أكثر مما في الأعراف، فقد نال منه بالقول وأفحمه بالحجة، ولذا كان تصديقهم به أكثر إغاظة له، فذكره في الشعراء ولم يذكره في الأعراف[2].

ب ـ أحرف النفي:

قد نقف على آيات متشابهة تمامًا لا تختلف مفرداتها إلا في أحرف

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٦.

(٢) التعبير القرآني ٣٣٤.

النفي ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥] بالنفي بـ (لن).

وقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٧] بالنفي بـ (لا).

فالكلام في كلتا الآيتين على اليهود ، وعلى الرغم من هذا فقد نفيت الآية الأولى بـ (لن) والثانية بـ (لا) ، فما السبب؟

يرى ابن الزبير أن سبب ذلك هو «أن آية البقرة لما كان الوارد فيها جواباً لحكم أخروي يستقبل ـ وليس في الحال منه إلا زعم مجرد واعتقاد أن الأمر يكون كذلك ـ ناسبه النفي بما وضعه من الحروف لنفي المستقبل ، لأن (لن يفعل) جواب (سيفعل).

ولما كان الوارد في سورة الجمعة جوابًا لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وذلك حكم دنياوي ووصف حالي لا استقبال فيه ، ناسبه النفي بـ (لا) التي لنفي ما يأتي من غير تخصيص إلا بغير الماضي» (١).

ومعنى هذا أن الكلام في آية البقرة على زعم بني إسرائيل أن الجنة لهم في الآخرة ، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ . . .﴾ [البقرة: ٩٤] والآخرة استقبال ، فناسبها النفي بـ (لن) الذي هو خاص بالاستقبال.

وأما الكلام في آية الجمعة فهو عام لا يختص بزمن دون زمن ، لأن الكلام على زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] وهذا الزعم لا يختص بزمن معين فناسبه

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٨٤ ، وينظر معترك الأقران ٣/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

النفي بـ (لا) التي «تنفي الفعل المضارع بكل أزمانه الحال والاستقبال»[(١)].

وقد رأيت كثيرًا من العلماء من ذهب إلى ما ذهب إليه ابن الزبير[(٢)].

ويقول الزمخشري: «إن في (لن) تأكيدًا وتشديدًا ليس في (لا)، فأتى مرة بلفظ التأكيد (لن يتمنوه) ومرة بغير لفظه (ولا يتمنونه)»[(٣)].

وهذا الكلام لا نتبين منه سبب تخصيص كل آية بحرف النفي الذي وردت فيه، بخلاف توجيه ابن الزبير ومن ذهب مذهبه.

وهناك سبب آخر للتخصيص وهو «أنه لما كان الزمن في آية الجمعة عامًّا مطلقًا غير مقيد بزمن نفاه بـ (لا) التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ (لن) التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة»[(٤)].

ج ـ أحرف العطف:

في القرآن الكريم آيات متشابهة تختلف مفرداتها في أحرف العطف، فقد نقف على آيتين متشابهتين في إحداهما الفاء العاطفة وفي الأخرى الواو العاطفة، وقد تمر بنا آيتان متشابهتان يستعمل في إحداهما (ثم)، وفي الأخرى الواو العاطفة، ولا بد أن يكون كل حرف قد جاء في المكان الذي يقتضيه سياق النص. وقبل أن نقف على بعض ما وقف عليه ابن الزبير نبين ما تفيده هذه الأحرف العاطفة.

يقول النحاة: إن الواو لمطلق الجمع، والفاء تفيد الترتيب والتعقيب، و(ثم) تفيد الترتيب والتراخي. يقول الناظم:

---

(١) معاني النحو ١/ ٣٥٥، وينظر مغني اللبيب ١/ ٢٤٤.

(٢) ينظر البرهان للكرماني ٣٢، وتفسير الرازي ٣/ ١٩٢، والبحر المحيط ١/ ٣١١، ومعترك الأقران ٣/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٣) تفسير الكشاف ٣/ ٢٢٩.

(٤) التعبير القرآني ٢٠٢.

فاعطف بواو سابقًا أو لا حقا في الحكم أو مصاحبًا موافقا
والفاء للترتيب باتصال وثم للترتيب بانفصال(١)

ومن الآيات المتشابهة التي اختلفت مفرداتها في أحرف العطف قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

نلاحظ أن آية البقرة قد خصصت بالواو في قوله: (وكلا)، وآية الأعراف بالفاء في قوله: (فكلا). وسبب ذلك عند ابن الزبير أن الوارد في آية البقرة قصد به مجرد الإخبار بما جرى في قصة آدم من ابتداء خلقه وأمر الملائكة بالسجود له وما جرى من امتناع إبليس عن السجود وما أُمر به آدم من سكن الجنة والأكل منها من غير ترتيب زماني أو تحديد غاية فناسبه الواو.

وأما آية الأعراف فقصد بها تعداد نعم الله تعالى على آدم وذريته، فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠]، ثم أتبع به ذكر الخلق والتصوير وأمر الملائكة بالسجود لآدم، ثم قوله لإبليس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] ثم بعد ذلك أمر آدم بالهبوط متبعًا بالتأنيس له ووصية ذريته في قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فناسبه العطف بالفاء المقتضية للترتيب(٢).

وقد ربط الكرماني ما بين معنى قوله: (اسكن) وحرفي العطف فقال: «الذي في البقرة من السكون الذي معناه الإقامة، وذلك يستدعي زمانًا

(١) ينظر شرح ابن عقيل ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧، والجنى الداني ١٢١، ١٨٨، ٤٠٦.
(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٢.

ممتدّاً فلم يصلح إلا بالواو ، لأن المعنى: اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها. ولو كانت الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة ؛ لأن الفاء للتعقيب والترتيب.

والذي في الأعراف من السكنى الذي معناه اتخاذ الموضع مسكنًا. . . فكانت الفاء أولى لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زمانًا ممتدًّا ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه بل يقع الأكل عقيبه» (١).

ويربط الفخر الرازي بين الواو والجنس من جهة ، والفاء والنوع من جهة أخرى ، فمن المعروف أن الواو لمطلق الجمع ، وأما الفاء فإنها تفيد الجمع على سبيل التعقيب ، فإذا قلت: (جاء محمد وخالد) فمن معاني هذه التعبير أن مجيء خالد كان عقب مجيء محمد ، ولكن إذا قلت: (جاء محمد فخالد) فلا يعني إلا أن مجيء خالد كان عقب مجيء محمد ، ومعنى هذا أن معنى الفاء جزء من معاني الواو ، فكأن الواو جنس والفاء نوع منه. يقول الرازي: «إن الواو تفيد الجمع المطلق ، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب ، فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ، ولا منافاة بين النوع والجنس ، ففي سورة البقرة ذكر الجنس وفي سورة الأعراف ذكر النوع» (٢).

وهذا الربط جميل ، ولكن لا يبين لنا سبب تخصيص آية البقرة بذكر الجنس وآية الأعراف بذكر النوع وليس العكس مثلاً.

ويقول البكري (ت ٩٥٥ هـ): «قال في البقرة (وكلا) وفي الأعراف (فكلا) ؛ لأن (اسكن) هنا معناه (استقر) لكون آدم وحوّى كانا في الجنة ، والأكل بجامع الاستقرار غالبًا ، فلهذا عطف بالواو الدالة على الجمع ،

---

(١) البرهان ٢٦.
(٢) تفسير الرازي ١٤/ ٤٥.

والمعنى: اجمعا بين الاستقرار والأكل.

وفي الأعراف معناه (ادخل) لكونهما كانا خارجين عنها، والأكل لا يكون مع الدخول عادة بل عقبه، فلهذا عطف بالفاء الدالة على التعقيب»[١].

ولا أدري ما دليله على أن الله تعالى أخبر في آية البقرة عن آدم وحواء عندما كانا في الجنة فكان معنى اسكن: استقر، ودليله على أنه تعالى أخبر عنهما في آية الأعراف عندما كانا خارجين منها فكان معنى (اسكن): ادخل؟ كما أنه لم يبين لنا لماذا فسّر السكن في آية البقرة بالاستقرار، وفي آية الأعراف بالدخول، ولم يعكس مثلاً؟

وللآيتين توجيه آخر غير ما ذكر يستفاد مما تفيده الواو من مطلق الجمع، وما تفيده الفاء من التعقيب والترتيب، فقد ذكرنا أن الواو أوسع من الفاء، لأن من جملة معانيها معنى الفاء، فالواو صالحة لجميع الأزمان بما فيها معنى الفاء، أما الفاء فتفيد التعقيب، أي أن يقع المعطوف بعد المعطوف عليه مباشرة «فجاء بالواو في سورة البقرة للدلالة على السعة في الاختيار وهو المناسب لمقام التكريم، ألا ترى لو قلت لشخص ما: (ادخل وكل) كان له الحق في أن يأكل متى شاء على حسب رغبته، فمتى أكل كان موافقًا للأمر. ولو قلت: (ادخل فكل) كان عليه أن يأكل في عقب الدخول، ولو تأخر لكان مخالفًا للأمر ويحق لك أن تمنعه منه. فالواو أرحب زماناً من الفاء»[٢]. فوضع كل حرف في المكان الذي هو أنسب له.

* * *

---

(١) تسهيل السبيل (سورة البقرة).

(٢) التعبير القرآني ٢٩٠ ـ ٢٩١.

ومن ذلك قوله تعالى في قصة هود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨].

وقوله في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤].

فقد ورد (ولما) بالواو في هاتين الآيتين.

في حين ورد (فلما) بالفاء في قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦].

وقوله في قصة لوط عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢].

فما سبب هذا التخصيص؟

بيّن ابن الزبير سب التخصيص فقال: إن قوله تعالى: (فلمّا) في قصة صالح مناسب لما قبله من قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ [هود: ٦٥] فتناسبت الفاء العاطفة مع الكلمتين اللتين دخلت عليهما الفاء وهما (فعقروها فقال).

وأما قوله: (فلما) في قصة لوط فقد سبقها قوله: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾، والمعنى يستدعي أن يكون على تقدير (فلما أصبح) تحقيقًا لصدق الوعيد.

وأما قوله: (ولمّا) في قصة هود فهو مناسب لما قبله من قوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾ [هود: ٥٧] فتناسبت هذه الواو العاطفة مع الكلمتين اللتين دخلت عليهما الواو وهما (يستخلف، ولا تضرونه).

وأما قوله: (ولما) في قصة شعيب فهو مناسب لما قبله من قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ... وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ [هود: ٩٣] فتناسبت هذه

الواو العاطفة مع الكلمتين (يا قوم ، وارتقبوا) [1] .

وقد أحسن الكرماني الربط ما بين الفاء وسرعة العذاب ، والواو وتأخر العذاب فقال: إن العذاب في قصة صالح وقصة لوط وقع عقيب الوعيد ، ففي قصة صالح قوله تعالى: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود: ٦٥] ، وفي قصة لوط قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] ، فجاءت الفاء العاطفة في (فلما) للتعجيل والتعقيب.

وأما في قصة هود وشعيب فقد تأخر وقت العذاب عن وقت الوعيد ، ففي قصة هود ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [هود: ٥٧] ، وفي قصة شعيب ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود: ٩٣] فجاءت الواو العاطفة في قوله: (ولما) لتتناسب مع هذا التأخير [2] .

وقد ذهب الكرماني في هذا الرأي إلى ما ذهب إليه الخطيب [3] .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى على لسان فرعون متوعدًا السحرة: ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

وقوله في موطن آخر على لسانه أيضًا: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩].

فقد عطف في الآية الأولى بـ (ثم) وفي الآية الثانية بالواو ، فما السبب؟

يرى ابن الزبير أن سبب مجيء (ثم) في آية الأعراف هو أنه لما تقدم

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥١٨ ـ ٥١٩ .

(٢) ينظر البرهان ٩٨ .

(٣) ينظر درة التنزيل ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

فيها «تهويل الواقع من فعل السحرة وموقعه من نفوس الحاضرين. . . ووقع التعبير عما ذكرنا بقوله: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١) فناسب رعيًا لفظيًا وتقابلاً نظميًا تهويل ما توعدهم به فرعون، فعطف بـ (ثم) لتحرز ما قصد فرعون من تعظيم موقع ما توعدهم به ثانيًا في قوله: (لأصلبنّكم) عليهم» (٢).

ولا أذهب إلى ما ذهب إليه ابن الزبير، لأنني أرى أن عنصر التهويل فيما توعدهم به فرعون مذكور في آيتي طه والشعراء أيضًا، فهو يقول لهم في آية طه: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ويقول لهم في آية الشعراء: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

في حين يقول لهم في آية الأعراف: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٤].

بل إننا نلاحظ أن التهويل في آيتي طه والشعراء أشد منه في آية الأعراف، ففي آية (طه) ذكر ما سيصلبون عليه من جذوع النخل، وذكر اسمي التفضيل (أشد وأبقى) اللتين توحيان بشدة العذاب التي تفوق كل تصوّر.

وفي آية الشعراء نرى أن قوة المواجهة والتحدي أشد منها في آية الأعراف، ففي آية الشعراء قال (ابعث) التي فيها معنى الإثارة والإنهاض والتهييج، وقال (سحّار) وهي صيغة مبالغة تتناسب مع المبالغة في قوة التحدي وشدة المواجهة بين فرعون وموسى، وقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) الآية ١١٦.
(٢) ملاك التأويل ١/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

فأكّد تهديده باللام ، وقال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلم يعطهم مهلة ، وذلك لزيادة غضبه واحتراق قلبه من الغيظ ، في حين قال في الأعراف: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ و(ثم) تفيد التراخي(١).

رابعاً ـ الفروق اللغوية:

قد تمر بنا آيتان متشابهتان فيهما كلمتان تبدوان للوهلة الأولى أنهما مترادفتان ، ولكن إذا تأملنا فيهما رأينا بينهما فرقًا ، وذلك كالفرق بين (انفجرت ، وانبجست) و (إمرًا ، ونكرًا) وغير ذلك من الكلمات.

وقد استعملها القرآن الكريم استعمالاً فنيًّا فريدًا ، فلم يضع الكلمة إلا في المكان الذي يقتضيه سياق النص.

وقد كان لابن الزبير وغيره من العلماء وقفات على كثير من هذه الآيات ، وسنأخذ نماذج منها لنرى رأيه فيها ومدى توفيقه في توجيهاته.

من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله في سورة الأعراف: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فقد خصت آية البقرة بقوله: (انفجرت) ، وآية الأعراف بقوله: (انبجست).

وهناك أكثر من سبب نذكره للتخصيص. ونبدأ برأي ابن الزبير. فهو يرى أن «الانبجاس ابتداء الانفجار ، والانفجار بعده غاية له»(٢) وذكر سبب التخصيص بناء على الفرق الذي ذكره فقال: «إن الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ

---

(١) ينظر التعبير القرآني ٣٢٧ ـ ٣٣٥.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٦٧.

﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ (١) والوارد في البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه ، قال تعالى : ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ (٢) . . . فقيل جواباً لطلبهم : (فانفجرت) وقيل إجابة لطلبه : (فانبجست)» (٣) .

ثم إن الانفجار انصباب الماء بكثرة ، والانبجاس ظهور الماء ، ولما كان الوارد في آية البقرة ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ ناسبه قوله : (فانفجرت) لما فيه من المبالغة في ظهور الماء .

ولما قال في (الأعراف): ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ ولم يذكر الأمر بالشرب كما ذكر في آية البقرة ناسبه قوله : (فانبجست) ، فلم يبالغ في ظهور الماء (٤) .

وهناك سبب ثالث للتخصيص وهو أن السياق في آية البقرة هو سياق تعداد النعم على بني إسرائيل فناسبها قوله : (فانفجرت) ، ولما لم يكن الأمر كذلك في آية الأعراف ناسبها قوله : (فانبجست) (٥) .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

وقوله : ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج : ٢٦] .

---

(١) الآية ١٦٠ .
(٢) الآية ٦٠ .
(٣) ملاك التأويل ١/ ٦٨ ، وينظر معترك الأقران ٣/ ١٠ .
(٤) ينظر البرهان للكرماني ٣٠ .
(٥) ينظر الإتقان ٣/ ٣٤٢ ، ومعترك الأقران ١/ ٨٩ .

فقد خصت آية البقرة بقوله: (العاكفين) وآية الحج بقوله: (القائمين)، وسبب ذلك عند ابن الزبير تقدّم ذكر العكوف في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] فاكتفى بذكر القائمين لئلا يكرر.

ولما لم يذكر العكوف قبل آية البقرة ولا بعدها كان لا بد من الإفصاح بها[١].

وقد ذهب البكري إلى أن «المراد منهما واحد، لكن غاير بينهما لفظًا جريًا على عادة العرب في تفننهم في الكلام»[٢].

وهذا الكلام لا يبين سبب التخصيص، فلو ذكر العاكفين في آية الحج، والقائمين في آية البقرة لانطبق كلامه هذا عليه.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

من المعروف أن الآية الأولى قالها موسى عليه السلام للخضر عندما خرق السفينة، والآية الثانية قالها له عندما قتل الغلام.

والفرق بين (الإمر) و (النكر) أن الإمر هو العجب، والنكر أشد وأعظم من العجب[٣].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٨٩.

(٢) تسهيل السبيل (سورة البقرة).

(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٥٢، وتفسير الطبري ٩/ ٢٨٧، وتفسير الرازي ٢١/ ١٥٦، والبحر المحيط ٦/ ١٤٢، والتحرير والتنوير ١٥/ ١١١.

وقال ابن الزبير مبينًا سبب التخصيص: إن «خرق السفينة لم يبلغ بحيث يتلفها، وإنما قصد به الخضر عيبها ليزهد فيها مريد غصبها، بدليل قوله بعد: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (١) فإنما أراد بقاءها على مالكيها ودفع هذا الغاصب عنها إذا رأى ما بها من العيب المانع من الرغبة فيها، وهذا لا يبلغ ظاهره مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر، فوصف بـ (إمرًا) في قوله: ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ هذا وهو دون النكر.

وأما البادي الظاهر من قتل الغلام عند من يغيب عنه ما عمله الخضر فشيء نكر، ومرتكَب عند من لَحظَه بظاهره وغاب عنه ما في طيّه لشنيع وزره» (٢).

وقد ذهب الفخر الرازي والخطيب الإسكافي هذا المذهب، فقال الرازي: «إن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة، لأن ذلك ما كان إتلافًا للنفس، لأنه كان يمكن أن لا يحصل الغرق. أما ههنا حصل(٣) الإتلاف قطعاً فكان أنكر» (٤).

وقد قيل: إن الإمر أعظم من النكر، بحجة «أن تغريق من في السفينة أنكر من قتل نفس واحدة» (٥).

وقد اعترض الخطيب على هذا الرأي فقال: «ليس كذلك لأن الغرق لم يقع، والقتل قد حصل» (٦).

* * *

---

(١) الآية ٧٩.

(٢) ملاك التأويل ٢/ ٦٥٢.

(٣) كذا في المطبوع، والصواب (فحصل).

(٤) تفسير الرازي ٢١/ ١٥٥، وينظر درة التنزيل ٢٨٤.

(٥) درة التنزيل ٢٨٤.

(٦) درة التنزيل ٢٨٤.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١].

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٧].

فقد خصت الآية الأولى بقوله: (من رسول) والآية الثانية بقوله: (من نبي) فما سبب هذا التخصيص؟

يقول ابن الزبير: «لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية ـ وهي للتكثير ـ ناسب ذلك كله من يوحى إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل، فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام.

أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يُطلَب بالتكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه عليه السلام وتسليته، فخصّت بالتعيين باسم الرسالة تسلية له عن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وبما جرى لرسلٍ قبله عليهم السلام من مثل ذلك. ومن البيّن أن موقع (رسول) هنا أمكن في تسليته عليه السلام، فجاء كل على ما يجب من المناسبة» (١).

ثم إن آية الحجر تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، كما تقدم آية الزخرف قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فناسب الأولى (من رسول) وناسب الأخرى (من نبي) (٢).

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل: ٣٤].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٥٨٤.

(٢) ينظر كشف المعاني ٢٢٢.

وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١].

يرى ابن الزبير أن سبب تخصيص آية النحل بقوله: (ما عملوا) وآية الزمر بقوله: (ما كسبوا) هو أن آية النحل قد سبقها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨]، فقيل بناء على قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ ليحصل التناسب ما بين قولهم والجزاء.

وأما آية الزمر فقد وقع قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٧ ـ ٤٨]، ثم قال: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠] فناسب ذلك أن يقول: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا كسبوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فوضح أنه من المناسب أن يقول: (ما كسبوا)[١].

ثم إن سورة الزمر تردد فيها لفظ (الكسب) خمس مرات[٢]، في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل ألبتة[٣].

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٠٢ ـ ٦٠١.

(٢) تنظر الآيات ٢٤، ٤٨، ٥٠، ٥١ (مرتين).

(٣) ينظر التعبير القرآني ٢٣٨.

وقوله في موطن آخر: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

يذكر ابن الزبير الفرق بين قوله: (بأفواههم) في الآية الأولى، و(بألسنتهم) في الآية الثانية فيقول: إن قوله: (بأفواههم) ينبئ عن مبالغة واستحكام وتمكن في الاعتقاد بصورة لا نجدها في قوله: (بألسنتهم)، ودليل ذلك أن العرب تقول: (تكلّم بملء فيه) حين يريدون المبالغة، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] والمراد المبالغة في منعهم عن الكلام، لأنه إذا ختم على الأفواه امتنعت الألسنة عن النطق(١).

وبيان ذلك «أن الأفواه أعمّ وأشمل من الألسنة، فإن اللسان جزء من الفم، والمناسب إنه إذا كان القول كبيرًا عظيمًا ذُكرت الأفواه، وإذا كان أقل ذُكرت الألسنة مناسبة لكل حالة.

وعلى هذا فقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ يدل على أن القول أعظم وأكبر»(٢).

ثم يبين ابن الزبير سبب تخصيص آية آل عمران بقوله: (بأفواههم) وآية الفتح بقوله: (بألسنتهم) فيقول: إن المراد في آية آل عمران الإخبار عن المنافقين الذين تخلّفوا عن القتال يوم أحد، فقد دُعوا إلى القتال أو الدفاع عن المدينة فامتنعوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقالوا عمّن أكرمه الله بالشهادة في ذلك اليوم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨] فأخبر الله تعالى عنهم بما أضمروه من الكفر فقال: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] فناسب قوله: (بأفواههم) ما انطووا عليه واستحكم في قلوبهم من الكفر(٣).

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٨٠.
(٢) أسئلة بيانية في القرآن الكريم ٤٠.
(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٨٠ ـ ١٨١.

وقد ذكر الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) أن «كل موضع علّق الله تعالى حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب وتنبيه أن الاعتقاد لا يطابقه»(١).
وضرب أمثلة على ذلك منها آية آل عمران ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ ﴾ [الأحزاب: ٤] ، وقوله: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ ﴾ [الكهف: ٥] ، وقوله: ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ٨] ، وقوله: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ ﴾ [المائدة: ٤١] (٢).

وأما آية الفتح فإخبار عن أعراب تخلفوا عن عمرة الحديبية ، فهم لم يذهبوا إلى العمرة مع الرسول عليه الصلاة والسلام متعللين بالشغل ، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ ﴾ [الفتح: ١١] فهؤلاء لم يستقر نفاقهم كالآخرين ، وإنما أخلّ بهم قرب عهدهم بالكفر ، ولذا لم يستقر الإيمان في قلوبهم ، لكن هذا ليس عن نفاق كنفاق الآخرين ، فعن هؤلاء قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ إشعارًا بأن حالهم ليس كحال المنافقين المقصودين في آية آل عمران(٣) ، حيث إن «قول أصحاب أُحُد أكبر وأعظم وموقفهم أخطر وأكبر فناسبه أن يذكر فيهم ما هو أكبر وهو الأفواه ، وناسب ذكر الألسنة في آية الفتح»(٤).

* * *

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٩٠.
(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٠٢ ـ ٦٠١.
(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٨٠ ـ ١٨١.
(٤) أسئلة بيانية في القرآن الكريم ٤١.



الفصل الثالث

دراســة التركيب

يتناول هذا الفصل التركيب في الآي المتشابه من خلال كتاب الملاك ، وسيكون في أربعة مباحث: أما المبحث الأول فسيكون للتقديم والتأخير ، وأما المبحث الثاني فهو الذكر والحذف ، والثالث التأكيد ، وأما الرابع وهو الأخير فهو التكرار في الآيات القرآنية المتشابهة.



المبحث الأول
التقـديـم والتـأخـير

في القرآن الكريم آيات متشابهة تختلف مفرداتها من حيث التقديم والتأخير ، ففي موطن يتقدم الفعل على الفاعل ، وفي موطن آخر يتقدم الفاعل على فعله ، وقد يأتي المبتدأ متقدمًا على خبره ، وفي موطن آخر يرد متأخراً عنه ، وقد تتقدم الأخبار بعضها على بعض ، إلى غير ذلك من أوجه التقديم والتأخير كما سنرى ذلك.

وقبل أن نقف على هذه الآيات ونعرف سبب التقديم والتأخير فيها نريد أن نعرف رأي العلماء في مراتب الكلام.

يقول النحاة: إن الأصل في الجملة الاسمية أن يتقدم المبتدأ على

الخبر. جاء في (تسهيل الفوائد): «والأصل تأخير الخبر، ويجوز تقديمه إن لم يوهم ابتدائية الخبر أو...» [١].

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «إنما كان أصل المبتدأ التقديم لأنه محكوم عليه ولا بد من وجوده قبل الحكم، فقصد في اللفظ أيضاً أن يكون ذكره قبل ذكر الحكم عليه» [٢]. ويقول الناظم:

والأصل في الأخبار أن تؤخرا وجوّزوا التقديم إذ لا ضررا [٣]

ومعنى ما سبق أننا إذا قلنا: (محمد خطيب) فقد جرينا على الأصل ولا نبحث عن سبب تقديم (محمد) لأنه مبتدأ ورتبته التقديم. أما إذا قلنا: (خطيب محمد) فقد خرجنا عن الأصل، وفي هذه الحالة نبحث عن سبب التقديم لأن رتبة الخبر التأخير ولا يتقدم إلا لغرض.

ويذكر النحاة أن الأصل في الجملة الفعلية أن يتقدم الفعل على الفاعل، تقول: (يخطب محمد) فتكون قد جريت على الأصل، فإذا قلت: (محمد يخطب) فقد صارت الجملة اسمية ودخلت باب التقديم والتأخير. ففي الجملة الأولى لا نسأل عن سبب تقديم الفعل لأنه هو الأحق بالتقديم، أما في الجملة الثانية فمن حقنا أن نسأل عن سبب تقديم (محمد) على (يخطب). جاء في (شرح الكافية الشافية): «الفعل والفاعل كجزأي كلمة فلا يجوز أن يتقدم الفاعل على الفعل مع بقاء فاعليته» [٤].

وجاء في (شرح ابن عقيل): «الأصل أن يلي الفاعل الفعل من غير أن يفصل بينه وبين الفعل فاصل» [٥].

---

(١) تسهيل الفوائد ٤٦.

(٢) شرح الرضي على الكافية ١/ ٨٨.

(٣) ينظر حاشية الصبان ١/ ٢٠٨، وحاشية الخضري ١/ ١٠٠.

(٤) شرح الكافية الشافية ٢/ ٥٨٠.

(٥) شرح ابن عقيل ١/ ٤٨٤.

ويقولون: إن المبتدأ والخبر طرفا إسناد، وكذلك الفعل والفاعل، وطرفا الإسناد عمدة، فإذا وردت معهما فضلة فمن حق طرفي الإسناد أن يتقدما عليها، لأن العمدة تتقدم على الفضلة.

جاء في (شرح المفصّل): «وجب تأخير المفعول من حيث كان فضلة لا يتوقف الكلام على وجوده، فإذاً رتبة الفعل يجب أن يكون أولاً، ورتبة الفاعل أن يكون بعده، ورتبة المفعول أن يكون آخرًا» [(١)].

وجاء في (شرح الكافية الشافية) أن الأصل في المفعول «إذا ذكر أن يفصل بالفاعل» [(٢)].

ويقول الناظم:

والأصل في الفاعل أن يتصلا والأصل في المفعول أن ينفصلا [(٣)]

هذا هو الأصل، فعندما نقول: (ضرب زيدٌ عمرًا) فقد جريت على الأصل لأنك أخّرت الفضلة وهي كلمة (عمرًا) ولا نسأل عن سبب تقديم (زيد) على (عمرو) لأن هذا هو الأصل.

ولكن إذا قلت: (ضرب عمرًا زيدٌ) أو (عمرًا ضرب زيدٌ) فقد خرجت عن الأصل ودخلت باب التقديم والتأخير. يقول الناظم:

وقد يجاء بخلاف الأصل وقد يجي المفعول قبل الفعل [(٤)]

والفضلة مصطلح يطلق على كل ما ليس بعمدة، فهي تشمل المفاعيل والظروف والأحوال وغيرها.

وقد لخص الزركشي مراتب الكلام فقال: «فإن مرتبة العمدة قبل مرتبة

---

(١) شرح المفصل ١/ ٧٦.

(٢) شرح الكافية الشافية ٢/ ٥٨٤.

(٣) ينظر شرح ابن عقيل ١/ ٤٨٤.

(٤) ينظر شرح ابن عقيل ١/ ٤٨٤.

الفضلة ، ومرتبة المبتدأ قبل مرتبة الخبر ، ومرتبة ما يصل الفعل إليه بنفسه قبل ما يصل إليه بحرف الجر ـ وإن كانا فضلتين ـ ومرتبة المفعول الأول قبل مرتبة المفعول الثاني» (١).

بعد هذه المقدمة التي ذكرتها لبيان مراتب الكلام نقف على الغرض من التقديم. يقول سيبويه: إن العرب «إنما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعًا يهمّانهم ويعنيانهم» (٢).

ويقول الخطيب القزويني وهو يتكلم على معمولات الفعل: «ويقدّم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل على من وقع عليه لا وقوعه ممن وقع منه. . . ويقدّم الفاعل على المفعول إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل ممن وقع منه لا وقوعه على من وقع عليه» (٣).

وقد سبقه إلى هذا الرأي عبد القاهر الجرجاني (٤).

ولا يكفي أن نقول: قدّم هذا لأنه أهم دون أن نبيّن وجه الأهمية. يقول عبد القاهر الجرجاني: «وقد وقع في ظنون الناس أن يكفي أن يقال إنه قدّم للعناية ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية وبم كان أهم؟ ولتخيّلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوّنوا الخطب فيه ، حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربًا من التكلف ، ولم ترَ ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه» (٥).

بعد هذه المقدمة نعود إلى القرآن الكريم لنقف على آيات خرجت عن الأصل في تقديم الخبر على المبتدأ، وأما نظائرها فقد وردت على الأصل.

---

(١) البرهان ١/ ٣١٠.
(٢) الكتاب ١/ ١٥.
(٣) ينظر الإيضاح ١/ ١١٣.
(٤) ينظر دلائل الإعجاز ٨٠ ـ ٨١.
(٥) دلائل الإعجاز ٨١.

وهناك آيات أخرى وردت على الأصل في تقديم الفعل على الفاعل ، في حين خرجت عن الأصل في الآيات المشابهة لها فقدّم فيها الفاعل على فعله فصار مبتدأً ، أو بتعبير آخر قدّم فيها المسند إليه على المسند.

وهناك آيات أخرى أخّرت فيها الفضلات عن العمد في مواطن فجاءت على الأصل ، وفي مواطن أخرى قدّمت على العمد فخرجن عن الأصل.

أو أن يكون التقديم والتأخير بين الفضلات أنفسها ، إلى غير ذلك من أوجه التقديم والتأخير.

ويهمنا من الآيات ما وقف عليها ابن الزبير في الملاك لنرى رأيه في التقديم والتأخير.

أولاً ـ التقديم والتأخير في المبتدأ والخبر:

وذلك بأن يقدّم المبتدأ على الخبر في موطن ويؤخر عنه في موطن آخر شبيه به، من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦].

نلاحظ في هاتين الآيتين أن الآية الأولى جاءت على الأصل في تقديم المبتدأ على الخبر بخلاف الآية الثانية. وقبل أن نقف على سبب ذلك نبيّن سبب تقديم الظرف[(١)].

يقول علماء البلاغة: إن أهم غرض من أغراض تقديم الظرف هو الاختصاص والحصر.

يقول يحيى العلوي (ت ٧٤٥ هـ) في كلامه على تقديم الظرف: إن الظرف قد «يكون واردًا دلالةً على الاختصاص، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [(٢)] لأن المعنى أن الله مختص بصيرورة الأمر إليه دون

(١) يقصد به شبه الجملة.

(٢) الشورى ٥٣.

غيره. ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2] فهذه الظروف لا وجه لتقديمها على عاملها إلا ما ذكرناه من الاختصاص» [3].

ويقول الزركشي: «لا تختص إفادة الحصر بتقديم ضمير المبتدأ، بل هو كذلك إذا تقدم الفاعل أو المفعول أو الجار والمجرور المتعلقات بالفعل» [4].

وقد ذهبا في هذا إلى ما ذهب إليه باقي علماء البلاغة كالخطيب القزويني وغيره[5].

بعد أن عرفنا الغرض من تقديم الجار والمجرور نعود إلى آيتي الفاتحة والجاثية لنرى سبب تقديم الجار والمجرور في آية الجاثية دون آية الفاتحة.

يقول ابن الزبير: «إن قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ ورد على تقدير الجواب بعد إرغام المكذِّب وقهره ووقوع الأمر مطابقاً لإخبار الرسل عليهم السلام وظهور ما كذّب الجاحد به، فعند وضوح الأمر كأنه قد قيل: لمن الحمد ومن أهله؟ فجاء الجواب على ذلك فقيل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾... ولما كان الوارد في أم القرآن خطابًا للمؤمنين وتعليمًا للمستجيبين مجردًا عما قصد في آية الجاثية من توبيخ المكذبين ورد على ما تقدم من الاكتفاء» [6]. وقد تابعه في هذا الرأي الزركشي[7].

---

(١) الغاشية ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) التغابن ١.

(٣) الطراز ٢/ ٧٠ ـ ٧١.

(٤) البرهان ٢/ ٤١٤.

(٥) ينظر الإيضاح ١/ ١١١، والمثل السائر ٢/ ٢١٧.

(٦) ملاك التأويل ١/ ١١ ـ ١٣.

(٧) ينظر البرهان ٣/ ٢٨٤.

ثم إن عبارة ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ فيها اختصاص وقصر ، وقد اقتضى المقام في آية الجاثية تقديم الذات المستحقة للحمد ، فقد ذكرت هذه السورة أصنافاً من الكفار وفصلت القول في ذكر عقائدهم ومعبوداتهم ، فقد ذكرت هذه السورة أنهم اتخذوا من دون الله أولياء ، قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [الجاثية: ١٠] ، وأنهم اتخذوا الهوى إلهًا لهم ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] ، وأنهم نسبوا الحياة والموت إلى الدهر لا إلى الله فقالوا: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فلم يعترفوا لله بشيء من خصائص الربوبية والألوهية ولم يقروا له بفضل على إنسان ، ولهذا قدّم الذات الإلهية وقصر الحمد عليه ، لأن المقام يقتضي ذاك. أما سورة الفاتحة فليس فيها شيء من ذاك[1] .

والسبب الآخر أن جل التعبيرات في سورة الجاثية جرت على طريقة الحصر ، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٩] ، وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] ، و ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠] ، و ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١] ، و ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥] ، و ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] ، و ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، و ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠] وغيرها من الآيات[2] .

وأقول إن سبب ورود آية الفاتحة على الأصل أنها جاءت أول آية بعد البسملة فلم يكن هناك ما يستدعي مجيئها على خلاف الأصل. وقد لاحظت أن جميع السور التي افتتحت بالحمدلة تأتي فيها عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الأصل ، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] ، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] ،

---

(١) ينظر لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) ينظر لمسات بيانية ٢١ ـ ٢٢ .

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] وسبب ذلك أنه ليس هناك ما يستدعي تأخير المبتدأ على الخبر.

ثانياً ـ تقديم الأخبار بعضها على بعض:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

نلاحظ في الآية الأولى تقديم قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وفي الآية الثانية بالعكس، فما سبب ذلك؟

يرى ابن الزبير وغيره من العلماء أن سبب ذلك هو أن آية الأنعام قد سبقها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فناسبها أن يتقدم نفي الألوهية عن غير الله سبحانه على الخلق، أي أن تتقدم كلمة التوحيد النافية للشرك ردًّا عليهم، ثم ذكر الخلق.

أما آية غافر فقد تقدمها ذكر الخلق وذلك في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ثم في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] فناسبها تقديم الخلق على التوحيد(١).

وقد لاحظنا من خلال هذا التوجيه التناسب ما بين نفي الشريك والولد عن الله وبين تقديم انفراد الله سبحانه بالألوهية على الخلق في آية الأنعام.

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢، ودرة التنزيل ١٢٧، والبرهان للكرماني ٦٧، وكشف المعاني ١٦٤ ـ ١٦٥.

والتناسب ما بين جعل الليل سكنًا والنهار مبصرًا ـ وهو من خلق الله ـ وبين تقديم الإخبار بالخلق على الإخبار بإفراد الله بالعبودية في آية غافر .

ثالثاً ـ التقديم والتأخير في الفعل والفاعل:

ومن أمثلته قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم ﴾ [الحديد : ١٢] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ [التحريم : ٨] .

نلاحظ أنه قال في آية الحديد : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ على الأصل ، في حين قال في التحريم : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ ﴾ على خلاف الأصل ، فما سبب ذلك؟

يرى ابن الزبير أنه أتى في آية الحديد بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث والتجدد لأنه لم يذكر المؤمنين مع نبيهم ، أما في آية التحريم فقد أتى بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت لأنه ذكر المؤمنين مع نبيهم في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ ، فالمنزلة في آية التحريم أعلى منها في آية الحديد(١) .

ويفهم من رأيه هذا أنه ذهب مذهب من يرى أن الجملة الاسمية التي خبرها فعل تفيد الثبوت(٢) .

وهناك من يرى أن الجملة الاسمية التي خبرها فعل تفيد التجدد والحدوث كالجملة الفعلية . جاء في (دلائل الإعجاز) في بيان الفرق بين الإخبار إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل : «وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء . . . وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك ، فإذا قلت : (زيد ها هو ذا ينطلق) فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا وجعلته يزاوله

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٩٣ .

(٢) ينظر الإيضاح ١/ ٩٩ ، وحاشية الخضري ١/ ١٠٢ .

ويزجيه. . . ومتى اعتبرت الحال في الصفات المشبهة وجدت الفرق ظاهرًا بيّنًا ولم يعترضك الشك في أن أحدهما لا يصلح في موضوع صاحبه. فإذا قلت: (زيد طويل وعمرو قصير) لم يصلح مكانه (يطول ويقصر)، وإنما تقول: (يطول ويقصر) إذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو كالشجر والنبات والصبي ونحو ذلك مما يتجدد فيه الطول أو يحدث فيه القصر. فأما وأنت تحدّث عن هيئة ثابتة وعن شيء قد استقر طوله ولم يكن ثم تزايد وتجدد فلا يصلح فيه إلا الاسم»[1].

ويفهم من فحوى كلامه هذا أن الجملة الاسمية التي خبرها فعل تفيد الحدوث والتجدد كما يظهر ذلك من الأمثلة التي ذكرها.

وقد ذهب بعض العلماء هذا المذهب كالزركشي وأبي البقاء (ت ١٠٩٤ هـ) وغيرهما[2].

ويبدو لي أن الرأي الثاني هو الرأي الراجح، فالجملتان (يخطب زيد) و(زيد يخطب) كلتاهما تدلان على الحدوث، وإنما قدّم المسند إليه على المسند في الجملة الثانية لغرض من أغراض التقديم[3].

ثم إنه لو كانت الجملة التي مسندها فعل تدل على الثبوت ما كان هناك فرق بين قولنا: (محمد منطلق) و (محمد ينطلق) و (محمد انطلق) إذ سيفهم حينئذ أن كل هذه الجمل اسمية تدل على الثبوت.

وبهذا فقد تبين أن الرأي الثاني هو الرأي الراجح. أما من حيث التوجيه فلا اعتراض على ما ذهب إليه ابن الزبير.

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) ينظر البرهان ٤/ ٦٦ ـ ٦٧، والكليات ٢/ ١٥٣، وحاشية الخضري ١/ ١٠٢.

(٣) ينظر معاني النحو ١/ ١٦.

رابعاً ـ التقديم والتأخير بين الفاعل والجار والمجرور:

ذكرت أن الفعل والفاعل طرفا إسناد ، والجار والمجرور فضلة ، ومن حق طرفي الإسناد أن يتقدّما على الفضلة لأنهما عمدة ، والعمدة تتقدم على الفضلة ، فإذا تقدّما عليها فقد جاءت الجملة على الأصل ، وإذا تقدمت الفضلة عليهما فقد خرجت عن الأصل.

والغرض من تقديم الجار والمجرور على غير عامله العناية والاهتمام، فما قدّمته يكون أهم مما أخرته. يقول سيبويه: إن العرب «إنما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم»[1]. وهذا في عموم التقديم ، فما يقدّم يكون أهم وأعنى «وتتدرج العناية والاهتمام مع الكلمات تدرجًا تنازليًّا. . . فقولك: (ذهب إلى المسجد خالد) يفيد أن العناية بالجار أكثر من قولك: (ذهب خالد إلى المسجد)»[2].

ولا يفهم من هذا الكلام أن تقديم الجار والمجرور على غير العامل أبلغ من تأخيره عنه ، وإنما الذي يحدد ذلك سياق النص ، فقد يقتضي المقام في مكان أن تأتي بالجملة على الأصل ، وقد يقتضي المقام في مكان آخر أن تأتي بالجملة على غير الأصل. والذي يحدد ذلك سياق النص ، وخير مثال على ذلك الاستعمال القرآني.

ونريد أن نقف على بعض الآيات القرآنية التي وقف عليها ابن الزبير لنرى هذا النوع من التقديم والتأخير فيها.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فقد تقدم الفاعل (قلوبكم) على الجار والمجرور (به) في هذه الآية فجاءت على الأصل.

---

(١) الكتاب ١/ ١٥.

(٢) معاني النحو ٣/ ١٠٥.

في حين خرج عن الأصل في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠] حيث تقدم الجار والمجرور (به) على الفاعل (قلوبكم).

يقول ابن الزبير: إن سبب تقديم (قلوبكم) على (به) في آية آل عمران «اعتناءً وبشارةً ليمتاز أهلها ممن ليس لهم فيها نصيب»(١). ولم يبين سبب تأخيره عنه في آية الأنفال.

أما الخطيب الإسكافي فقد وجّه آية آل عمران توجيهًا لفظيًّا، ووجّه آية الأنفال توجيهًا معنويًّا، فذكر أن تأخير (به) على (قلوبكم) في آية آل عمران مناسب لتأخير (لكم) على (بشرى).

أما آية الأنفال فإن الكلام فيها على الإمداد بالملائكة في موقعة بدر، قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] فهذا الإمداد هو الذي لم يجعله الله إلا بشرى للمؤمنين، والضمير في (به) يعود عليه، ولذا قدم (به) على (قلوبكم) لأنه أولى بالتقديم من القلوب(٢).

ولآية آل عمران توجيه معنوي غير ما ذكر، وهو أن في «آل عمران ذكر معركة بدر تمهيدًا لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن، والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠] إلى غير ذلك من آيات المواساة والتصبير، فقال في هذا الموطن: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ ﴾ فذكر أن البشرى لهم، وقدّم

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٧٠.

(٢) ينظر درة التنزيل ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(قلوبهم) على الإمداد بالملائكة فقال: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة»(١).

ويقول أبو حيان: إنه قدّم هنا «وأخّر هناك على سبيل التفنّن والاتساع في الكلام»(٢). وهذا الكلام صحيح غير أنه لا يبيّن لنا سبب التخصيص، إذ لو أخّر ما قدّم وقدّم ما أخّر لكان أيضاً على سبيل التفنّن والاتّساع.

❋ ❋ ❋

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠].

ففي الآية الأولى قدّم الفاعل (رجل) على ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، وأخّر عنه في الآية الثانية. وسبب ذلك عند ابن الزبير أن آية القصص جاءت على الأصل لأنه ليس هناك ما يستدعي مجيئها على غير الأصل.

أما آية يس فقد قصد فيها «من بعُدَ مسافةً عن داعيه إلى الهداية فلم يضره بُعدُ الدار، وكفر من باشر الرسل وشافههم فلم ينتفع بقرب الدار»(٣). أي أن بيان المسافة التي جاء منها الرجل هو الأهم في هذا الموطن ولهذا قدّم.

ويذكر الخطيب الإسكافي أن الغرض من تقديم الجار والمجرور على الفاعل في آية (يس) هو أن يعرف المخاطب أن الرجل «جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية، وحيث لا يقرب من مجاري القصة ولا يحضر موضع الدعوة ومشهد المعجزة، فقدّم ما تبكيت القوم به أعظم والتعجب منه أكثر فقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ ينصح لهم

---

(١) التعبير القرآني ٧١.
(٢) البحر المحيط ٤/٤٦٦.
(٣) ملاك التأويل ٢/٧٥٧.

ما لا ينصحون مثله لأنفسهم ، ولا ينصح لهم أقربوهم ، مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه ، ولم يشهد من كلام الأنبياء ما يشهدونه

وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورًا لمكانه، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به» [1] .

ويحتمل أن يكون معنى الآية أن مسكن الرجل كان في أقصى المدينة .

«ونحو هذا أن تقول : (قدم من القرية رجل) و (قدم رجل من القرية) ، فمعنى الأول أن قدومه كان من القرية ، وأما الثانية فتحتمل هذا المعنى ، وتحتمل أن الرجل قروي ، أي هو من أهل القرية وربما لم يكن قدومه هذا من القرية» [2] .

* * *

خامساً ـ التقديم والتأخير بين الحال والجار والمجرور:

من المعلوم أن الحال والجار والمجرور كليهما فضلة ، وما يقدّم منها هو أهم وأعنى ، وهناك آيات قدم فيها الحال على الجار والمجرور ، وآيات أخرى أخّر عنها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٤] .

وقوله : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر : ١٢] .

يبين ابن الزبير سبب تقديم (مواخر) على (فيه) في آية النحل وتأخيره عنه في آية فاطر فيقول : إن آية النحل بنيت على تأخير المجرورات على

---

(١) درة التنزيل ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

(٢) معاني النحو ٣/ ١٠٤ .

ما بها تعلقت كقوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ﴾ ، ﴿تَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ﴾ ، ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فناسب ذلك تأخير (فيه) على (مواخر).

أما آية فاطر فقد بنيت على تقديم المجرورات على ما بها تعلقت كقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فناسب ذلك تقديم (فيه) على (مواخر)[1].

ثم إن آية النحل قد سبقها الكلام على وسائط النقل، حيث ذكر الأنعام التي تحمل الأثقال وذكر الخيل والبغال والحمير في قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ... ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٧ ـ ٨] ثم ذكر الفلك في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وهي واسطة نقل أيضاً، فقدّم (مواخر) لأنها من صفات الفلك، وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل.

أما آية فاطر فالكلام فيها على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢] فلما كان الكلام على البحر قدّم ضمير البحر على المخر فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.

فانظر كيف أنه لما كان الكلام في آية النحل على وسائط النقل والفلك قدّم حالة الفلك، ولما كان الكلام في آية فاطر على البحر ذكر ما يتعلق به[2].

* * *

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٩٧.

(٢) ينظر التعبير القرآني ٦٨.

سادساً ـ التقديم والتأخير بين جار ومجرور وجار ومجرور آخر:

قد تكون كلتا الفضلتين جارًّا ومجرورًا ويكون التقديم والتأخير بينهما نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [النحل: ١١٥].

فقد تقدّم (به) على (لغير الله) في آية البقرة دون باقي الآيات. وسبب ذلك عند ابن الزبير أن في آية البقرة تخصيص ما حرّم عليهم بكلمة (إنّما) المقتضية للحصر «فلما تحصّل في هذه الآية ما أشير إليه من تأكيد هذا المحرّم ما ليس في الآي الأخر ناسبه تقديم المضمر المجرور في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ليكون الكلام بتقديم المجرور في قوة أنْ لو قيل: إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير والمُهَلّ به لغير الله... أما الآي الأخر فليس فيها ما في هذه، فتأخر الضمير المجرور إلى محله الذي هو موضعه»(١).

وأقول: إذا كان ابن الزبير يرى أن سبب تقديم الجار والمجرور (به) على (لغير الله) في آية البقرة هو تخصيصها بكلمة (إنما) المفيدة للحصر

---

(١) ملاك التأويل ١/١٠٧ ـ ١٠٨.

فإن آية النحل قد تقدّمها (إنما) المقتضية للحصر أيضًا ، فلماذا ورد (به) بعد (لغير الله)؟

وهناك سبب آخر للتقديم والتأخير وهو «أن المقام في آية الأنعام كان في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرّعون للناس باسم الله وهم يفترون عليه فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ . . . وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٣٦ ـ ١٣٨] إلى غير ذلك من الآيات التي تبيّن أن ثمة ذوات غير الله تحلّل وتحرّم مفترية على الله ، وذوات يزعمون أنها شركاء لله تُعبَد معه ونصيبها أكبر من نصيب الله في العبادة. ولذا قدّم إبطال هذه المعبودات من غير الله على (به) فقال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ﴾ لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.

والكلام في المائدة أيضاً على التحليل والتحريم ومَن بيده ذلك ورفض أية جهة تحلّل وتحرّم من غير الله ، فإن الله يحكم ما يريد. قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ . . . ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ . . . ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ . . . ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ ﴿٤﴾﴾ .

فهو يجعل التحليل والتحريم بيده ويرفض أية جهة أخرى تقوم بذلك ؛ لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام ، ولذا قدّمه في البطلان فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾» (١) .

---

(١) معاني النحو ٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨ .

وأقول: إن الكلام في النحل أيضًا على التحليل والتحريم ورفض أية جهة أخرى تحلّل وتحرّم من غير الله ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . . . ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ . . . ﴿١١٦﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ . . . ﴿١١٨﴾﴾ .

فالله تعالى ينهى المؤمنين عن أن يحلّلوا ويحرّموا بمشيئتهم ؛ لأن أمر التحليل والتحريم بيد الله وحده ، وعندما يحلّل العبد ويحرّم مع الله فهذا من الشرك ، ولذا قدّمه في البطلان كما فعل في آيتي الأنعام والمائدة فقال: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ .

مما سبق تبين لنا أن الذي سوّغ تقديم (لغير الله) على (به) أمر مشترك بين الآيات الثلاث وهي قضية التحليل والتحريم .

«وأما في آية البقرة فليس المقام كذلك ، فلم يذكر أن ثمة جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحريم ، وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴿١٦٨﴾﴾ ، وقال بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ .

فلما كان المقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات قدّم (به) ، والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبةً للمقام والله أعلم» [1] .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] .

---

(١) معاني النحو ٣/١٠٨ .

وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٨].

فقدّم (بالقسط) على (لله) في آية النساء، وقدم (لله) على (بالقسط) في آية المائدة.

يرى ابن الزبير أن الآيات المتصلة بآية النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقوله: ﴿ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء: ١٢٧] فقدّم قوله: (بالقسط) ليناسب ما ذكر.

«وأما آية المائدة فثبت قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذّكر نعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه، فناسب قوله: ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ ثم أُتبع بما بني على ذلك من الشهادة بالقسط» [(١)].

وقد ذهب البقاعي والبكري في توجيههما آية النساء إلى ما ذهب إليه ابن الزبير[(٢)].

ويعلل البكري سبب تقديم قوله: ﴿ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ في آية المائدة فيقول: إنها جاء مقدمة «لكون الآية ثَمَّ في الولاة بدليل قوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ... ﴾[(٣)] الآية، أي كونوا أيها الولاة قوّامين في أحكامكم لله لا للنفع»[(٤)].

ولا نتبين سبب التخصيص من قول أبي حيان في هاتين الآيتين: «وهذا

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٢١.
(٢) ينظر نظم الدرر ٣/ ٤٣١، وتسهيل السبيل (سورة النساء).
(٣) الآية ٨.
(٤) تسهيل السبيل (سورة النساء).

من التوسع في الكلام والتفنن في الفصاحة»[1] ، بخلاف توجيه ابن الزبير ومن ذهب مذهبه .

فقد سبق آية النساء التي ذكرها آيات عديدة فيها الأمر بالقسط وعدم الظلم نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] أي : لا ينقصون من أعمالهم ولو كان شيئًا حقيرًا ، وهذا منتهى العدل ، وقال : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ ﴾ [النساء: ١٢٩] وهذا أمر بالعدل بين النساء ، إضافة إلى الآيات التي ذكرها ابن الزبير .

* * *

سابعاً ـ التقديم والتأخير بين المفعول به والتأكيد:

فقد يتقدم المفعول به على التأكيد في موطن ، ويتأخر عنه في موطن آخر ، كل ذلك بصورة فنية . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨١ ـ ٨٣] بتقديم (نحن وآباؤنا) على المفعول به (هذا) .

وبتأخيره عنه في قوله في آية النمل : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل: ٦٧ ـ ٦٨] .

يرى ابن الزبير أن سبب ذلك هو أن آية المؤمنون قد تقدمها ذكر إنذار الرسل آباءهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٤٤٠ .

﴿ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] فناسب ذلك تقديم الآباء على الموعود في قوله: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾.

«ولما لم يتقدم في آية النمل ذكر إنذار آبائهم كان أهمّ شيء يذكر الموعود الذي هو (هذا) فقالوا: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا﴾»[1].

ويوجههما الخطيب القزويني توجيهاً آخر فيقول: إن ما قبل آية النمل قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، وما قبل آية المؤمنون قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [المؤمنون ٨٢] «فالجهة المنظور فيها هناك كونهم أنفسهم وآباؤهم ترابًا، والجهة المنظور فيها هنا كونهم ترابًا وعظامًا، ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد البعث»[2]. وقد ذكر الزركشي نص القزويني في كتابه (البرهان) ولم ينسبه إلى أحد[3].

وبيّن الدكتور فاضل السامرائي سبب كون آية النمل أدخل عندهم في تبعيد البعث فيقول: «وذلك أن البلى في الحالة الأولى أكثر وأشد، وذلك أنهم أصبحوا ترابًا مع آبائهم.

أما في الآية الثانية فالبلى أقل، وذلك أنهم تراب وعظام، فلم يصبهم ما أصاب الأولين من البلى، ولذا قدّم (هذا) في الآية الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتبعيد»[4].

* * *

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٣٦.
(٢) الإيضاح ١/ ١١٦.
(٣) ينظر البرهان ٣/ ٢٨٤.
(٤) التعبير القرآني ٦٦.

ثامناً ـ التقديم والتأخير بين الاسمين والفعلين المتعاطفين:

إن ما يقدم من الكلمتين المتعاطفتين أو الكلمات المتعاطفة يكون للعناية والاهتمام أيضًا. فإذا كان هناك اسمان أو فعلان متعاطفان، أو أسماء أو أفعال متعاطفة، فما يقدّم منها يكون له الاهتمام الأكبر(١).

ونبدأ بالكلام على الآيات المتشابهة التي ذكر فيها اسمان متعاطفان قدّم أحدهما على الآخر في موطن وأخّر عنه في موطن آخر، ويهمنا من هذه الآيات ما وقف عليها ابن الزبير، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

ففي آية البقرة قدّم كلمة (النصارى) على (الصابئين)، في حين أخرها عنها في آية المائدة. وسبب تأخير الصابئين في آية البقرة عند ابن الزبير أنهم ليسوا أهل كتاب، بخلاف باقي الأصناف فإنهم استحقوا التقديم على (الصابئين) لأنهم أهل كتاب. «ثم قدم ذكر الصابين(٢) في سورة المائدة زيادة بيان للغرض المذكور من أنه لا ترتيب في الغاية الأخراوية إلا بنظر آخر، لا بحسب الدنياوي والاشتراك فيما قبل الموافاة، بل المستجيب المؤمن من الكل مخلَّص والمكذّب متورط، ثم مراتب الجزاء بحسب الأعمال»(٣).

ثم يقول: إنه لم يقدم ذكر الصابئين على الباقين لمكانة المؤمنين

---

(١) ينظر الجملة العربية تأليفها وأقسامها ٤٥.

(٢) أي الصابئين.

(٣) ملاك التأويل ١/ ٧٦.

وشرفهم ، ولم يقدم ذكرهم على اليهود لأن اليهود كان يفترض أن يكونوا أول المستجيبين ، ولأنه ذكر فيهم عدة آيات ، وذلك مما يوجب تقديم ذكرهم على المؤمنين ، أما النصارى فهم «أقرب إلى الصابين من حيث التثليث وسوء نظرهم في ذلك وقصورهم. ثم إنهم لم يجرِ لهم ذكر فيما تقدم هذه الآية بخلاف يهود ، فإن من هذه الجهة تقديم يهود عليهم ، وإن كان يهود شر الطائفتين» [1].

لقد بيّن ابن الزبير سبب تأخير ذكر الصابئين عن باقي الطوائف في آية البقرة بيانًا واضحًا ، أما سبب تقديم ذكرهم على النصارى في آية المائدة فلا يزال فيه غموض.

ويقول الخطيب الإسكافي: إن الله تعالى رتّب الطوائف في آية البقرة «على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة ، ثم أتى بذكر الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة ولا كتاب لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ [2] فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب. وأما بعد هذا الترتيب فترتيبهم في سورة المائدة. . . ترتيب ثان ، فالأول على ترتيب الكتب ، والثاني على ترتيب الأزمنة ، لأن (الصابئين) وإن كانوا متأخرين على (النصارى) بأنهم لا كتاب لهم ، فإنهم مقدمون عليهم بكونهم قبلهم لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام» [3].

ولي ملاحظتان على كلام الإسكافي:

الملاحظة الأولى: يقول: إن الله تعالى رتّب الطوائف في آية البقرة على ما رتّبهم عليه في بعثة الرسالة ، والواضح أنه افتتح بذكر الذين آمنوا

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) الأنعام ١٥٦.

(٣) درة التنزيل ٢١.

وجعلهم أول الطوائف ، والمراد بالذين آمنوا هم المؤمنون بالنبي محمد ﷺ كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين[1] ، ورسالته آخر الرسالات وهو خاتم النبيين.

والملاحظة الثانية: يقول: إن ترتيب ذكرهم في آية البقرة على حسب ترتيب الكتب ، وفي آية المائدة على حسب ترتيب الأزمنة ، ولم يبين سبب ذلك ، فقوله هذا قد يثير سؤالاً وهو: لماذا كان ترتيب ذكرهم في آية البقرة على حسب ترتيب الكتب وفي آية المائدة على حسب ترتيب الأزمنة ولم يكن العكس مثلاً؟

ويذكر الدكتور فاضل السامرائي أن الكلام فيما بعد آية المائدة على «ذم عقيدة النصارى وتسفيه عقيدة التثليث ، فكأن النصارى لم يؤمنوا بالله حقًّا ، وإنما هم من صنف المشركين. ويبدأ الكلام عليهم بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ... ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٥] فقدم الصابئين عليهم وهو المناسب للمقام.

وليس نحو هذا موجوداً في آية البقرة ، فجرت الآية على نسق واحد ، فأخّر الصابئين وجعلهم في مكانهم بعد الملل»[2].

* * *

---

(١) ينظر تفسير الرازي٣/ ١٠٤ ، وتفسير البيضاوي١/ ١٥٨ ، وفتح القدير١/ ٧٨ ، وروح المعاني ١/ ٢٧٨

(٢) معاني النحو ١/ ٣٧٠.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

ففي آية الأنعام تقدم الوعد برزق الآباء على رزق الأبناء، والعكس في آية الإسراء، وقد ذهب كثير من العلماء ـ ومنهم ابن الزبير ـ إلى أن المخاطبين في آية الأنعام هم الفقراء بخلاف آية الإسراء[(١)]، وتفسير ذلك أن الفقراء يقتلون أولادهم بسبب الفقر الواقع بهم فعلاً، فـ (من) تفيد السببية، ومعنى الآية: لا تقتلوا أولادكم بسبب فقركم، فقدّم الوعد برزقهم قبل رزق أولادهم.

أما آية الإسراء فهي خطاب لغير الفقراء، وإنما الذين يخشون الفقر ويتوقعونه عند مجيء الأولاد، فعلّة القتل هي الخشية، والفقر لم يقع بعد، فقدم الوعد برزق الأولاد على الوعد برزقهم لئلا يتوهم هؤلاء الآباء أن أبناءهم سيكونون السبب في إفقارهم.

* * *

ومن أمثلة التقديم والتأخير في الفعلين المتعاطفين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤، ودرة التنزيل ١٣٦، وبديع القرآن ١٠٦، ٢٦٠ـ ٢٦١، وتحرير التحبير ٥٦١، والبحر المحيط ٤/ ٢٥١، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٨٨، والبرهان للزركشي ٣/ ٢٨٥، والإتقان ٣/ ٣٤٣.

ففي آية البقرة قدّم الأمر بالدخول على الأمر بالقول ، والعكس في آية الأعراف .

يبين ابن الزبير سبب هذا التقديم والتأخير فيقول : «إن قولهم (حطّة) دعاء أُمروا به في سجودهم ، فلو ورد في السورتين على حد سواء لأوهم من حيث مقتضى الواو من الاحتمال أنهم أُمروا بالسجود والقول منفصلين غير مساوق أحدهما للآخر على أحد محتملات الواو في عدم الرتبة» (١) .

وتوضيح ذلك أن الواو لمطلق الجمع ، فإذا قلت مثلاً : (سافر سعيد وخالد) فليس فيه دلالة على أن سعيداً سافر قبل خالد ، فقد يكون سفر سعيد قبل سفر خالد ، ويحتمل أنه يكون بعده ، كما يحتمل أنهما سافرا معًا .

وهذا الكلام ينطبق على ما ورد من الأمر بالدخول والقول في الآيتين الكريمتين ، فقد ورد العطف بالواو بين الأمر بدخول الباب سجّداً والأمر بقول (حطة) ، فابن الزبير يرى أن الآيتين لو وردتا على نسق واحد فقال مثلاً في الموطنين : ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ، أو قال فيهما : ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ لاحتمل أن الأمر بالدخول قبل الأمر بالقول ، أو بعده ، أو هما معًا ، فقدّم وأخّر في السورتين ليتعين المراد بهذا القول بأن يكون في حال السجود لا قبله ولا بعده ، بمعنى : ادخلوا الباب سجّدًا قائلين في سجودكم حطّة .

ثم يبين سبب تخصيص آية البقرة بتقديم الأمر بالسجود على الأمر بالقول فيقول : إن «ابتداء السجود يتقدم ابتداء الدعاء ثم يتساوق المطلوبان ، فجاء ذلك على الترتيب الثابت» (٢) .

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٦٠ .

(٢) ملاك التأويل ١/ ٦١ .

وللخطيب الإسكافي توجيه آخر يقول فيه: «إن ما أخبر الله تعالى به من قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وما حكاه من قوله عز وجل لهم ، لم يقصد إلى حكاية الألفاظ بأعيانها وإنما قصد إلى اقتصاص معانيها ، وكيف لا يكون كذلك واللغة التي خوطبوا بها غير عربية. فإذاً حكاية اللفظ زائلة وتبقى حكاية المعنى ، ومن قصد حكاية المعنى كان مخيَّرًا بأن يؤديه بأي لفظ أراد وكيف شاء من تقديم وتأخير بحرف لا يدل على ترتيب كالواو. ولو قصد حكاية اللفظ ثم وقع في المحكي اختلاف لم يجز» (١).

وأقول: إنه على الرغم من أن القرآن «لم يقصد إلى حكاية الألفاظ بأعيانها وإنما قصد إلى اقتصاص معانيها» كما يقول الإسكافي ، لابد أن يكون هناك سبب اقتضاه سياق النص دعا إلى تقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول في آية البقرة ، والعكس في آية الأعراف ، ومهمة الموجّه للنصوص المتشابهة في اللفظ أن يبيّن سبب تخصيص كل نص بما خص به ، والخطيب الإسكافي لم يبين سبب ذلك.

ثم إن هناك نصوصًا قرآنية أخرى ذكرها الله على ألسنة غير عرب ، فلم تُحكَ فيها الألفاظ بأعيانها وإنما حكى القرآن معانيها ،وعلى الرغم من ذلك فقد وجّهها الخطيب الإسكافي ولم يقل فيها مثل ما قال هنا: «ومن قصد حكاية المعنى كان مخيَّرًا بأن يؤديه بأي لفظ أراد وكيف شاء» ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢] ، وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١]. فقد ذكر سبب قوله: (بأنّا) في

(١) درة التنزيل ١٦ ـ ١٧.

الموطن الأول ، وقوله: (بأنّنا) في الموطن الثاني[1] علمًا بأن كلام الحواريين ليس عربيًّا.

ومن ذلك الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام والخضر ، فعلى الرغم من أن اللغة التي تحاورا بها ليست عربية نرى الخطيب قد بين سبب قول الخضر لموسى في موطن: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢] ، وفي موطن آخر: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥] [2] إلى غير ذلك من المواطن.

فلماذا وجّه هذه الآيات وغيرها على الرغم من أنها قيلت على ألسنة غير عربية وحكيت بالمعنى ولم يوجّه آيتي البقرة والأعراف؟

وأما الفخر الرازي وأبو حيان فقد قالا: إن المخاطبين في آية البقرة هم غير المذنبين، وهؤلاء أُمروا بأن يشتغلوا بالعبادة ثم بذكر التوبة ، ولذا قيل لهم: ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ ، أما المخاطَبون في آية الأعراف فهم المذنبون ، ولذا لابد أن يكون اشتغالهم بحط الذنوب مقدّم على اشتغالهم بالعبادة فقيل لهم: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾[3].

ولا دليل لهما على هذا ، والذي يبدو لي أن المخاطبين في آية البقرة هم المخاطَبون في آية الأعراف.

ويبدو أن تقديم السجود على القول في سورة البقرة يعود لسببين:

«الأول: لأن السجود أشرف من القول لأنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فناسب مقام التكريم.

الثاني: لأن السياق يقتضي ذلك ، فقد جاءت هذه القصة في عقب

---

(١) درة التنزيل ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) درة التنزيل ٢٨٥.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٣/ ٩٣ ، والبحر المحيط ١/ ٢٢٥.

الأمر بالصلاة ، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

فناسب ههنا تقديم السجود لاتصاله بالصلاة والركوع ، وكلا الأمرين مرفوع في الأعراف فأخّر السجود» (١) .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

ففي الآية الأولى من آيتي البقرة قدّمت قبول الشفاعة على أخذ العدل وهي الفدية ، والعكس في الآية الثانية منهما.

يذكر ابن الزبير أن الآية الأولى من آيتي البقرة قد سبقها قوله تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] والمأمور بالبر قد يهديه الله فيتمسك به فيسلم من العصيان فينجو يوم القيامة ، ولتوهم هؤلاء الآمرين إمكان شفاعة من أمروهم بالبر وطمعهم في ذلك كان آكد شيء نفي الشفاعة لهم لإمكان توهمها.

وأما الآية الأخرى فلم يتقدمها ما يستدعي هذا ، ولذا قدم فيها ذكر العدل التي هي أَولى في التخلص من العذاب على ما عهد في الدنيا لو

---

(١) التعبير القرآني ٣١٩.

أمكنت[1] . بمعنى أن قبول العدل ـ وهو الفداء ـ مقدم على نفع الشفاعة ، والفداء يكون عادة بالمال .

وقد ذكر القرآن الكريم آيات كثيرة تفيد عدم إغناء الأموال ـ مهما كانت كثيرة ـ يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ [آل عمران : ٩١] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٣٦] .

وعندما يقترن ذكر الأموال مع ذكر الأولاد فإن القرآن الكريم يقدم ذكر الأموال لأنه أهم وأعنى في قضية الفداء . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران : ١٠ ـ ١١٦] ، وقال : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩] ، وقال : ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المجادلة : ١٧] .

* * *

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٦١] .

وقوله : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٢] .

ففي آية آل عمران قدّم قوله : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ على قوله :

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٥١ ـ ٥٢ .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ ، في حين أخّره عنه في آية البقرة. ووجه ذلك عند ابن الزبير أن آية البقرة ذكر فيها أن بني إسرائيل طلبوا من موسى عليه السلام أكلاً بديلاً عن المن والسلوى فقالوا له: ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ فقال لهم: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ «فلما سألوا ما يستلزم مهانة النفس ودناءة الحال لما أجرى الله تعالى به العادة من الذي سألوه لا يتوَصَّل إليه إلا بتكلف عمل ومشقة، فلما سألوا ما حاصله خسّة وامتهان ناسب ذلك أن يناط به ويبني عليه ذكر ضرب الذلة والمسكنة عليهم. ثم أعقب ذلك بذكر ما باءوا به من غضب الله الذي سبق به القدر عليهم. . .

ولما تقدم في آل عمران قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١] ناسب هذا تقديم ما لا نصرة لهم معه ولا فلاح، وهو ما باءوا به من غضب الله عليهم فقال تعالى: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فجاء كل على ما يناسب ويلائم» (١).

والممعن النظر في هاتين الآيتين يرى أن موطن الذم والتشنيع على اليهود في آية آل عمران أشد، ففي سورة البقرة جمع (الذلة والمسكنة) ثم قال: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، أما في آية آل عمران فقد قال: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ ثم قدّم غضب الله عليهم فقال: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ثم قال: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ «فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد، فإن قولك: (أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) آكد من قولك: (أنهاك عن الكبر والرياء)» (٢) فقدّم غضب الله عليهم وأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في الذم بسبب أنهم ﴿ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

(١) ملاك التأويل ١/ ٦٨ ـ ٧٠

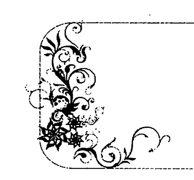
(٢) معاني النحو ١/ ١١٩.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ﴾. وقد ذكرت ما يفيده جمع التكسير (الأنبياء) من الكثرة[1]، كما ذكرت ما يفيده تنكير(حق) من الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم[2] فلا داعي للإعادة.

* * *

(١) ينظر صفحة ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) ينظر صفحة ١٣٠ ـ ١٣١.




المبحث الثاني
الذكـــر والحـذف

قد تمر بنا آيات متشابهة يحذف منها حرف مبنى أو كلمة أو أكثر في موطن منها ويذكر في موطن آخر شبيه به ، كل ذلك لأمر يقتضيه سياق النص. يقول عبد القاهر الجرجاني وهو يتكلم على بلاغة الحذف: «هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن» [(١)] .

ومعنى كلامه هذا أن الحذف في الموطن الذي يقتضيه بلاغة ، كما أن الذكر في الموطن الذي يقتضيه بلاغة ، فلا يجوز للبليغ أن يذكر في موطن الحذف أو يحذف في موطن الذكر.

وقد ورد الذكر والحذف في القرآن الكريم بصورة فنية رائعة ، وكان لابن الزبير وقفات على كثير من الآي المتشابه مبينًا سبب الذكر في موطنه وسبب الحذف في موطنه. وإليك بعض الآيات المتشابهة التي ذكرها ابن الزبير لنرى رأيه فيها.

أولاً ـ ذكر وحذف حرف مبنى

نلاحظ في التعبير القرآني أن الكلمة قد تذكر كاملة في موطن ويحذف جزء منها في موطن آخر ، فقد يقول في موضع: (استطاعوا) ، وفي موطن آخر: (اسطاعوا) بحذف التاء ، وقد يقول في مكان: (فلا تكن) ،

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٣ .

وفي مكان آخر: (فلا تكُ) بحذف النون. . . وهكذا.

وعلى الرغم من أنه لم يطرأ تغيير على معنى الكلمة في حالة حذف جزء منها لابد أن يكون هناك سبب لذكر حرف المبنى وحذفه اقتضاه سياق النص بحيث حسن الذكر في موطن والحذف من موطن آخر.

ومما ذكره ابن الزبير في ذلك قوله تعالى في السد الذي بناه ذو القرنين: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]. وإذا كان معنى (اسطاع واستطاع) واحداً[١] فما سبب استعمال (اسطاعوا) مع الظهور، و(استطاعوا) مع النقب؟

يذكر بعض المفسرين أن التاء حذفت في (اسطاعوا) للتخفيف[٢]. وهذا الكلام صحيح ولكن ما سبب هذا التخفيف؟ ولماذا خص التخفيف مع الظهور دون النقب؟

أجاب ابن الزبير عن هذا السؤال فقال: إن الظهور على السد والصعود فوقه أيسر من نقبه، فجيء بالفعل خفيفًا مع العمل الأخف وهو الصعود على السد، وجيء بالفعل تامًّا مع العمل الأثقل وهو النقب[٣].

وتوجيهه هذا مستنبط من القاعدة اللغوية التي تقول: إن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى[٤].

ويقول صاحب الدرة: إن «الثانية تعدّت إلى اسم وهو قوله: (نقبًا) فخفف متعلقها فاحتملت أن يتم لفظها، فأما الأولى فإنها تعلق مكان مفعولها بـ(أنْ) والفعل بعدها، وهي أربعة أشياء (أنْ والفعل والفاعل

---

(١) ينظر لسان العرب ١٠/ ١١٢ ـ ١١٣، والقاموس المحيط ٣/ ٦٠ (مادة طوع).

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢١/ ١٧٢، وروح المعاني ١٦/ ٤١.

(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

(٤) ينظر تفسير الكشاف ١/ ٣٤.

والمفعول الذي هو الهاء)، فثقل لفظ (استطاعوا)... فلما اجتمع الثقيلان واحتملت الأولى التخفيف ألزم الأول دون الثاني الذي خف متعلقه واحتمل» [(١)].

وقد ذهب إلى ذلك بدر الدين بن جماعة فقال: «وفي قصة ذي القرنين أن تعلق الفعل بالمفعول المفرد أخف من تعلقه بالمركّب، و(أن يظهروه) مفعول مركب فناسب التخفيف، و(نقبًا) مفعول مفرد فكمل لفظ الفعل معه لعدم المقتضى للتخفيف» [(٢)].

ومعنى هذا أن مفعول (اسطاعوا) هو (أن يظهروه)، ومفعول (استطاعوا) هو (نقبًا)، والملاحظ أن المفعول الأول يتكون من حرف مصدري وفعل وفاعل ومفعول به، أما المفعول الثاني فيتكون من اسم مفرد وهو (نقبًا)، ولما كان المفعول الأول ثقيلاً خفف الفعل فقال: (اسطاعوا)، ولما كان المفعول الثاني خفيفًا أتى بالفعل تامًّا فقال: (استطاعوا)، وبذلك يحصل التلاؤم بين الفعل الخفيف والمفعول الثقيل من جهة، والفعل الثقيل والمفعول الخفيف من جهة أخرى.

وأرى أن في هذا التوجيه تكلفًا واضحًا، فلو كان التعبير على غير ذلك وقال أولاً: (فما استطاعوا أن يظهروه) ثم قال: (وما اسطاعوا له نقبًا) لوجّهه أيضًا وقال: كان الأمر كذلك ليناسب الإيجاز الإيجاز وتناسب الإطالة الإطالة، أي ليناسب (استطاعوا) قوله: (أن يظهروه) ويناسب (اسطاعوا) قوله: (نقبًا)، فإن الإنسان لا يعدم تعليلاً لما يريد.

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي توجيهًا آخر لعله مستنبط أيضًا من القاعدة اللغوية المذكورة آنفًا فقال: «إنه لما كان الصعود على السد يتطلب

---

(١) درة التنزيل ٢٨٥.
(٢) كشف المعاني ٢٤٤.

زمنًا أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصّر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث»[1].

تبين لنا مما سبق أن كل فعل لم يأت إلا في المكان المناسب له، بحيث لو استعمل الفعل (اسطاعوا) مع النقب، و(استطاعوا) مع (أن يظهروه) لاختلّ نظم الآية.

* * *

ومن ذلك ذكر وحذف نون مضارع (كان) المجزوم.

يقول النحاة: إن نون مضارع الفعل (كان) تحذف تخفيفًا جوازًا لكثرة الاستعمال، بشرط أن يكون الفعل المضارع مجزومًا وعلامة جزمه السكون وأن لا يليه حرف ساكن.

يقول ابن مالك في كتابه (شرح الكافية الشافية): إن (يكون) مختصة «في حال الجزم بسقوط نونها. فإن ذلك جائز فيها لكثرة استعمالها وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2] فإن وصلت بساكن ردّت نونها كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3]»[4].
ويقول الناظم:

ومـن مضـارع لكـان منجـزمْ تحذف نون وهو حذف ما التُزمْ

وجاء في (شرح ابن عقيل): «حذفوا النون بعد ذلك تخفيفًا لكثرة الاستعمال»[5].

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ١٢.
(٢) النحل ١٢٧.
(٣) البينة ١.
(٤) شرح الكافية الشافية ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣، وينظر المقتضب ٣/ ١٦٧.
(٥) شرح ابن عقيل ١/ ٢٩٩.

«وهذا الكلام صحيح ، غير أن البليغ لا يحذف لمجرد التخفيف وإنما لغرض بلاغي يقتضيه المقام. نعم قد يضطر إلى ذلك في شعر أو نحوه ، ولكن في اختيار الكلام لا يفعل ذلك لمجرد التخفيف. لقد حذفت النون من (كان) المجزومة سبع عشرة مرة في القرآن الكريم ، ولم تحذف مع إمكان الحذف في سبعة وخمسين موطنًا ، وما ذلك إلا لسبب بلاغي يقتضيه المقام»[1].

بعد هذه المقدمة نعود إلى القرآن الكريم لنرى سبب حذف نون (يكون) المجزومة في موطن وذكرها في موطن آخر.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقوله في آخر السورة نفسها: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ [هود: ١٠٩].

ففي هاتين الآيتين حذفت نون (تكن).

في حين ذكرت في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

وقد ربط ابن الزبير ما بين تخفيف اللفظ بحذف نون (تكن) ، وما بين إيجاز الكلام المتعلق به ، ففي الآية الأولى حذف نون (تكن) لإيجاز الكلام المتصل به ، فقد قال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ﴾ لأنه أتمها بقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كلام مختصر.

وفي الآية الثانية حذف نون (تكن) لإيجاز الكلام المتصل به أيضًا ، فقد قال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ لأنه أتمها بقوله: ﴿مَا يَعْبُدُونَ

---

(١) معاني النحو ١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ وهو كلام مختصر أيضاً.

في حين ذكر نون (تكن) في الآية الثالثة لطول الكلام المتصل بها، فقد قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ لأنه أتمها بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٣ ـ ٢٥] فتناسب ذكر النون مع طول الكلام المتصل بها، بخلاف الآيتين الأخريين(١).

ثم إن لحذف النون أغراضًا بلاغية متعددة منها «النهي عن الشيء بقوة بحيث تطلب منه ألاّ يحصل من الفعل شيء»(٢).

وقد وجّه الدكتور فاضل السامرائي الآية الأولى من آيتي هود وآية السجدة فقال: «إن الكلام في الآية الأولى على القرآن الكريم وعلى قوم الرسول وتهديد من يكفر به، والكلام في الآية الثانية (أي: آية السجدة) على التوراة وبني إسرائيل.

فناسب الحذف في الآية الأولى دون الثانية تثبيتًا للرسول ونهيًا له عن الريبة فيه، وذلك أنه طلب منه أن لا يكون في شيء من المرية أصلاً. فلما كان الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف هاهنا دون الثانية»(٣).

ويمكنني أن أوجّه الآية الثانية من آيتي سورة هود على وفق التوجيه الأخير فأقول: إن هذه الآية تثبيت للنبي ﷺ ونهي له عن أن يكون في أدنى درجات الشك مما يعبد قومه من الآلهة الباطلة فناسب ذلك حذف نون

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥١١ ـ ٥١٢.
(٢) معاني النحو ١/ ٢٤٩.
(٣) التعبير القرآني ٧٨.

(تكن) ، وبعبارة أخرى صار تناسب ما بين حذف الشك من قلبه وحذف نون (تكن) والله أعلم.

* * *

ومن ذلك ذكر النون وحذفها مع ضمير المتكلمين نحو قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

ففي الآية الأولى قال: (بأنّا) ، وفي الثانية قال: (بأنّنا) علمًا بأن القول في كلتا الآيتين قول الحواريين.

ولذكر النون أغراض منها «مراعاة مقام الإطالة ، فقد يقتضي المقام الإطالة والتفصيل فيؤتى بها ، وقد يقتضي الإيجاز فلا تلحق»[(١)].

وبناءً على هذا الغرض يذكر ابن الزبير أن آية المائدة لما ورد فيها التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك في قوله تعالى: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ ناسب ذلك مجيء (أنّنا) على الأصل، «ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في آية آل عمران ، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ فلم يقع هنا (وبرسوله) إيجازًا ، للعلم به وشهادة السياق ، ناسب هذا الإيجازُ الإيجازَ، كما ناسب الإتمامُ في آية المائدة الإتمامَ»[(٢)].

ويقول الخطيب الإسكافي: «إن الذي في سورة المائدة جاء على الأصل غير المخفف لأنه جاء أول كلام الحواريين في هذا المعنى. . .

---

(١) معاني النحو ١/ ٣٨٩.
(٢) ملاك التأويل ١/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

والذي هو في سورة آل عمران هو حكاية عن عيسى عليه السلام أنه سألهم عما أقروا به لله تعالى فقال: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، فكان ذلك منهم إقراراً ثانياً لرسوله عليه السلام مثل ما أقروا به لله تعالى. والثاني يختار فيه من التخفيف ما لا يختار في الأول، لأن الأول قد وفى العبارة حقها، والثانية معتمدة على ما قبلها وهي مكررة، والعرب تستثقل المعاد ما لا تستثقل غيره، فاختير في سورة آل عمران ما لم يختر في سورة المائدة لذلك» [١].

وقد ذهب الفيروزابادي والبكري هذا المذهب [٢].

ولذكر النون غرض آخر وهو الزيادة في التوكيد، فـ(إنّني) آكد من (إنّي)، و(إنّنا) آكد من (إنّا) لأن اجتماع ثلاث نونات يزيد في التأكيد [٣].

ففي آية المائدة قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ «أي أن الله هو الذي أوحى إليهم وثبتهم فناسب ذلك زيادة النون تأكيدًا، لأن النون قد تأتي في مقام التأكيد. ولم يرد مثل ذلك في آية آل عمران، فناسب كل في موضعه» [٤].

* * *

ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢].

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ

---

(١) درة التنزيل ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) ينظر بصائر ذوي التمييز ١/ ١٦٤، وتسهيل السبيل (سورة آل عمران).

(٣) معاني النحو ١/ ٣٨٨.

(٤) التعبير القرآني ٧٦.

﴿فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩].

يذكر ابن الزبير أن سبب تخصيص آية هود بقوله: (وإنّنا) هو وجود نون واحدة في قوله: (تدعونا)، وسبب تخصيص آية إبراهيم بقوله: (وإنّا) هو وجود نونين في قوله: (تدعوننا)، ولو قال معها: (وإنّنا) لصار الكلام مستثقلاً لاجتماع النونات في مكان متقارب[1].

وقد ذكرنا أن من أغراض ذكر النون مراعاة مقام الإطالة، فتُذكَر إذا كان المقام مقام إطالة وتفصيل، وتحذف إذا كان المقام مقام إيجاز، فآيات هود «تذكر تفاصيل الأقوام البائدة وقصصهم واحدة واحدة، قصة قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط ومدين وقصة موسى مع فرعون، بخلاف آية إبراهيم فإنها بيان لموقف الأمم من الرسل عموماً على وجه الإجمال لا على وجه التفصيل، فأطال في مقام التفصيل وأوجز في مقام الإيجاز»[2].

كما أني وجدت لآيتي هود وإبراهيم توجيهًا آخر استنبطته مما يفيده ذكر النون من الزيادة في التوكيد، وهو أن آية هود هي قول قوم صالح لنبيهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ فقد كانوا ينتظرون أن يكون فيهم السيد المطاع فتفاجأوا بأنه يأتيهم بعقيدة جديدة تهدم ما قبلها فتعجّبوا من ذلك وقالوا له: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ثم قالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ﴾ فأكّدوا شكهم بثلاثة مؤكدات هي (إنّ) المؤكدة وزيادة النون في (إنّنا) وذكر اللام في (لفي). وهذا القول يعني أنهم كانوا في منتهى الشك من قوله، بدليل أنهم قالوا: ﴿لَفِي شَكّٖ﴾، و(في) حرف جر يفيد الظرفية،

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٥٢١ ـ ٥٢٢.
(٢) معاني النحو ١/ ٣٩٠.

فكأن الشك وعاء يضمّهم ، وهذا التعبير أقوى تعبير يدل على مدى شكهم . أما آية إبراهيم فليس فيها ما يستدعي زيادة التأكيد فناسبها (وإنّا) .

ثانياً ـ ذكر وحذف كلمة

بمعنى أنك قد تقف على آيتين متشابهتين تختلفان في ذكر وحذف كلمة ، بمعنى أنك تجد كلمة ما مذكورة في آية من الآيات ، ومحذوفة من آية أخرى شبيهة بها . وقد تكون هذه الكلمة اسمًا أو فعلاً أو حرفًا . وسنقف على بعض ما وقف عليه ابن الزبير من هذه الآيات .

أ ـ ذكر وحذف حرف

استعمل القرآن الكريم الذكر والحذف في حروف المعاني استعمالاً فنيًّا رائعًا ، فقد يحذف حرفاً من حروف المعاني أو يذكره كل ذلك لغرض بلاغي يقتضيه سياق النص كما سنتبين ذلك في الآيات التي سنقف عليها .

١ ـ كاف الخطاب :

بمعنى أن يذكر كاف الخطاب في موطن ويحذف من موطن آخر شبيه به ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام : ٤٠] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام : ٤٧] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس : ٥٠] .

فقد خص الآية الأولى والثالثة من آيات الأنعام بزيادة كاف الخطاب . وقبل أن نقف على سبب التخصيص نقف على ما تفيده كاف الخطاب .

فقد ذهب جمهور النحاة إلى أن الكاف في قولك: (أرأيتك زيدًا) حرف لا محل له من الإعراب، وقد زيد لمعنى الخطاب[1].

وقد ذكر ابن الزبير الغرض من زيادته فقال: «وأما الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المحصِّل لذلك فتأكيد في إيقاظ المنبَّه إنباءً باستحكام غفلته عما يحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان وشبه هذا»[2].

ثم يوجّه الآيات التي سبق ذكرها فيقول: إن الآية الأولى قد سبقها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] وهؤلاء بهم حاجة إلى الزيادة في التنبيه فأتى بكاف الخطاب. بمعنى أن الأصم والأبكم به حاجة إلى التنبيه، فكيف به وهو في الظلمات؟ لا شك أنه به حاجة إلى الزيادة في التنبيه.

ولما كان الأمر الذي في الآية الثانية مشاهداً عند كثير من الخلق وهو أخذ السمع والأبصار لم يحتج فيه إلى زيادة في التنبيه ولهذا قال: (أرأيتم).

وأما في الآية الثالثة فقد ذكر كاف الخطاب لما ذكر العذاب وسوء الجزاء لمن لم يتّعظ فذكر الكاف زيادةً في التنبيه. وأما آية يونس فلم يتقدّم قبلها ما يوجب تأكيد الخطاب[3].

ويوجّه أبو حيّان الآيتين الأولى والثانية من آيات الأنعام توجيهًا آخر فيقول: إن الآية الأولى أُكّدت بكاف الخطاب لأن التهديد فيها بإتيان العذاب أو الساعة، وهذا التهديد أعظم من أخذ السمع والأبصار والختم على القلوب المذكور في الآية الثانية، فناسب هذا الأمر تأكيد الآية الأولى بكاف الخطاب دون الآية الثانية[4].

---

(١) ينظر المقتضب ٣/ ٢٧٧، وشرح الرضي على الكافية ٢/ ٢٨٢، والجنى الداني ١٤٠.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٣٢٤، وينظر البرهان للزركشي ٤/ ١٥١.

(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٢٤ـ ٣٢٥.

(٤) ينظر البحر المحيط ٤/ ١٣١.

ويقول في الآية السابعة والأربعين من السورة نفسها: «هو تهديد ثالث، فالأول بأحد أمرين العذاب أو الساعة، والثاني بالأخذ والختم، والثالث بالعذاب فقط»[1].

ثم إن الآية السادسة والأربعين قال في بدايتها: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ «فاحتاجوا بعد إلى زيادة في التنبيه والخطاب، وذلك أن فاقد السمع والبصر والمختوم على قلبه به حاجة إلى زيادة خطاب وتنبيه أكثر من السويّ فقال فيما بعد: (أرأيتكم)»[2].

مما سبق تبيّن لنا أن جميع التوجيهات لآيات الأنعام وآية يونس قد استنبطت مما تفيده زيادة الكاف من توكيد في الخطاب وزيادة في التنبيه.

٢ ـ واو الحال:

من ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٢].

فقد دخلت الواو على قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ دون قوله: ﴿ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

ذهب جماعة من العلماء إلى أن الواو الداخلة على (وثامنهم) هي واو الثمانية. يقول المرادي مفصّلاً الكلام على هذه الواو: «ذهب قوم إلى إثبات هذه الواو منهم ابن خالويه والحريري وجماعة من ضعفة النحويين، قالوا: من خصائص كلام العرب إلحاق الواو في الثامن من العدد فيقولون: واحد، اثنان، ثلاثة... سبعة، وثمانية، إشعارًا بأن السبعة عندهم عدد كامل، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ

---

(١) البحر المحيط ٤/ ١٣٢.

(٢) معاني النحو ٢/ ٤٣٤.

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [1] ، وبقوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ، وبقوله تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [2] ، وبقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [3] . قالوا: ألحقت الواو لأن أبواب الجنة ثمانية ، ولما ذكر جهنم قال: (فتحت) [4] بلا واو لأن أبوابها سبعة» [5] .

وممن ذهب إلى واو الثمانية ابن الزبير ، فقد قال بعد أن ذكر آية الكهف: «فيسأل عن اختصاص واو الثمانية بالواو. ولمَ لم ترد بالجملة من قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صفة للنكرة قبلها كما تقدم قبلُ ، ولمَ عدل إلى العطف؟» [6] .

وقد ردّ جماعة من المحققين هذا الرأي ، فقد نقل الفخر الرازي في تفسيره رد القفّال فقال: «قال القفّال: وهو ليس بشيء ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [7] ولم يذكر الواو في النعت الثامن» [8] .

ويقول المرادي: «وذهب المحققون إلى أن الواو في ذلك إما عاطفة وإما واو الحال ولم يثبتوا واو الثمانية. فقد أنكر الفارسي واو الثمانية لما ذكرها ابن خالويه في باب المناظرة» [9] .

---

(١) التوبة ١١٢ .

(٢) التحريم ٥ ، ونص الآية: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ .

(٣) الزمر ٧٣ .

(٤) الزمر ٧١ ، ونصها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ .

(٥) الجنى الداني ١٩٤ ـ ١٩٥ ، وينظر مغني اللبيب ٢/ ٣٦٢ .

(٦) ملاك التأويل ٢/ ٦٤٠ .

(٧) الحشر ٢٣ .

(٨) تفسير الرازي ٢١/ ١٠٧ .

(٩) الجنى الداني ١٩٥ .

يتضح مما سبق أن الرأي الثاني هو الرأي الراجح ، فقد أتى القفّال بآية الحشر التي ليس فيها هذه الواو.

بعد هذه المقدمة نعود إلى آية الكهف لنرى سبب دخول الواو على قوله: (وثامنهم).

يقول ابن الزبير: «فأتى بالجملة الأولى وهي قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ ﴾ . . . بعد ذلك القول ، إذ التقدير: هم ثلاثة ، ثم سيقت الجملة من قولهم: ﴿ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ صفة الثلاثة. . . ثم قال: ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فـ ﴿ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ صفة للنكرة قبلها كالمتقدمة. . . ثم قال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ ﴾ وخرج هذا المحكي من قولهم: (سبعة) عن الاتصاف بالحاصل قبله من الوصف الحالي وهو قوله: ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ فأفهم ـ والله أعلم ـ أن هذا ليس من نمط ما تقدم ، فكأن قد قيل: ويقولون سبعة هم كذلك وثامنهم كلبهم. . .

وعلى تقدير صحة كونهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وأن هذا ليس داخلاً تحت ما تقدم من أنه رجم بالغيب ، وأن الوصف بتلك الحال إنما يرجع إلى ما قبله من قولهم: ثلاثة رابعهم كلبهم ، وخمسة سادسهم كلبهم ، جرى كلام ابن عباس رضي الله عنه ومن تبعه من المفسرين» [(١)].

ويقول الزمخشري: إن هذه الواو «هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً من المعرفة في نحو قولك: (جاءني رجل ومعه آخر) و(مررت بزيد وفي يده سيف) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [(٢)]. وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ،

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٤٠ ـ ٦٤١.

(٢) الحجر ٤.

وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما قال غيرهم. والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وأتبع الثالث قوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾»[1].

وذهب الجمهور إلى أنها واو الحال وينكرون مجيء جملة الصفة بعدها. جاء في (مغني اللبيب) في الكلام على أقسام الواو: «والعاشرة: الواو الداخلة على الجملة الموصوف بها لتأكيد لصوقها بموصوفها وإفادتها أن اتصافه بها أمر ثابت. وهذه الواو أثبتها الزمخشري ومن قلّده. وحملوا على ذلك مواضعَ الواوُ فيها كلِّها واوُ الحال نحو ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2] الآية ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[3] ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾»[4].

وجاء في (البرهان) للزركشي: «زعم الزمخشري أنها تدخل على الجملة الواقعة صفة لتأكيد ثبوت الصفة بالموصوف، كما تدخل على الجملة الحالية كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ والصحيح أن الجملة الموصوف بها لا تقترن بالواو، لأن الاستثناء المفرَّغ لا يقع في الصفات، بل الجملة حال من (قرية) لكونها عامة بتقديم (إلا) عليها»[5].

---

(١) تفسير الكشاف ٢/ ٢٥٥.

(٢) البقرة ٢١٦.

(٣) البقرة ٢٥٩.

(٤) مغني اللبيب ٢/ ٣٦٤.

(٥) البرهان ٢/ ٤١٥، وينظر حاشية الصبان ٢/ ١٧٥، وحاشية يس على شرح التصريح ١/ ٣٧٧.

وبناءً على ما تقدّم فهي ليست عاطفة كما ذكر ابن الزبير ، وليست «هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة» كما ذكر الزمخشري ، وإنما هي واو الحال.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى في أهل النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] ، وقوله في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

يرى ابن الزبير أن الواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ هي واو العطف وليست واو الحال حيث يقول: «إن قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ معطوف على ﴿جَآءُوهَا﴾ وليس جواباً»[1].

والصواب أنها واو الحال كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين[2] ، وكما سنرى ذلك من التوجيه.

أما سبب تخصيص قوله: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ مع أبواب الجنة دون أبواب جهنم فيرى ابن الزبير وغيره من العلماء أن سبب ذلك هو أن أبواب جهنم مغلقة ولا تفتح إلا عند مجيئهم فيفاجئهم عذابها وما أعدّ الله لهم فيها ، ففتحها يتوقف على مجيئهم.

أما أبواب الجنة فهي مفتوحة ، ولا يتوقف فتحها على مجيء أهل الجنة إليها ، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] ومعنى الآية: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها[3].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٨٣٥.
(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٢ ، وتفسير البيضاوي ٥/ ٣٣ ، وتفسير النسفي ٤/ ٦٨.
(٣) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٣٥ ، ودرة التنزيل ٤٠٩ ، وتفسير الرازي ٢٧/ ٢٣ ، والبرهان للزركشي ٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠.

أما جواب (إذا) في الآية الثانية فهو محذوف مقدّر عند ابن الزبير ويفسّره المعنى ، وتقدير المعنى عنده: «حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين أنسوا ونعموا ، أو ما يرجع إلى هذا المعنى ويحرزه»(١).

أما عند غيره من العلماء فهو محذوف مطلق ولم يقدّروه ، وحمله على الإطلاق أولى من حمله على التقدير ، ذلك لأن الجواب لو حدّد ذكرًا أو تقديرًا لاقتصر عليه وربما خفّ أمره ، أما إذا لم يذكر فإن ذهن السامع يذهب فيه كل مذهب.

يقول ابن يعيش: «وقال أصحابنا: إن حذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى أنك إذا قلت لعبدك: (والله لئن قمت إليك) وسكتّ عن الجواب ذهب فكره إلى أشياء من أنواع فلم يدرِ أيها يبقى، ولو قلت: (لأضربنّك) فأتيت بالجواب لم تبقِ شيئًا غير الضرب»(٢).

وجاء في (الإيضاح) في الكلام على جواب الشرط: «أن يحذف للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن ، فلا يتصوّر مطلوبًا أو مكروهًا إلا يجوز أن يكون الأمر أعظم منه ، ولو عُيّن شيء اقتصر عليه وربما خفّ أمره عنده كقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ ، وكقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾(٣) ، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾(٤) ، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٨٣٥.

(٢) شرح المفصل ٩/٩.

(٣) الأنعام ٢٧.

(٤) الأنعام ٣٠.

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [(1)]» [(2)].

وقد ذهب الزركشي والسيوطي هذا المذهب ولا داعي لسرد رأييهما[(3)].

أما سبب تخصيص الآية الثانية بالحذف فيقول كثير من العلماء: إن هذا يدل على أن ثواب أهل الجنة لا يحيط به الوصف، فيذهب الذهن فيه كل مذهب[(4)].

ومعنى هذا أنه لو ذكر الجواب أو قدّرناه ـ كما فعل ابن الزبير ـ لحدّد به واقتصر عليه ولما جعلنا الذهن يذهب في التفكير كل مذهب فيزداد الشوق إلى هذا النعيم.

٣ ـ أحرف العطف:

قد نجد من الآيات المتشابهة ما تختلف في ذكر وحذف أحرف العطف، فقد نجد حرف العطف مذكورًا في موطن ومحذوفًا من موطن آخر. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩].

وقوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

فقد قال في آية إبراهيم: (ويذبّحون) بالواو العاطفة، وفي آية البقرة (يذبّحون) بدونها علمًا بأن كلتا الآيتين في سياق تعداد النعم على بني إسرائيل.

---

(١) السجدة ١٢.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٣) ينظر البرهان ٣/ ١٨٣، والإتقان ٣/ ١٧١.

(٤) ينظر تفسير الكشاف ٣/ ٤١، وتفسير البيضاوي ٥/ ٣٣، وتفسير النسفي ٤/ ٦٧ ـ ٦٨، وتفسير ابن كثير ٤/ ٦٥ ـ ٦٦.

يبيّن ابن الزبير سبب دخول الواو العاطفة على (يذبّحون) في آية إبراهيم فيقول: «أشار قوله سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ إلى جملة ما امتُحنوا به من فرعون وآله من استخدامهم وإذلالهم بالأعمال الشاقّة وامتهانهم واستحياء نسائهم لذلك وذبح الذكور. فلما وقعت الإشارة إلى هذه الجملة مما كانوا يمتحنونهم به جُرّد منها، وعُيّن بالذكر أشدُّها وأعظمها امتحانًا، فجيء به معطوفًا لأنه مغاير لما تقدّمه فقيل: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فعيّن من الجملة هذا، وخصّ بالذكر تعريفًا بمكانه وشدة الأمر فيه» (١). ومعنى كلامه هذا أنه خصّ الذبح بالواو في هذه الآية لأنه أشد مما تقدمه من أنواع العذاب.

وأقول: إن ابن الزبير بيّن سبب دخول الواو العاطفة على آية إبراهيم، لكنه لم يبيّن سبب حذفها من آية البقرة.

ويقول الفراء: «فمعنى الواو أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح، كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح، ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملاً في كلمة ثم فسّرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوله غير آخره فبالواو، فمن المجمل قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٢) فالأثام فيه نية العذاب قليله وكثيره، ثم فسره بغير الواو فقال: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (٣) ولو كان غير مجمل لم يكن ما ليس به تفسيرًا له» (٤).

ومعنى هذا الكلام أن سومهم سوء العذاب في آية إبراهيم غير التذبيح والاستحياء، ذلك أنه أتى بالواو العاطفة التي تقتضي المغايرة، أما في آية

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٥٧.
(٢) الفرقان ٦٨.
(٣) الفرقان ٦٩.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٦٩.

البقرة فإنه فسّر سومهم سوء العذاب بأنه يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، فالسوم هو التذبيح والاستحياء. فقوله: (يذبّحون) بدل من قوله: (يسومونكم).

وقد ذهب الخطيب الإسكافي والفخر الرازي إلى ما ذهب إليه الفراء[١].

وقد ذكر عدد من العلماء أن سبب تخصيص آية البقرة بحذف الواو وآية إبراهيم بذكرها هو أن آية البقرة من كلام الله تعالى فلم يعدّد المحن عليهم ، أما آية إبراهيم فهي من كلام موسى عليه السلام فعدّدها عليهم لتكثير أسباب المن[٢].

* * *

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

وذلك بإدخال الواو العاطفة على فعل المدح في الآية الأولى دون الثانية.

وسبب ذلك التخصيص عند ابن الزبير أن آية آل عمران وقع فيها ذكر الجزاء مفصَّلاً معطوفًا ، وهو المغفرة والجنات ، فناسب ذلك دخول الواو العاطفة على فعل المدح فقيل: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾.

---

(١) ينظر درة التنزيل ١٣ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٨٥.

(٢) ينظر البرهان للكرماني ٢٨ ، والبرهان للزركشي ١/١١٦ ، وبصائر ذوي التمييز ١/ ١٤٢ ، والإتقان ٣/ ٣٤١ ، وتسهيل السبيل (سورة البقرة).

وأما آية العنكبوت فلم يفصل الجزاء فيها ولم يقع فيها عطف ، فناسب ذلك مجيء جملة المدح غير معطوفة[1] .

وذهب بدر الدين بن جماعة إلى أن الآية تقدمها أوصاف معطوفة وهي قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ . . . وَٱلْكَٰظِمِينَ . . . وَٱلْعَافِينَ . . . ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً . . . وَلَمْ يُصِرُّوا۟ ﴿١٣٥﴾﴾ ثم تلتها الآية التي يستمر فيها ذكر الجزاء معطوفًا ، فناسب ذلك كله العطف بالواو الدالة على التعدد والتفخيم.

ولم يتقدم مثل ذلك في العنكبوت فجاءت بغير واو ، كأنها من تمام الجملة[2] .

* * *

٤ ـ حروف الجر:

من الذكر والحذف في حروف الجر دخول حرف الجر (من) على (قبل ، وبعد) في موطن دون آخر. جاء في (الصحاح) للجوهري أن (من) قد تدخل عليهما توكيدًا لغوًا[3] .

وجاء في (شرح الرضي على الكافية): «و(من) الداخلة على الظروف غير المتصرفة أكثرها بمعنى (في) نحو: جئت من قبلك ومن بعدك. . . وأما نحو (جئت من عندك) و﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾[4] فلابتداء الغاية»[5] .

وجاء في (مغني اللبيب): «واختلف في (من) الداخلة على (قبل

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٧٧ .

(٢) ينظر كشف المعاني ١٣٤ .

(٣) ينظر الصحاح ٦/ ٢٢٠٩ (مادة من).

(٤) مريم ٥ .

(٥) شرح الرضي على الكافية ١/ ١٨٧ .

وبعد) فقال الجمهور: لابتداء الغاية ، ورُدّ بأنها لا تدخل عندهم على الزمان. . . وأجيب بأنهما غير متأصلتين في الظرفية وإنما هما في الأصل صفتان للزمان ، إذ معنى (جئت قبلك) جئت زمناً قبل زمن مجيئك ، فلهذا سهل ذلك فيهما. وزعم ابن مالك أنها زائدة ، وذلك مبني على قول الأخفش في عدم الاشتراط لزيادتها»[1].

نستنتج مما سبق أن هناك ثلاثة آراء في (من) الداخلة على بعض الظروف غير المتصرفة وهي:

١ ـ أنها لابتداء الغاية كما جاء في (المغني).

٢ ـ أنها بمعنى (في) كما جاء في (شرح الرضي على الكافية).

٣ ـ أنها زائدة للتأكيد كما في (الصحاح).

وقد ذهب السيوطي إلى أن أصح الآراء أنها ابتدائية ، وقال إنه قول الجمهور[2].

ويقول الدكتور فاضل السامرائي: «وهي ليست بمعنى (في) لأن الأصل عدم النيابة ، وليست بزائدة لأن الأصل عدم الزيادة. وإذا أمكن عدم إخراجها من معناها الذي وضعت له فهو الأولى ، ولا تصرف عن معناها الأساسي إلا إذا تعذّر إبقاؤها عليه»[3].

بعد هذه المقدمة نعود إلى الآيات المتشابهة لنرى سبب دخول (من) على (قبل ، وبعد) في موطن منها دون موطن آخر ، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

---

(١) مغني اللبيب ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) ينظر همع الهوامع ٤/ ٢٢٠.

(٣) معاني النحو ٢/ ٦٢٠.

وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥].

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

نلاحظ في هذه الآيات دخول (من) على (بعد) في آية العنكبوت دون الآيتين الأخريين.

يرى ابن الزبير أن زيادة (من) في آية العنكبوت للتوكيد، ويذكر أن سبب التوكيد مناسبة ما قبلها من قوله: (من نزّل) لأن صيغة (فعّلَ) للمبالغة والتكثير وذلك مما يستدعي البيان والتأكيد فنوسب بينهما. «ولما لم يقع في الآيتين الأخريين إلا لفظ (أنزل) ولا مبالغة فيها ولا تأكيد... لم يكن فيهما ما يستدعي زيادة (من) ليناسب بها فلم تقع في الآيتين»[1].

وأما الدكتور فاضل السامرائي فقد وجّه آية العنكبوت بناءً على ما تفيده (من) من ابتداء الغاية الزمانية فقال: «إن الآية في سورة العنكبوت تدور حول المشركين الذين يشركون بالله ويعبدون معه آلهة أخرى، وهي تعجيب من عقولهم وإظهار لمقدار تفكيرهم وباطلهم، فهم يعبدون آلهة من الحجر أو من غيره، في حين لو سألتهم: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ، ... فأدخل (من) في هذا الموطن للدلالة على مقدار قدرة الله وعظمها، وذلك أن قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني أحياها في الزمن الذي هو بعد الموت، وهو يحتمل الزمن القريب والبعيد، أي يحصل الإحياء بعد إنزال الماء، وقد يطول الزمن بعده وقد يقصر... ولكن قوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) ملاك التأويل ١/١٠١ـ١٠٢.

﴿مَوْتِهَا﴾ معناه يكون الإحياء بعد الموت بلا مهلة ولا فاصل ، ومعنى ذلك أن الله قادر على أن يحيي الميت فورًا بلا مهلة ، فهو لا يحتاج إلى زمن لإحيائه ، وهو أدل على قدرة الله ، وإن كان كلاهما من قدرة الله وحده ، وقد جاء بـ (من) في هذا المقام للدلالة على أنهم يشاهدون ذلك ويقرّون أن الله يحيي الأرض من الموت بلا مهلة ومع ذلك يعبدون غيره»[1] .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ [النحل : ٧٠] .

وقوله : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ [الحج : ٥] .

فقد دخل حرف الجر (من) على (بعد) في آية الحج دون آية النحل ، وسبب ذلك عند ابن الزبير هو التناسب ومراعاة اللفظ ، فآية الحج جاء في سياق قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . . وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ﴾ فلتكرر (من) في هذه الآية ناسب ذلك قوله : (من بعد) .

أما آية النحل فليس فيها ما يستدعي زيادتها ولذا قال: ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾[2] .

أما البقاعي فقد بيّن سبب تخصيص آية الحج بزيادة (من) بما تفيده (من) من ابتداء الغاية الزمانية فقال : «ولما كان السياق للقدرة على البعث

---

(١) معاني النحو ٢/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤ .

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦١٢ ـ ٦١٣ .

الذي هو التحويل من حال الجمادية إلى ضده بغاية السرعة أثبت (من) الابتدائية للدلالة على قرب زمن الجهل من زمن العلم ، فربما بات الإنسان في غاية الاستحضار لما يعلم والحذق فيه فعاد في صبيحة ليلته أو بعد أيام يسيرة جدًّا من غير كبير تدريج لا يعلم شيئًا» (١) .

ويعني قوله هذا أن قوله تعالى : ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ «أن الجهل يبدأ من بعد العلم بلا مهلة ، فهناك حالة علم تبدأ منها حالة الجهل التام. أما قوله: ﴿بَعْدِ عِلْمٍ﴾ فيحتمل الزمن القريب والبعيد ، فهو كقولك : (جئت بعد خالد) يحتمل الزمن القريب والبعيد ، أما (من) فقد أفادت الابتداء ، أي يبدأ الجهل مباشرة بعد العلم بلا مهلة ولا فاصل ، وهو أدلّ على قدرة الله ، وذلك لأنه انتقال مباشر من العلم إلى الجهل. أما قوله: ﴿بَعْدِ عِلْمٍ﴾ فيحتمل أن مرت عليه مدة طويلة من غياب بعض المعلومات ونسيانها إلى الجهل. فمعنى ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أنه قادر على أن يغيّر بأقرب وقت من حال إلى حال ، وهو المناسب لمقام تبيان القدرة لمنكري البعث» (٢) .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه : ١٢٨] .

وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة : ٢٦] .

يقول ابن الزبير في توجيه هاتين الآيتين : «وأما زيادة (من) في قوله في سورة السجدة : ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ فإنها مقصود فيها استغراق عموم ، لمناسبة

---

(١) نظم الدرر ١٣/ ١١ .
(٢) معاني النحو ٢/ ٦٢١ ـ ٦٢٢ .

ما تقدم هذه الآية من حصر التقسيم في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨] وما أعقبت به مما يفهمه قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ إذ ليس هذا الوصف كالوارد في سورة طه من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ فهذا يشعر [بخصوص يناسبه سقوط (من) الاستغراقية، وما في آية السجدة يشعر] [١] بعموم واستغراق يناسبه زيادة (من) في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾» [٢].

وإذا كان ابن الزبير قد وجّه الآيتين بناءً على ما تفيده (من) من الاستغراق والعموم فإن الخطيب الإسكافي قد وجّههما بناءً على ما تفيده من ابتداء الغاية الزمانية فقال: «إن القائل إذا قال: (كم أهلكنا قبلهم) فكأنه قال في الزمن المتقدم على زمانهم، وإذا قال: (من قبلهم) فكأنه قال من مبتدأ الزمان الذي قبل زمانهم» [٣].

ومعنى كلامه هذا أنه عندما قال: ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ فإن الزمن المتقدم على زمانهم غير محدد، فقد يكون طويلاً وقد يكون قصيرًا.

وعندما قال: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ فإن الهلاك صار في الزمن الذي قبل زمانهم مباشرة، وهذا معنى قوله: «من مبتدأ الزمان الذي قبل زمانهم».

وهناك سبب آخر للتخصيص وهو «أنه ذكر في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه [أي الرسول] فقال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠ ـ ١١] فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية.

---

(١) هذه الإضافة من طبعة سعيد الفلاّح ٢/ ٨٢٩.

(٢) ملاك التأويل ٢/ ٦٨٩.

(٣) درة التنزيل ٢٩٦.

ولم يرد مثل ذلك في(طه) فإنه ذكر قوم موسى وأحوالهم ، وهم قبل الرسول بمدة طويلة وليسوا من قبله» (١).

نلاحظ مما سبق أن توجيهات ابن الزبير للآيات التي دخلت فيها (من) على (قبل ، وبعد) دون آيات مشابهة لها هي مختلفة ، فقد وجّه بعضها بناءً على ما يستدعي زيادتها من البيان والتأكيد ، وبعضها بناءً على ما تفيد زيادتها من الاستغراق ، ووجّه بعضها الآخر توجيهًا لفظيًا. ويبدو لي أن السير على نمط واحد من التوجيه أولى من السير على أنماط مختلفة ، كما رأينا توجيه الآيات السابقة على نمط واحد وهو ما تفيده (من) من ابتداء الغاية الزمانية.

* * *

ومن ذلك ذكر وحذف (من) الزائدة ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

فقد قال في آية يونس: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ ، في حين قال في آية سبأ: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ فما سبب ذلك؟

يذكر النحاة أن مما تفيده (من) الزائدة الاستغراق والعموم، فإذا قلت: (ما جاءني رجل) فإن هذا التعبير احتمالي ، فيحتمل أنه لم يأتك أحد من

(١) التعبير القرآني ١٨٩ .

جنس الرجال، ويحتمل أنه لم يأتك رجل واحد بل أكثر من ذلك. فإذا قلت: (ما جاءني من رجل) فقد صار النفي نصًّا في نفي الجنس. جاء في (المقتضب): «وذلك قولك: (ما جاءني رجل) فيجوز أن تعني رجلاً واحدًا... فإذا قلت: (ما جاءني من رجل) لم يقع ذلك إلا للجنس كله» (١).

وجاء في (الأصول في النحو): «وإنما تدخل (من) في هذا الموضع لتدل على أنه نفى كل رجل وكل أحد. ولو قلت: (ما رجل في الدار) لجاز أن يكون فيها رجلان أو أكثر. وإذا قلت: (ما من رجل في الدار) لم يجز أن يكون فيها أحد ألبتة» (٢).

مما سبق نستطيع أن نقول: إن آية يونس قد قصد بها من الاستغراق والعموم ما لم يقصد في آية سبأ.

أما سبب تخصيص آية يونس بزيادة (من) فقد ذكر ابن الزبير أن الآية افتتحت بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ «[فدخول (من) في المفعول في الموضعين من قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾] (٣) فزيدت في المفعول وهو اسم نكرة وارد في سياق النفي وذلك محصِّل للاستغراق، ثم حمل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾» (٤).

ويمكن توجيههما توجيهًا آخر وهو «أن الكلام في آية يونس على إحاطة علم الله بعلم الغيب وأنه يعلم كل شيء، وبدأ الآية بقوله: ﴿وَمَا

---

(١) المقتضب ٤/ ٤٢٠.
(٢) الأصول في النحو ١/ ١٠٩، وينظر الجنى الداني ٣٢٠، ومغني اللبيب ١/ ٣٢٢.
(٣) هذه الإضافة من طبعة سعيد الفلاح ١/ ٦٢٧.
(٤) ملاك التأويل ١/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ .

وأما في آية سبأ فالكلام على الساعة ابتداء ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ . . . ﴾ فجاء بعلم الغيب تبعاً للساعة .

أما في آية يونس فالكلام ابتداء على علم الغيب ومقدار علم الله وإحاطته بكل شيء بحيث لا يندّ عنه شيء ، فناسب ذلك زيادة (من) الاستغراقية المؤكدة التي تستغرق كل مذكور» [١] .

والملاحظ أن في آية يونس تناسباً بين قوله : ﴿مِن مِّثْقَالِ﴾ التي تفيد الاستغراق والعموم وبين (لا) النافية للجنس في قوله في الآية نفسها : ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ ﴾ لأن النحاة يذكرون أن اسم (لا) النافية للجنس يبنى إذا كان مفردًا لتضمنه (من) الاستغراقية .

جاء في (شرح المفصل) : «أن (لا) بنيت مع النكرة لأنها لما وقعت في جواب (هل من رجل عندك؟) على سبيل الاستغراق ، وجب أن يكون الجواب أيضًا بحرف الاستغراق الذي هو (من) ليكون الجواب مطابقًا للسؤال ، فكان قياسه (لا من رجل في الدار) ليكون النفي عامًّا كما كان السؤال عامًّا» [٢] .

* * *

٥ ـ (أنْ) الزائدة :

تطّرد زيادة (أنْ) بعد (لمّا) . وعلى الرغم من أنها زائدة كما يقول

---

(١) التعبير القرآني ٢٨٥ .

(٢) شرح المفصل ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦ ، وينظر شرح الرضي على الكافية ١/ ٢٥٦ .

النحاة[1] فهذا لا يعني أن وجودها كعدمه ، فقد نقف على آيتين متشابهتين زيدت (أنْ) في موطن منها دون الموطن الآخر ، ولا بد أن يكون هناك سبب اقتضاه السياق دعا إلى ذلك .

من ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود : ٧٧] .

وقوله : ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت : ٣٣] .

فقد زيدت (أنْ) بعد (لمّا) في الآية الثانية علماً بأن فحوى الخبر واحد في كلتا الآيتين . يقول ابن الزبير : «لما ورد في آية هود قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ثم ورد هذا اللفظ بجملته في سورة العنكبوت متكررًا بعينه ، ورد أولاً بغير (أنْ) على الأصل ، وورد ثانيًا بزيادة (أنْ) على الثاني ليحصل بين التواردين ما يرفع تثاقل اللفظ المتكرر . . . وتأخرت الزيادة ـ إذ هي غير الأصل ـ إلى المتأخر من الآيتين» [2] .

وأقول : إن هناك أكثر من غرض معنوي لزيادة (أنْ) ، من ذلك أنها تأتي للدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار ، أي أن استطالة الوقت مناسب لاستطالة الآية بزيادة (أنْ) ، فإن «برمَ لوط بقومه وضيقه بهم في سورة العنكبوت كان أظهر وأشد مما في سورة هود ، كما يبدو أن ترقب لوط للتخلص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر مما في هود ، يدل على ذلك عدة مواضع في القصة : منها قوله في سورة العنكبوت :

---

(١) ينظر الكتاب٢/ ٣٠٦ ، والمقتضب١/ ٤٩ ، وشرح المفصل٨/ ١٣٠ ، ومغني اللبيب ١/ ٣٣ .

(٢) ملاك التأويل ٢/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧ .

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ ﴾ [العنكبوت: ٣٣] ، في حين قال في هود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ [هود: ٧٧] فزاد في آية العنكبوت قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ ، ومنها دعاؤه ربه أن ينصره على قومه بعدما كذبوه وتعجّلوا العذاب قائلين: ﴿ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] فقال: ﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٠] وليس الأمر كذلك في هود ، فإنهم لم يصرّحوا بتكذيبه ولم يدع لنفسه بالنصر.

ومنها التصريح بلفظ التنجية ومجيء الفرج في سورة العنكبوت مرتين، مرة مع سيدنا إبراهيم إذ قال ملائكة الله له في لوط: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] ، ومرة مع لوط نفسه ، إذ قالوا له: ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ ﴾ [العنكبوت: ٣٣] ولم يرد مثل ذلك في هود»[١].

ومجيء (أنْ) للدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار قد ورد في أكثر من موضع ، من ذلك آية العنكبوت المذكورة آنفاً ، ومنها قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا ﴾ [يوسف: ٩٦].

يقول ابن الزبير: «لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الحزن وتباعد المدة ناسب ذلك زيادة (أنْ) لما في مقتضى وضعها من التراخي»[٢]. وقد نقل السيوطي هذا النص بحروفه ولم ينسبه إلى أحد[٣].

ومن أغراض زيادتها التفصيل ، فيرد ذكرها في موضع التفصيل وتحذف من موضع الإيجاز. ووجه ذلك في هاتين الآيتين أنه «أفاض في

---

(١) التعبير القرآني ١٠٥.

(٢) ملاك التأويل ٢/ ٥٢٧.

(٣) ينظر معترك الأقران ٣/ ٣٥٩.

ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما هو في هود ، فقد ذكر فيها من صفات قوم لوط السيئة ما لم يذكره في هود ، فقد قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩] ولم يزد في هود على أن قال: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨] ففصّل في عمل السيئات ما لم يفصّله في هود.

فلما كان المقام مقام إطالة وتفصيل في سورة العنكبوت ذكر (أنْ) لمناسبة سياق الإطالة والتفصيل ، بخلاف سورة هود» (١).

* * *

٦ ـ (ما) الزائدة:

يقول النحاة: إذا زيدت (ما) بعد أدوات الشرط فإنها تفيد التوكيد. يقول سيبويه في كلامه على (ما): «وتكون توكيدًا لغوًا وذلك قولك: (متى ما تأتِني آتِك) وقولك: (من غير ما جرمٍ) وقال الله عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ (٢) ، فهي لغو في أنها لم تُحدث إذا جاءت شيئًا لم يكن قبل أن تجيء من العمل ، وهي توكيد للكلام» (٣).

ويقول المبرد: «فـ (ما) تدخل على ضربين: أحدهما: أن تكون زائدة للتوكيد فلا يتغير الكلام بها عن عمل ولا معنى. . . » (٤).

ويقول ابن يعيش: «قد تزاد (ما) مع (إنْ) الشرطية مؤكدة نحو قولك:

---

(١) التعبير القرآني ١٠٥.
(٢) النساء ١٥٥.
(٣) الكتاب ٢/ ٣٠٥.
(٤) المقتضب ٢/ ٥٤.

(إمّا تأتِني آتِك) زيدت (ما) على (إنْ) لتأكيد معنى الجزاء»[(١)].

ولم يوجّه ابن الزبير ما ذكر من الآي المتشابه كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ [فصلت: ٢٠]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] التي زيدت (ما) بعد أداة الشرط في الموطن الأول منها وحذفت من الموطن الآخر، لم يوجههما بناءً على ما ذكرناه من إفادتها التأكيد، وإنما ذكر أن سبب زيادتها في آية فصلت أن هذه الآية مبنية على ما يستدعي الإطالة، وأما سبب عدم ذكرها في آية الزخرف أنها مبنية على الإيجاز[(٢)].

وتوضيح ذلك أن سورة (فصلت) قد فصّلت القول في حال أهل النار، فقد ذكرتهم في عشر آيات (من الآية ١٩ إلى الآية ٢٩). فناسب تلك الإطالة وذلك التفصيل زيادة (ما) بعد (إذا) فيها.

أما سورة الزخرف فلم تفصل القول في حال أهل النار وإنما أوجزت القول فيهم، فقد ذكرتهم في أربع آيات فقط (من الآية ٧٤ إلى الآية ٧٨) فناسب ذلك الإيجاز حذف (ما).

وقد وضع الخطيب الإسكافي قاعدة لاستعمال (ما) بعد (إذا) فقال: «إنه إذا قصد توكيد معنى الشرط الذي تضمنه (إذا) لقوّة معنى الجزاء استعملت (ما) بعدها. وإذا لم يقصد ذلك لقرب معنى الجزاء من الشرط لم يستعمل (ما) بعدها»[(٣)].

ثم يوجه الآيتين بناءً على هذه القاعدة فيقول: تضمنت آية (فصلت) «شهادة السمع والبصر وسائر الجوارح من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المجيء، ألا ترى استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم:

---

(١) شرح المفصل ٩/ ٥.

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٨٤٣.

(٣) درة التنزيل ٤١٨.

﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ فأجابوا بأن ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

وليس كذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ ، وكذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ . . . فليس في الجزاء ما يوجب قوة الشرط من المعنى الذي لا يتوقّع ولا يستفاد إلا به ومنه» (١) .

ويقول الزمخشري : «فإن قلت : (ما) في قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ ما هي؟ قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم» (٢) .

مما سبق يتبين لنا أن توجيه الخطيب والزمخشري قد استنبطا مما تفيده زيادة (ما) بعد (إذا) من التوكيد ، بخلاف توجيه ابن الزبير .

ب ـ ذكر وحذف اسم

وهذا يعني أن القرآن الكريم قد يذكر اسماً في آية ويحذفه من آية أخرى شبيهة بها مراعياً في ذلك النظم . وهذه الآيات كثيرة ، وقد ذكر ابن الزبير قسماً كبيراً منها بحيث لو استقصيناها كلها لطال بنا المقام ، ولذا سنقف على نماذج منها .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [البقرة : ٥٨] .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف : ١٦١] .

فقد زيدت (رغداً) في آية البقرة دون آية الأعراف .

ويعلل ابن الزبير ذلك بأن (اسكنوا) الوارد ذكرها في آية الأعراف يفهم منها المكث والإقامة ، ولذا لا داعي لقوله : (رغداً) .

---

(١) درة التنزيل ٤١٨ .

(٢) تفسير الكشاف ٣/ ٦٩ .

أما قوله: (ادخلوا) المذكورة في آية البقرة فلا يفهم منها المكث والإقامة فقال: (رغداً) ليحرز هذا المعنى[1].

ويرى الخطيب الإسكافي وغيره من العلماء أن الله تعالى لما أسند القول إلى نفسه في آية البقرة قال: (رغدًا) تكريمًا لهم وتشريفًا.

ولما لم يسند القول إلى نفسه في آية الأعراف، وإنما قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ ببناء الفعل للمجهول ناسب ذلك حذف (رغدًا) منها[2].

كما أن آية البقرة جاءت في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل، بخلاف آية الأعراف كما ذكرنا ذلك من قبل، ولما كان الأمر كذلك ناسب مجيء (رغدًا) في آية البقرة دون آية الأعراف.

* * *

ومن ذلك ذكر وحذف الضمير نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨١].

نلاحظ أنه ذكر الضمير (هو) في جميع الآيات المذكورة ما عدا قوله: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

وسبب ذلك عند ابن الزبير وغيره من العلماء أن أمر الهداية والإطعام والسقاية والشفاء مما يمكن أن يدّعيها الخلق، فيقال مثلاً: (كانت هدايته على يد فلان)، ويقال: (أطعمه فلان وسقاه)، و(شفاه الطبيب من المرض) فلما كانت هذه الأمور مما يمكن أن يدّعيها الخلق ناسب ذلك توكيدها بالضمير.

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٦٠.

(٢) ينظر درة التنزيل ١٦، والبرهان للكرماني ٢٨، وتفسير الرازي ٣/ ٩٣، وبصائر ذوي التمييز ١/ ١٤٣.

أما أمر الإماتة والإحياء فهي من الأمور التي لا يدّعيها أحد ، وإنما أمرهما بيد الله وحده ، فلم يحتج فيهما إلى التوكيد بالضمير(١) .

* * *

ومن ذلك ذكر (ذا) بعد (ما) الاستفهامية في موطن دون آخر نحو قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧١] فلم تذكر (ذا) بعد (ما) الاستفهامية في هذا الموطن.

في حين ذكرت بعدها في قوله: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٧].

يقول ابن الزبير مفرقًا بين (ما)الاستفهامية و (ماذا): «ومن المفهوم عن العرب أن المستفهم إذا قصد التقريع والتوبيخ أطال كلامه إدلاءً بحجته وتعنيفاً لمن يخاطبه»(٢) .

وهذا يعني «أن في (ماذا) قوة ومبالغة في الاستفهام ليست في (ما). ففي قولنا: (ماذا فعلت؟) قوة ليست في (ما فعلت؟) ولعل ذلك يعود إلى زيادة حروفها»(٣) .

ثم يبين ابن الزبير سبب تخصيص كل آية باسم الاستفهام الذي وردت فيه بناءً على هذا الفرق الذي بينهما فقال: إن إبراهيم عليه السلام بيّن لهم في آية الصافات شنيع مرتكبهم فقال لهم: «﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ، وقال لهم: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٧٤٨ ـ ٧٤٩ ، ودرة التنزيل ٣٣٢ ، والبرهان للكرماني ١٤١ ، والبحر المحيط ٧/ ٢٤ .

(٢) ملاك التأويل ٢/ ٧٤٧.

(٣) معاني النحو ٤/ ٦٣٧ .

[الصافات: ٩٥ ـ ٩٦] فناسب هذا التعنيف والتوبيخ قوله: (ماذا)، وهذا الأمر غير موجود في آية الشعراء[1].

وقد سبقه إلى هذا الرأي الخطيب الإسكافي، فقال مفصلاً القول في الفرق الذي بينهما: إن إبراهيم عليه السلام سألهم سؤال المستفهم في آية الشعراء، حيث قال لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، فسألهم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣]، فأجابوه قائلين: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

«وأما ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ في سورة الصافات فإنها تقريع، وهو حال بعد التنبيه، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوا كإجابتهم في الأول، ثم أضاف تبكيتًا إلى تبكيت ولم يستدعِ منه جوابًا فقال: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية.

ولما بالغ وقرّع استعمل اللفظ الأبلغ وهو (ماذا) التي إن جعلت (ذا) منها بمعنى (الذي) فهو أبلغ من (ما) وحدها، وإن جعلا اسمًا كان أيضاً أبلغ وأوكد مما إذا خلت من (ذا)»[2].

مما سبق يتبين لنا أن المقام في آية الشعراء مقام محاجّة، بخلاف آية الصافات فإن المقام فيها مقام تحدٍّ وتقريع.

«ويوضح ذلك نهاية السياقين، ففي آية الشعراء قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٧٤٧.

(٢) درة التنزيل ٣٣١، وينظر كشف المعاني ٢٨٠.

وأما في آية الصافات فانتهى السياق بتحطيم الأصنام وتحريقه بالنار: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٩١ ـ ٩٧].

فثمة فرق بين النهايتين وبين السياقين، فجاء في مقام المجابهة وشدة التحدي بـ (ماذا) دون المقام الآخر الذي جاء فيه بـ (ما)» [(١)].

ثالثاً ـ ذكر وحذف أكثر من كلمة

وهذا النوع من الذكر والحذف قسمان: أحدهما ما يكون جملة، والآخر ما ليس بجملة، وسنقف على نماذج من كلٍّ من القسمين:

أ ـ ما كان جملة

فقد تحذف جملة كاملة من آية وتذكر في آية أخرى شبيهة بها، كل ذلك بصورة فنية يقتضيها النظم ولا يقتضي غيرها. ولابن الزبير وقفات على بعض هذه الآيات. وسنقف على بعضها لنرى رأيه في توجيهها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ٨].

بزيادة ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ ﴾ في آية لقمان دون آية الجاثية.

يرى ابن الزبير أن سبب ذلك هو أن آية الجاثية قد افتتحت بقوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ فوصف الأفّاك الأثيم بسماعه آيات الله تتلى عليه، فلم يكن ذلك ليناسب قوله: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ ﴾ حيث إن

---

(١) معاني النحو ٤/٦٣٨ ـ ٦٣٩.

الوقر مانع من السمع ، إذ كيف يسمع آيات الله وفي أذنيه وقر؟

أما آية لقمان فلم يرد فيها ذكر سماع آيات الله فناسبها ذكر الوقر في الأذن[1] .

ويذهب الفيروزابادي إلى أنه لم يقل في آية الجاثية: ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ لأنه قال بعدها: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا ﴾ [الجاثية: ٩] «والعلم لا يحصل إلا بالسماع ، أو ما يقوم مقامه من خط وغيره»[2] . وإذا كان الأمر كذلك فليس من المناسب أن يقول: ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ، إذ كيف يعلم من آيات الله إذا كان في أذنيه وقر؟

ب ـ ما ليس بجملة

من ذلك ذكر وحذف الجار والمجرور ، فقد نقف على آيتين متشابهتين يذكر الجار والمجرور في موطن منها ويحذف من الموطن الآخر نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ١٧] .

وقوله: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح: ١١] بزيادة (لكم) في آية الفتح دون آية المائدة .

وقد وجه ابن الزبير آية الفتح بناءً على سبب النزول ، فقد نزلت هذه الآية في قوم مخصوصين تخلفوا عن غزوة الحديبية من غير عذر وهم الأعراب ، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ [الفتح: ١١]. فلما كان الخطاب خاصًّا بقوم مخصوصين ناسب ذلك زيادة (لكم) .

أما آية المائدة فليست خاصّة بقوم ، وإنما هي عامّة في المسيح وأمه

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٧٨٩ ـ ٧٩٠ .
(٢) بصائر ذوي التمييز ١/ ٣٧٢ .

ومن في الأرض جميعًا. فلم يكن ليناسب هذا العموم زيادة (لكم)[1]. وقد سبقه إلى هذا التوجيه الإسكافي والكرماني[2].

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

وقوله: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

للسائل أن يسأل عن سبب زيادة (لك) في الآية الثانية فقط.

يقول ابن الزبير: «لما كان من موسى عند خرق السفينة ما كان من الإنكار بقوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١] ذكّره الخضر بما كان قد قاله له فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فاعتذر موسى عليه السلام بقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، فلما وقع منه بعد ذلك إنكار قتل الغلام بقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤] وأبلغ في وصف الفَعلة بقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ قابل الخضر ذلك بتأكيد الكلام المتقدم فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾. فالضمير المجرور بيان جيء به تأكيدًا ليقابل بالكلام ما وقع جوابًا له من موسى عليه السلام زيادة للتناسب»[3].

وقد وجه عدد من العلماء على نحو ما وجه ابن الزبير. يقول الخطيب الإسكافي ـ مثلاً ـ مبيّنًا سبب زيادة (لك) في الآية الثانية: «فلما رأى قتل الغلام وعاد إلى الإنكار أكّد التقرير الثاني بقوله: (لك) كما يقول القائل: (لك أقول وإياك أعني)»[4]. فالتوبيخ في الآية الثانية أشد منه في الآية

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٤٨.

(٢) ينظر درة التنزيل ٩٤، والبرهان ١٧٦.

(٣) ملاك التأويل ٢/ ٦٥٣.

(٤) درة التنزيل ٢٨٥، وينظر البرهان للكرماني ١٢٢، وتفسير الرازي ٢١/ ١٥٥، وفتح=

الأولى ، فناسب ذلك زيادة (لك) فيها .

وزيادة الكلمات بزيادة التوبيخ مستعمل في كلامنا الدارج ، فعندما ترى شخصًا يصرّ على عمل لا يقوى عليه تخاطبه قائلاً : (قلتُ إنك لا تستطيع أن تفعل هذا الشيء) ، فإذا عاود فعله قلت له : (قلتُ لك إنك لا تستطيع أن تفعل هذا الشيء) بزيادة (لك) ، فإذا كرّر محاولته قلت له : (قلت لك مراراً إنك لا تستطيع أن تفعل هذا الشيء) بزيادة (مراراً) . ففي كل مرة ترى نفسك تزيد في تقريعك كلمة أو أكثر على ما قلته في تقريعك السابق ، وذلك للزيادة في التأنيب والتوبيخ .

* * *

ونحو هذا ما نراه في توجيه ابن الزبير قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود : ٣١] .

بتكرار ضمير الخطاب المجرور (لكم) في آية الأنعام فقط .

يقول ابن الزبير : «إن الوارد في سورة هود إنما هو حكاية قول نوح عليه السلام ملاطفًا ومشفقًا من حال قومه . ألا ترى استفتاح خطابه لهم بقوله : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [هود : ٢٨] ، وقوله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾ [هود : ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٣٠ ـ ٣١] فتأمل جليل ملاطفته عليه السلام لهم ، وما يُفهم من كلامه من عظيم الإشفاق على حالهم ، وإرادته ما به نجاتهم من العذاب . . . فهذا كله استلطاف في

= القدير ٣/ ٢٩٢ ، وروح المعاني ٢/ ١٦ .

الدعاء لا يناسب تكرار كلمة تُفهم تعنيفًا أو توبيخًا ، والتأكيد والتكرار يُفهم ذلك . . .

وأما قوله تعالى في آية الأنعام : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾ فوارد طيّ كلام أُمر ﷺ بتبليغه عُتاة قريش والعرب توبيخًا لهم وتقريعًا . . . فتكرر فيها قوله : (لكم) تأكيداً يُفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقريع» (١) .

* * *

ومن ذلك ذكر وحذف حرف العطف والمعطوف ، بمعنى أن تمر بنا آيتان متشابهتان ، لكن في إحداهما زيادة عطف على ما في الآية الأخرى ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة : ٩٤] .

وقوله : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

بزيادة (والمؤمنون) في الآية الثانية .

وتوجيه ذلك عند ابن الزبير وغيره من العلماء أن الآية الأولى في المنافقين ، وهم الذين يُبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ، والنفاق عمل يخفيه المنافق فلا يطّلع عليه إلا الله سبحانه ، وقد يُطلع عليه رسوله ومن شاء من عباده ، فلم يقل (والمؤمنون) لأن المؤمنون لا يرون أعمال المنافقين .

وأما الآية الثانية فهي في المؤمنين وطاعاتهم فقال : (والمؤمنون) لأن الأعمال الإسلامية يشاهدها المسلمون بعضهم عن بعض كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من الأعمال .

قال تعالى في المنافقين : ﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا

---

(١) ملاك التأويل ١/٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

﴿تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

وقال في المؤمنين: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٣ ـ ١٠٥] (١).

* * *

ومن ذلك ذكر حرف النداء مع المنادى في موطن وحذفه من موطن آخر. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

فزاد في آية المائدة (يا قوم). وسبب هذه الزيادة ـ كما يراها ابن الزبير ـ أنه في آية المائدة ذكّرهم بالآلاء والنعم الجسام من جَعْل الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكًا وإعطائهم ما لم يُعطَ غيرهم، «فناسب ذلك نداء موسى عليه السلام إياهم بقوله (يا قوم) بالإضافة إلى ضميره إنباءً بالقرب والمزية...» (٢).

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٧٢ ـ ٤٧٦، ودرة التنزيل ٢٠٣، والبرهان للكرماني ١٣٨، وكشف المعاني ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) ملاك التأويل ١/ ٢١٥.

وهذا يعني «أن الإنسان يحب أن ينتسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية ، بخلاف المستذلين والمستعبدين وهو سياق الآية الثانية» (١) حيث ذكّرهم فيها «بنجاتهم من آل فرعون وما كان يسومهم به من ذبح ذكور أبنائهم واستحياء نسائهم للمهانة. . . فناسب ذلك الاقتصار على خطابهم دون النداء» (٢) .

جاء في (البرهان) للكرماني أن «تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به ، ولما كان ما في هذه السورة نعمًا جساماً ما عليها مزيد وهو قوله : ﴿ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صرح فقال: يا قوم. . . ولم يكن ما في إبراهيم بهذه المنزلة فاقتصر على حرف الخطاب» (٣) .

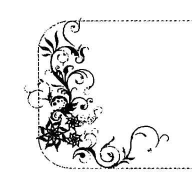
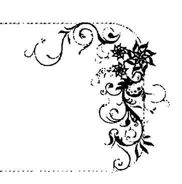
وهناك سبب آخر لتخصيص آية المائدة بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وهو أن موسى عليه السلام «طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] فناداهم بـ (يا قوم) عطفًا لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتكليفهم بهذا الأمر الشاق.

أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تكليف بأمر ، وإنما فيها تذكيرهم بما مرّ عليهم من محن وعذاب ، وفرق بين الحالتين» (٤) .

* * *

---

(١) التعبير القرآني ١١٧ .
(٢) ملاك التأويل ١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ .
(٣) البرهان ١٠٣ .
(٤) التعبير القرآني ١١٧ .

المَبْحَثُ الثَّالِثُ
التوكيد

التوكيد أسلوب يفيد تقرير المؤكد وتمكينه في نفس السامع وقلبه. جاء في(الطراز): «اعلمْ أن التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره» [1]. هذا هو تعريفه.

أما فائدته فقد بيّنه الزمخشري في قوله: «وجدوى التأكيد أنك إذا كرّرت فقد قرّرت المؤكد وما علّق به في نفس السامع ومكّنته في قلبه وأمطتَ شبهة ربما خالجته، أو توهّمت غفلة وذهابًا عما أنت بصدده فأزلته» [2].

وما يهمنا من هذا الموضوع بلاغة التوكيد في القرآن الكريم. «إن التوكيد في القرآن كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة. وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه، فهو يؤكد في موطن ما مراعيًا موطنًا آخر قرُب أو بعُد، فتدرك أنه أكّد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد، ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهًا به لانعدام موجبه.

وترى أنه أكّد بمؤكدين وأكّد في موطن آخر يبدو شبيهًا به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له.

وكذلك في اختيار المؤكدات، فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة، وهنا بإنّ المشددة، وفي موطن آخر بإنْ المخففة، ويستبدل حرفاً بحرف، كل ذلك بحسب منظور فني متكامل في

---

(١) الطراز ٢/ ١٧٦.

(٢) المفصل ٢/ ٤.

كل القرآن، فجاء التوكيد كله في القرآن كله كأنه لوحة فنية واحدة» [1].

بعد هذه المقدمة نعود إلى الآيات التي ذكرها ابن الزبير لنرى من خلال توجيهاته سبب توكيدها في موطن ، وعدم توكيدها في الموطن الآخر ، ولنقف على أسباب اختلاف المؤكدات في المواطن التي اختلفت فيها.

١ ـ التوكيد بضمير الفصل:

وهو حرف عند أكثر النحاة[2] . ومما يفيده ضمير الفصل الاختصاص والقصر. جاء في (الإيضاح): «وأما توسط الفصل بينه وبين المسند فلتخصصه به كقولك: زيد هو المنطلق ، أو هو أفضل من عمرو ، أو هو خير منه ، أو هو يذهب» [3].

كما أن مما يفيده ضمير الفصل التوكيد الذي «سماه بعض الكوفيين دعامة ، لأنه يدعّم به الكلام ، أي يقوّى ويؤَكَّد» [4].

وفي القرآن الكريم آيات أكّدت بضمير الفصل فأفادت الاختصاص والقصر كما أفادت التوكيد.

ويهمنا منها الآيات المتشابهة التي أكّدت بضمير الفصل في موطن منها ولم تؤكّد في موطن آخر شبيه به لنرى رأي ابن الزبير وغيره من العلماء في توجيه ما وجّه منها.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

---

(١) التعبير القرآني ١٢٥.
(٢) ينظر الأصول في النحو ٢/ ١٢٨ ، والمساعد على تسهيل الفوائد ٢/ ١١٩ ، وشرح الكافية الشافية ١/ ٤٤٥ ، والجنى الداني ٤٤٥.
(٣) الإيضاح ١/ ٥٢ ، وينظر مغني اللبيب ٢/ ٤٩٦.
(٤) مغني اللبيب ٢/ ٤٩٦.

وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

فقد ورد ضمير الفصل (هو) في آية فصّلت دون آية الأعراف، وسبب ذلك عند ابن الزبير أن آية الأعراف لم يتقدمها من خلق الله ما هو موصوف بالسمع والعلم، بل تقدّمها وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب، فوصفت بأنها لا تخلق شيئًا ولا تستطيع لهم نصرًا، قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢]، ثم قال: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

ونفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة المشي وآلة البطش بقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ ﴾ [الأعراف: ١٩٥] فلم يتقدّم هنا أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء، وعلى ذلك فلا داعي للتأكيد بضمير الفصل.

أما آية فصّلت فقد تقدّم قبلها قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢]، وقوله: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وهؤلاء المضِلّون من عالمي الجن والإنس موصوفون بالسمع والبصر وينسب إليهم العلم، ولهذا أكّد بضمير الفصل ليصير الكلام: الله السميع العليم لا غيره ممن يسمع ويبصر ويعلم، وأحرز الفصل بالضمير هذا المعنى[١]. وقد ذهب البقاعي إلى ما ذهب إليه ابن الزبير[٢].

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٢) ينظر نظم الدرر ٨/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

ويوجههما الخطيب الإسكافي توجيهًا آخر فيقول: إن آية فصلت سبقها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥] فهذه الآية وردت «بعد دعاء إلى ما يشق على الإنسان فعله وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ويقابل غلظ عدوّه بالملاينة استكفافًا لشره وأذاه، حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعل فيصير وإن كان عدوّاً كأنه صديق قريب القربى، ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾... فلما كان الأمر الذي بعث الله تعالى أولياءه شاقًّا عظيمًا حتى قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم، والمؤمن لها أيقظ، ومن قبولها أبعد، وكان الترغيب في مدافعته أبلغ، وتقدير علم الله تعالى بما يلاقيه من ذلك أوكد، فجاء قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾...

وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة السجدة(١)، بل كان ما هناك بعثًا على أحسن الأخلاق ولم يخص نوعًا من المشاقّ كما خص في سورة السجدة، فلم تقع المبالغة في اللفظ واقتصر في الخبر على الأصل وهو ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾»(٢).

وهذا القول يعني «أنه طلب في سورة فصلت أن يقابل السيئة بالحسنة، وهذا أمر شاقّ على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلها، فإن أرادوا أن يحسنوا عفَوا عن المسيء. أما أن يقابلوا السيئة

---

(١) أي: سورة فصلت.

(٢) درة التنزيل ٤١٩ ـ ٤٢٠.

بالحسنة فذلك أمر شاقّ على الإنسان عسير عليه ، فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس والأخذ بالحق ويثبطه عن الإحسان إلى المسيء ، ولذا قال : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

وأما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين ، وهو أيسر من الإحسان إلى من أساء إليك ، ولذا أكّد وعرّف في سورة فصلت فقال : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وترك ذاك في سورة الأعراف . فوضع كل تعبير في المكان الذي يقتضيه» [1] .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الأنعام : ١٦] .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الجاثية : ٣٠] .

بذكر ضمير الفصل في آية الجاثية دون آية الأنعام .

يذكر ابن الزبير سبب هذا التخصيص فيقول : إن آية الأنعام قد تقدمها قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام : ١٥] ، ثم أعقبها بقوله : ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ والمراد به عذاب الآخرة ، فلم يتقدم من أول السورة إلى هذه الآية ما يتوَهَّم أنه فوز ، ولذا لم يكن هناك داعٍ إلى ضمير الفصل [2] .

«أما آية الجاثية فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبرًا عن قول منكري البعث : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ [3] فأفهم

---

(١) التعبير القرآني ١٤٢ .

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٣) الآية ٢٤ .

قوله: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أن هذه الحياة هي الحاصلة لهم ولا حياة وراءها، فمن تنعّم فيها فذلك فوزه، فأُخبروا أن الأمر ليس كما ظنّوا. وذكر تعالى أمر الساعة وتفصيل الأحوال فيها فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ ثم قيل: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ لا الحياة التي هي لهو ولعب، فكأن قد قيل لهم: ذلك هو الفوز لا ما ظننتموه فوزًا، فأحرز مفهوم الضمير هذا المقصود، ولم يتقدم في آية الأنعام ما يستدعيه»[1].

وقد تأملت في الآيتين فوجدت لهما توجيهًا آخر وهو أن الله تعالى قال في الأنعام: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، وقال في آية الجاثية: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، ويتضح أن الدرجة في آية الجاثية أعلى منها في آية الأنعام. وتوضيح ذلك أن (في) تفيد الظرفية، فكأن رحمة الله تضمهم وتجعلهم منغمسين ومتنعمين فيها، وهذا المفهوم غير موجود في آية الأنعام، حيث قال: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ بصيغة الفعل الماضي، ولذلك كانت درجة الفوز في آية الجاثية أعلى لعلوّ المكانة فيها. ولما كان الأمر كذلك أكد الفوز بالضمير (هو) في آية الجاثية، فكأنه قال: ذلك هو الفوز الحقيقي الذي يفوق كل فوز آخر والله أعلم.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥].

وقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ١٩] بزيادة ضمير الفصل (هو) في آية هود.

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٩٥.

يذكر ابن الزبير أن سبب تخصيص آية هود بزيادة ضمير الفصل أن فيها إطنابًا وتفصيلاً أكثر مما في الأعراف ، فإذا كان في الأعراف قد ذكر من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ، فقد زاد عليها في آية هود ذكر افترائهم الكذب على الله ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ [هود: ١٨] فناسب ذلك الإطناب زيادة ضمير الفصل (هم) (١).

ولذا «زاد لهم في العذاب فقال: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ﴾ وزاد في صفة الخسران فقال: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]» (٢).

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

والسؤال عن التوكيد بزيادة الضمير (هو) في آية الحج دون آية لقمان.

يبين ابن الزبير سبب تخصيص آية الحج بهذه الزيادة فيقول: «إن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه ، وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفًا بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم ، وأوضح هذا التكرار وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعتد فصلاً أو مبتدأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ، وقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) ينظر التعبير القرآني ١٥٥ ـ ١٥٦.

﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ ، هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ . . .

ولما لم يقع في سورة لقمان مثل هذا لم يرد فيها التأكيد بـ (هو)»[(١)] .

يفهم من كلامه هذا أن سبب التوكيد في آية الحج هو تكرر الإشارة إلى آلهتهم ومعبوداتهم الباطلة كالآيات التي ذكرها ، وكقوله تعالى : ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ [الحج : ١٢ ـ ١٣] .

وذهب بعض العلماء إلى أن آية الحج تقدمها عدة مؤكدات باللام والنون وإنّ كقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج : ٥٨ ـ ٦١] فناسب ذلك كله مجيء هذه الآية مؤكدة .

ولما لم يتقدم آية لقمان مثل ذلك ناسبه عدم التأكيد[(٢)] .

ويذكر الدكتور فاضل السامرائي سبباً آخر للتخصيص وهو أن «آية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل صراع الجهاد والدم ، ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السابقة وتكذيبهم لرسلهم بقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الحج : ٥١] فهنا سعي لإطفاء نور الله وقتل كلمة الحق ، ثم يسترسل إلى أن يقول : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٢٤ ـ ٧٢٥ .

(٢) ينظر البرهان للكرماني ١٨٢ ، وكشف المعاني ٢٦٥ .

سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨] وهذا من نتائج الصراع ، الهجرة من أرض إلى أرض أخرى والقتل والموت إلى أن ينتهي إلى الآية .

فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون .

ولا تجد مثل هذا في سورة لقمان ، وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١] .

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٣ ـ ٢٥] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ . . . ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ . . .﴾ الآية .

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف ، فهم في الصورة الأولى ساعون معاجزون معاندون مصارعون نتيجته هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم ، فاحتاج الأمر إلى توكيد أن ما هم عليه هو الباطل لزيادة تثبيت المؤمنين .

وفي الآية الثانية جدال ليس فيه صدام .

فلما كان الموقف مختلفًا اختلف التوكيد في الآيتين حسب ما اقتضاه السياق» [1] .

* * *

---

(١) معاني النحو ١/ ٥٧ ـ ٥٨ .

٢ ـ التوكيد بـ (كل):

إن (كل) اسم يفيد الاستغراق والعموم. جاء في (مغني اللبيب): «(كل): اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكر... والمعرّف المجموع... وأجزاء المفرد المعرّف»[(١)].

ويهمنا وروده في الآي المتشابه من الذكر الحكيم، فقد ورد في موطن ولم يرد في موطن مشابه له. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الأنفال: ٣٩].

نلاحظ أن آية الأنفال قد أُكّدت بـ (كل) ولم تؤكَّد آية البقرة. ولكي نعرف سبب التخصيص لا بد أن نقف على سبب نزول آية البقرة. جاء في (أسباب النزول) للواحدي (ت ٤٦٨ هـ) أن آية البقرة «نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صُدّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهَدي بالحديبية ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه ثم يأتي القابل على أن يُخلوا له مكة ثلاثة أيام فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء وصالحهم رسول الله ﷺ، فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله ﷺ هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا تفي لهم قريش بذلك وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام في الحَرَم فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[(٢)] يعني قريشاً»[(٣)].

---

(١) مغني اللبيب ١/ ١٩٣.

(٢) البقرة ١٩٠.

(٣) أسباب النزول ٥٠.

ومعنى هذا أن آية البقرة نزلت في قوم مخصوصين وهم الذين كانوا يناصبون الرسول والمؤمنين العداء، ولذا قال ابن الزبير: «فلم يكن ليناسبه الإطلاق والتعميم الحاصل من التأكيد بـ (كل) المحرزة للعموم والمقتضية للإحاطة والاستغراق» [(١)].

وقد ذكر الخطيب الإسكافي ما يدل على أن آية البقرة وردت في قتال أهل مكة فقال: «ألا ترى ما قبلها ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [(٢)] وهذا مختصّ بقتال قوم مخصوصين من أهل الشرك وهم نازلة الحرم» [(٣)].

ويذكر ابن الزبير سبب تأكيد آية الأنفال فيقول: «وأما آية الأنفال فقد قال قبلها: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [(٤)] وهذا بمقتضى اللفظ في كل كافر... فلما اقتضت الآية الاستغراق والعموم ناسب ذلك التأكيد المعمّم» [(٥)].

وقد وجّه كثير من العلماء هاتين الآيتين توجيه ابن الزبير سواء ممن تقدّمه أم ممن أتى بعده[(٦)].

٣ ـ التوكيد باللام:

من أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

---

(١) ملاك التأويل ١/١١٨.

(٢) الآية ١٩١.

(٣) درة التنزيل ٤٦.

(٤) الآية ٣٨.

(٥) ملاك التأويل ١/١١٨.

(٦) ينظر درة التنزيل ٤٦ ـ ٤٧، والبرهان للكرماني ٤٠، وتسهيل السبيل (سورة البقرة)، وروح المعاني ٢/٧٦.

وقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فقد دخلت لام التوكيد على (الدار) في آية الأنعام دون آية الأعراف.

يرى ابن الزبير أن هذه اللام هي اللام الموطّئة للقسم وليست لام الابتداء[١] ذاهبًا في ذلك مذهب الكوفيين[٢]. وسواء كانت لام الابتداء أم اللام الموطئة للقسم فهي تفيد التوكيد.

ويبين سبب تخصيص آية الأنعام بهذه اللام فيقول: إنها افتتحت بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ومعنى التأكيد في هذا يفهم من سياق الكلام، فناسب هذا مجيء هذه اللام التي تفيد التأكيد، وليس في الأعراف ما يقتضي هذا فلم تدخله تلك اللام[٣].

ثم إن هناك سببًا آخر دعا إلى تأكيد آية الأنعام دون آية الأعراف وهو «أن السياق في آيات الأنعام تتكلم على الدار الآخرة، وليس كذلك السياق في آيات الأعراف.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ . . . ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ . . . ﴿٢٨﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا . . . ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا . . . ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٣٢].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، وليس الأمر كذلك في آيات الأعراف، بل هو في العقوبات الدنيوية لبني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣١٨.

(٢) ينظر شرح الرضي على الكافية ٢/ ٣٥٥، وهمع الهوامع ١/ ١٤٠، وحاشية الصبان ١/ ٢٨١، وحاشية الخضري ١/ ١٣٤.

(٣) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣١٨.

﴿قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ
رَبِّكُمْ . . . ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً
خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
أُمَمًا ۖ . . . ﴿١٦٨﴾ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا
فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤ ـ ١٦٩].

فلما كان الكلام في آيات الأنعام على الدار الآخرة أكّدها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف على عقوبات الدنيا لم يؤكّد الآخرة باللام، بل أكّد سرعة العقاب لأنه عاجلهم به في الدنيا فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾»(١).

ويؤيد ذلك أنه قال في سورة النحل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] فأكّد الدار الآخرة باللام لأن السياق عن الدار الآخرة كما مر بنا في سورة الأنعام [تنظر الآيات: ٢٧ ـ ٣٣](٢).

* * *

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

وقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

---

(١) معاني النحو ١/ ٣٤٢.
(٢) ينظر معاني النحو ١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

وقوله: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر: ٧٦].

فقد زيدت لام الابتداء في آية النحل دون الآيتين الأخريين. يرى ابن الزبير أن سبب هذه الزيادة هو أن آية النحل تقدمها ثماني آيات أو نحوها في ذكر المقول لهم: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ وذلك من لدن قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤] إلى قوله: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ فناسب هذه الإطالة التأكيد باللام.

أما آيتا الزمر وغافر فليس فيهما هذه الإطالة، فآية الزمر لم يتقدمها سوى آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ ﴾ [الزمر: ٧١] (١).

«وأما آية سورة المؤمن(٢) فلم يقع أيضاً قبلها من استيفاء التعريف ما وقع في سورة النحل ولا نصّ من شنيع مرتكبهم على غير هذا التكذيب، فناسب ذلك سقوط اللام كما في الزمر» (٣).

ولكنني لاحظت أن الإطالة تشمل آية غافر أيضًا، وذلك من لدن قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩] إلى قوله: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ [غافر: ٧٦] وهذه تشمل سبع آيات.

كما لاحظت أن آيات النحل التي ذكرها ابن الزبير ست آيات، فإذا أخذنا برأيه فهذا يعني أن الإطالة في آيات غافر أكثر من الإطالة في آيات النحل. إلا إذا جعلنا المقول لهم: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ من لدن قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠١.
(٢) وهي سورة غافر.
(٣) ملاك التأويل ٢/ ٦٠١.

﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢] فعندئذ يكون عدد الآيات ثمانية كما ذكر ابن الزبير.

وقد وجههما الخطيب الإسكافي توجيهًا آخر فقال: إن آية النحل في ذكر قوم قد ضلّوا في أنفسهم وأضلّوا غيرهم. قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] وقد غلّظ العقاب عليهم بتأكيد لفظ (بئس) باللام، فهم أكثر الناس آثامًا وأشدهم عقابًا.

والسبب الآخر للتأكيد أنه قال في الآية التي بعدها: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] فاللام في (لنعم) بإزاء اللام في (لبئس) [(١)].

«وليس كذلك الآيتان في سورة الزمر والمؤمن، لأنهما في ذكر جملة الكفار، قال الله عز من قائل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾، وقال في سورة المؤمن: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٧٠] إلى قوله: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾ فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم وزران: عن ذنوبهم التي أتوها وعن ذنوب غيرهم التي حصلوا عليها، ولم يذكر مَن سواهم في الآيتين الأخيرتين يحمل أثقالاً مع أثقالهم حسن التوكيد هناك فضلَ حسنٍ، فلذلك خصّ باللام» [(٢)].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه «أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يُفِضْه في السورتين الأخريين، فناسب ذلك أيضًا ذكر اللام والزيادة في التأكيد، إذ كما زاد وتبسّط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة» [(٣)].

* * *

(١) ينظر درة التنزيل ٢٦٣.

(٢) درة التنزيل ٢٦٣.

(٣) التعبير القرآني ١٢٦.

٤ ـ التوكيد بإن واللام:

قد تذكر اللام مع وجود (إن) وقد لا تذكر ، وإذا ذكرت فإنما تفيد زيادة التوكيد. جاء في (دلائل الإعجاز) : «وأما جعلها إذا جمع بينها وبين اللام نحو (إن عبد الله لقائم) للكلام مع المنكِر فجيد ، لأنه إذا كان الكلام مع المنكِر كانت الحاجة إلى التأكيد أشد ، وذلك أنك أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبرك إذا كان من يدفعه وينكر صحته . . . وجملة الأمر أنك لا تقول : (إنه لكذلك) حتى تريد أن تضع كلامه وضع من يزع فيه عن الإنكار» [١] .

وجاء في (الإيضاح) : «فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر والتردد فيه ، استغنى عن مؤكدات الحكم كقولك : (جاء زيد) و (عمرو ذاهب) فيتمكن في ذهنه لمصادفته إياه خالياً . وإن كان متصور الطرفين مترددًا في إسناد أحدهما إلى الآخر طالبًا له حسُنَ تقويته بمؤكد كقولك : (لَزيدٌ عارفٌ) ، أو (إن زيداً عارفٌ) . وإن كان حاكماً بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار فتقول : (إني صادقٌ) لمن ينكر صدقك ولا يبالغ في إنكاره ، و(إنني لصادقٌ) لمن يبالغ في إنكاره» [٢] .

وجاء في (معاني النحو) : «إن كلاًّ من (إنّ) واللام يفيد التوكيد ، فاجتماعهما يؤدي ولا شك إلى الزيادة في التوكيد ، وهو أقوى من التوكيد بإن وحدها أو باللام وحدها» [٣] .

بعد هذه المقدمة التي رأينا فيها فائدة ذكر اللام مع (إنّ) نعود إلى

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٩ .

(٢) الإيضاح ١٨ .

(٣) معاني النحو ١/ ٣٤٩ ، وينظر شرح المفصل ٨/ ٦٢ ـ ٦٣ ، والبرهان للزركشي ٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

الآيات القرآنية التي ذكرت اللام مع (إنّ) في موطن منها ولم تذكر معها في الآيات المشابهة لها لنرى سبب ذلك.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ففي هاتين الآيتين لم يذكر اللام في خبر (إنّ).

في حين ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فما السبب؟

يقول ابن الزبير: إن سبب ذلك التخصيص هو أن آية آل عمران افتتحت بقوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فعرّفوا بثلاثة أنواع من الابتلاء هي الأموال والأنفس وسماع الأذى.

أما آية لقمان فقد افتتحت بقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ﴾ وهذه خصال أربع أمر بها لقمان ابنه.

فأنواع الابتلاء في الآية الأولى، والخصال التي أمر الله بها لقمان ابنه في الآية الثانية قليلة، فناسبها عدم ذكر اللام.

وأما آية الشورى فقد أشار بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ إلى اثني عشر مطلوبًا، وذلك من لدن قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦] فأشار إلى الإيمان والتوكل.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] فهذه التزامات ثلاثة.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] فهذه التزامات أربعة.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] فأشار إلى أنهم لا يظلمون أحدًا، وأن أقصى ما يقع منهم الانتصار ممن يظلمهم.

ثم قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٠ ـ ٤١].

وبعد أن ذكر هذه الخصال الكثيرة قال تعالى في التزام جميعها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فناسب كثرة هذه الخصال الجليلة زيادة اللام المؤكدة في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. ولم يكن في الآيتين قبلها كثرة، فناسبها عدم زيادة اللام(١).

وقد وجه ابن الزبير آيتي لقمان والشورى في سورة لقمان توجيهًا آخر فقال: إن سبب زيادة لام التوكيد في آية الشورى هو دخول اللام الموطّئة للقسم في قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ التي تفيد التوكيد.

وهذا بخلاف آية لقمان التي لم تدخل لام التوكيد في خبرها لأنه ليس فيها قسم ولا ما يستدعي القسم(٢).

وقد وجه الخطيب الإسكافي وغيره آيتي لقمان والشورى توجيهًا آخر فقالوا: إن ما رغّب الله تعالى فيه عبده في آية الشورى من الصبر على الإساءة والمغفرة لمن أساء إليه أمر يشقّ على الإنسان فعله، فناسب ذلك توكيد الكلام بـ (إنّ) واللام فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وليس كذلك ما في آية لقمان، فقد أمر لقمان ابنه بالصبر على ما أصابه فقط، وهذه الإصابة غير محددة، فقد تكون ظلمًا يقع من إنسان

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٧٩٠ ـ ٧٩١.

على إنسان ، وقد تكون ابتلاءً يقع من قبَل الله تعالى ، فلم يكن هناك ما يستدعي من التوكيد كما رأينا في آية الشورى(١) .

ولتوضيح هذا الرأي أقول: إن الله تعالى أمر الإنسان في آية الشورى بشيئين: الصبر على إساءة تقع على الإنسان ظلمًا ، والمغفرة لمن أساء إليه ، وهذا أمر يشق على الإنسان فعله ، وذلك لأن الإنسان يحب أن ينتصر لنفسه. أما أن يصبر على العدوان ويغفر لمن اعتدى عليه ، أي أن يدفع بالتي هي أحسن ، فهذا أمر صعب ، فاحتيج في هذه الآية إلى التوكيد بـ (إنّ) واللام.

وهذا التوجيه يذكّرنا بتوجيه الخطيب ومن تبعه لآية فصّلت ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦] وقد سبق ذكرها. فقد ذكرنا رأيه في سبب تخصيص هذه الآية بذكر ضمير الفصل (هو) الذي يفيد التوكيد حيث قال: إن هذه الآية سبقها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] ومقابلة الإساءة بالإحسان أمر يشق على الإنسان فعله ، ولذا استعمل ضمير الفصل(٢) .

أقول: إن مضمون آيتي فصلت والشورى واحد هو مقابلة الإساءة بالإحسان والمغفرة لمن أساء ، ولما كان الأمر كذلك زاد التأكيد بذكر ضمير الفصل (هو) في آية فصلت ، وبذكر لام التوكيد في آية الشورى.

أما آية لقمان فقد أمر فيها لقمان ابنه بالصبر على ما أصابه ، وهذه الإصابة قد تكون ظلماً يحل به وقد تكون ابتلاءً من الله تعالى. وهذه الحالة

---

(١) ينظر درة التنزيل ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١ ، والتعبير القرآني ١٦٩ ، ووجوه من الإعجاز القرآني ٥٥.

(٢) ينظر صفحة ٢٥٨.

أخف من الحالة الأولى ، فلم يحتج فيها إلى الزيادة في التوكيد فاكتفى بتوكيدها بـ (إنّ) وحدها .

* * *

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : ١٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [غافر : ٥٩] .

يقول ابن الزبير : إن سبب تخصيص آية غافر بذكر لام التوكيد دون آية طه هو «أن آية طه وردت أثناء خطاب رسول الله ﷺ بالتأنيس والتسلية عما يلقاه من مكابرة قريش وسائر كفار العرب ، وتعريفه بما جرى لموسى عليه السلام وظهوره على فرعون ، فلم يكن ليناسب ذلك تأكيد الخبر عن أمر الساعة ، إذ هو عليه السلام من أمرها على أوضح جادة .

أما آية غافر فإن قبلها تعنيف الكفار من قريش وغيرها ، وعلى ذلك استمرت الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [(١)] فناسب ذلك من حالهم تأكيد الإخبار عن إتيان الساعة بدخول اللام» [(٢)] .

والحق أن الخطاب في آيات طه ليست للنبي ﷺ كما ذكر ابن الزبير ، وإنما هي لموسى عليه السلام. يقول الخطيب الإسكافي : «والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام وهي في ضمن كلام الله تعالى : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ . . . ولم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكريه والجاحدين له» [(٣)] .

---

(١) الآيات ٥٦ ـ ٥٨ .

(٢) ملاك التأويل ٢/ ٦٧٧ .

(٣) درة التنزيل ١٥٢ .

وعلى هذا فإن الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون الساعة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦] ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [غافر : ٥٩] أي لا يؤمنون بالساعة .

بخلاف آية طه فقد ذكرنا أن الخطاب فيها لموسى عليه السلام ، فلم يكن ليناسب ذلك تأكيدها باللام لأنه ليس منكرًا لها .

«ثم انظر إلى السياق مرة أخرى ، فقد قال تعقيباً على إتيان الساعة في سورة غافر : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها ، بخلاف سورة طه فقد قال : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾ .

فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع وأن يحذف ما حذف .

ومن ناحية أخرى أن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيامة ، بل إن جو السورة هو في الكلام على الساعة . قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر : ٤٧] .

وانظر الآيات من ٧٠ ـ ٧٦ فاقتضى المقام زيادة التوكيد في هذه السورة» (١) .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] .

---

(١) التعبير القرآني ١٦٨ .

ففي آية الأنعام أكد سرعة العقاب بـ (إنّ) وحدها ، وفي آية الأعراف أكدها بـ (إنّ) واللام ، فما سبب ذلك؟

يجيب ابن الزبير عن هذا السؤال فيقول: إن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١] وهذا خطاب للنبي ﷺ ، إلى قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] والمخاطبون أمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهم ليسوا بجملتهم ممن استحقّ عقاباً ، ومن عوقب من أهل القبلة فعقابه منقطع بفضل الله ، وعلى هذا فلا وجه لزيادة تأكيد سرعة العقاب.

وأما آية الأعراف فتقدمها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] والمقصودون بهذا الوعيد هم بنو إسرائيل وقد تقدم ذكرهم وذكر ما ارتكبوا من المعاصي والآثام ، فناسب ذلك زيادة تأكيد سرعة العقاب ليناسب ما اجترحوا من السيئات(١).

ويقول بدر الدين بن جماعة: «إنه لما تقدم ما يؤذن بالكرم والإحسان في قوله: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ناسب ترك التوكيد في جانب العقاب.

وفي الأعراف لما تقدم ما يؤذن بغضب الله وعذابه من اتخاذهم العجل وحلّ السبت ناسب توكيد جانب العذاب بدخول اللام»(٢).

ويقول الزركشي: «والفرق بين هذه الآية وآية الأنعام حيث أتى هنا باللام فقال: (لسريع العقاب) دون هناك أن اللام تفيد التوكيد فأفادت هنا تأكيد سرعة العقاب لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل ، وهو عقاب

---

(١) ينظر ملاك التأويل ١/ ٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٢) كشف المعاني ١٧٣.

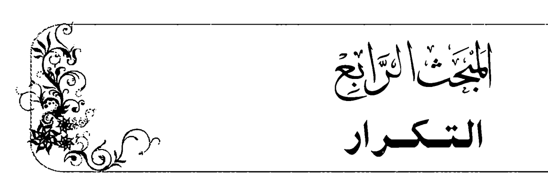
بني إسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ لأنه في سياق قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فتأكيد السرعة أفاد بيات التعجيل وهو مناسب.

بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام فإنه آجل بدليل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فاكتفى فيه بتأكيد (إن)، ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد»[١].

وبذا قد جاء كل تعبير في سياقه.

* * *

(١) البرهان ٤/ ٦٥ ـ ٦٦.

المَبحَث الرّابِع
التكرار

في القرآن الكريم آيات مكررة ، وقد يرد تكرارها مرات عديدة. وربما يظن ظانّ للوهلة الأولى أن هذا التكرار لا فائدة فيه ، وأن عدم تكرار الآية لا يخل بسياقها.

والحق أن أسلوب التكرار من الأساليب البلاغية الرفيعة ، ويتضح ذلك من الآيات القرآنية ، فما يكرر منها فإنما يكرر لأمر يقتضيه سياق النص ، بحيث لو لم تكرر الآية لاختل جمال الأداء القرآني.

يقول الزركشي في كلامه على أسلوب التكرار: «وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظانًّا أنه لا فائدة فيه ، وليس كذلك ، بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض ، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقُرْب وقوعِه أو قصدت الدعاء عليه توكيدًا ، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسَم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه حيث تقصد الدعاء ، وإنما نزل القرآن بلسانهم وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض. وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة.

وعلى ذلك يحتمل من تكرار المواعظ والوعد والوعيد ، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة وكلها داعية إلى الشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع» [١].

---

(١) البرهان ٣/ ٩.

وبعض الآيات جاء تكرارها للتوكيد ، وبعضها الآخر لم يفد تكرارها توكيدًا ، وللتفرقة بينهما أقول: إن الآيات التي لا تفيد في تكرارها معنًى جديدًا ، وإنما تعطي المعنى نفسه فهي للتوكيد ، وأما الآيات التي تفيد في تكرارها معنًى جديدًا فتكرارها ليس للتوكيد.

وهناك آيات اتفق على أن تكرارها للتوكيد ، وآيات أخرى مختلف فيها ، فبعض العلماء يذهب إلى أنها للتوكيد ، وبعضهم يميل إلى أنها ليست للتوكيد.

ومنبع هذا الخلاف فهمهم للآيات القرآنية المكررة ، فإن لم يروا في تكرارها معنًى جديدًا فهي للتوكيد ، وإن رأوا معنًى جديدًا فتكرارها ليس للتوكيد.

وسنقف على بعض الآيات القرآنية المكررة التي وقف عليها ابن الزبير لنرى رأيه فيها ومدى اتفاقه واختلافه مع غيره من العلماء.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤ـ٣٥].

يرى ابن الزبير أن سبب التكرار هو أنه تقدم هاتين الآيتين وصف المجرم المكذب بقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٣] ولهذا فهو يستحق هذا الدعاء ، لأن (أولى) مقلوب (ويل). وأكد هذا الدعاء بتكراره إشعاراً بأنه عمل عملاً يستحق بسببه هذا النوع من العقاب[1].

ومعنى هذا أن ابن الزبير يرى أن الآية الثانية جاءت تأكيدًا للآية الأولى ؛ لأنه لم يشر إلى إفادتها معنًى جديدًا.

ويرى كل من الخطيب الإسكافي والشوكاني أن الآية الثانية ليست

---

(١) ينظر ملاك التأويل ٢/ ٩٣٣ ـ ٩٣٤.

توكيدًا للآية الأولى. أما السبب عند الخطيب فهو أن الآية الأولى يراد بها الهلاك في الدنيا ، والآية الثانية يراد بها الهلاك في الآخرة[1] .

وأما معنى التكرار عند الشوكاني في هذه الآية فهو «الويل لك حيًّا ، والويل لك ميتًا، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار» [2] .

وقد ذهب الدكتور فاضل السامرائي إلى ما ذهب إليه ابن الزبير من أن الآية الثانية جاءت تأكيدًا للآية الأولى فقال: إن سبب التكرار هو أنه «ذكر عدم التصديق وأكّده بالتكذيب ، وذكر عدم الصلاة وأكّده بالتولي ، ولكلٍّ تهديد ووعيد ، فكرره أربع مرات ، كل وعيد مقابل صفة» [3] .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

يرى ابن الزبير أن الآية الثانية ليست تأكيدًا للآية الأولى معتمدًا في ذلك قول النحاة: «إن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى ، وإذا أعيدت معرفة أو أعيدت المعرفة معرفة كان الثاني عين الأول. . . تقول: (اشتريت فرساً ثم بعت فرساً) فيكون الثاني غير الأول ، ولو قلت: (ثم بعت الفرس) لكان الثاني عين الأول» [4] .

يقول ابن الزبير: إن الله بشر «عباده بأن العسر يتبعه اليسر وتأكد ذلك بـ (إنّ) المؤكدة للخبر ، وزيد تأكيداً بالتكرير وتوسيع التأنيس بالإشعار الحاصل من تنكير اليسر وتعريف العسر ، فإن العرب إذا أعادت الاسم

---

(١) ينظر درة التنزيل ٥٠٩ .

(٢) فتح القدير ٥/ ٣٣٢.

(٣) لمسات بيانية ٢٣٠ .

(٤) مغني اللبيب ٢/ ٦٥٦ ، وينظر شرح قطر الندى ١٥٦ .

بأداة العهد ـ وهي الألف واللام ـ كان المذكور ثانيًا هو المذكور أولاً . وسواء كان المذكور أولاً نكرة أو معرفة ، تقول : (لقيت رجلاً فأكرمت الرجل) إنما تريد الأول الذي لقيته ، فإذا قلت : (لقيت رجلاً فأكرمت رجلاً) كان الثاني غير الأول ، هكذا كلامهم .

وقد وقع اليسر في الآية منكرًا في الموضعين فأشعر بالتوسعة ، ولهذا قيل : (لن يغلب عسر يسرين) فتحصل من التكرير وتنكير ما نكّر توسعة طرق الرجاء والتأنيس ، وذلك مناسب لما بنيت عليه السورة» (١) .

وقد سبقه إلى هذا الرأي الخطيب الإسكافي حيث قال : «قال عليه الصلاة والسلام : (لن يغلب عسر يسرين) لأن العسر لما أعيد لفظه معرّفًا كالأول لم يكن إلا إياه ، و(يسر) لما أعيد لفظه نكرة كان غير الأول ، وإذا لم يكن ذاك لم يكن تكرارًا» (٢) .

ويفهم من هذا أن التكرار عند الخطيب هو ما لا يفيد معنًى جديدًا ، أي هو ما أتى للتوكيد ، وما أفاد معنًى جديداً لا يكون تكرارًا عنده .

وقد خالف الزركشي هذا الرأي فقال : «إن الجملة الثانية هنا تأكيد للأولى لتقريرها في النفس وتمكينها من القلب ولأنها تكرير صريح لها ولا تدل على تعدد اليسر ، كما لا يدل قولنا : (إن مع زيد كتاباً إن مع زيد كتابًا) على أن معه كتابين ، فالأصح أن هذا تأكيد» (٣) .

ويبدو لي أن ما ذهب إليه ابن الزبير والخطيب الإسكافي ومن ذهب مذهبهما هو الرأي الراجح ، فالعسر واحد لأنه تكرر وهو معرفة ، أما

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٩٥٣ .

(٢) درة التنزيل ٥٣٣ ، وينظر تفسير الرازي ٣٢/ ٦ ، وتفسير القرطبي٢٠/ ١٠٧ ، وتفسير النسفي ٤/ ٣٦٦ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٥ .

(٣) البرهان ٤/ ٩٨ .

اليسر فهو متعدد ، فـ (يسر) الثاني غير الأول لأنه ورد نكرة ، ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث الشريف (لن يغلب عسر يسرين) فاليسر متعدد والعسر واحد والله أعلم.

* * *



الخاتمة

أحمدك ربي كما علمتني أن أحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ، وبعد :

في ختام هذه الرحلة مع كتاب (ملاك التأويل) أجمل أهم النتائج التي توصلت إليها في دراستي بما يأتي :

ـ كان ابن الزبير عالم الأندلس في القراءات والتفسير والحديث واللغة وأنواع العلوم المختلفة كما وصفه أصحاب كتب التراجم . وقد ظهر أثر ذلك في كتابه (ملاك التأويل) حيث حوى مسائل كثيرة في القراءات والحديث واللغة والنحو وغير ذلك كما رأينا لك في دراستنا الكتاب .

ـ لم يورد ابن الزبير جميع الآيات المتشابهة لفظًا في الملاك وإنما وجّه قسمًا كبيرًا منها . وهناك آيات متشابهة كثيرة وجّهها غيره من العلماء ، وآيات متشابهة أخرى بنا حاجة إلى توجيهها .

ـ ذكر ابن الزبير في مقدمة كتابه أنه لم يكن يرجع إلى كتاب الدرة إلا بعد أن يذكر رأيه ، ولذا وقفنا على كثير من التوجيهات التي ذكرها تختلف عن توجيهات الخطيب . وهذا ما جعل كتابه يزداد أهمية .

ـ هناك آيات متشابهة كثيرة اختلف ابن الزبير في توجيهها عن توجيه من سبقه أو من أتى بعده من العلماء ، أي أنه انفرد برأيه فيها .

كما أن هناك آيات متشابهة لم أعثر على توجيهات لها غير التي ذكرها

ابن الزبير ، وهذا ما يزيد في القيمة العلمية لكتاب الملاك .

ـ رأينا آيات لها أكثر من سبب للتخصيص ، فقد يكون للآيتين المتشابهتين توجيهان أو ثلاثة أو أكثر ، وربما لو تأملنا فيهما لوجدنا لهما توجيهات أخرى لم يسبق لها ذكر ، وهذا يدل على أن كتاب الله تعالى لا تنقضي عجائبه كما جاء في الحديث الشريف .

ـ مرت بنا آيات متشابهة وفق ابن الزبير في توجيهها توفيقًا كبيرًا ، وآيات أخرى تكلف في توجيهها تكلفًا واضحًا . كما أن هناك آيات لم يوفق ـأو ربما أخطأـ في توجيهها . وهذا ما رأيناه عند غيره من العلماء والمفسرين .

ـ يمكن التوصل إلى كثير من التوجيهات بمعرفة القواعد النحوية والصرفية ، وهذا يعني أن الذي لا يعرف القواعد النحوية والصرفية معرفة جيدة لا يستطيع الاهتداء إلى معرفة سبب اختصاص كل آية بما خصت به .

كما أن معرفة سبب النزول يساعد كثيرًا على توجيه الآيات المتشابهة ، كما رأينا أثر ذلك في توجيه ابن الزبير وغيره من العلماء .

وأختم بحثي هذا بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

* * *

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين بن الخطيب - تحقيق الدكتور محمد عبد الله عنان - الشركة المصرية للطباعة والنشر - الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

- أدب الكاتب - أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينوري - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر.

- أسئلة بيانية في القرآن الكريم - الدكتور فاضل صالح السامرائي - مكتبة الصحابة - الشارقة - الطبعة الأولى١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

- أسباب نزول القرآن - أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي - تحقيق سيد صقر - دار القبلة للثقافة الإسلامية - الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

- الأصول في النحو - أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦ هـ) - تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي - مطبعة النعمان - النجف الأشرف ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي - مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع - بيروت.

ـ الإيضاح في علوم البلاغة ـ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ـ تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة.

ـ البحر المحيط ـ أثير الدين أبو عبد الله بن حيان الأندلسي ـ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ـ الرياض.

والآخر: تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

ـ بدائع الفوائد ـ ابن قيم الجوزية ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ محمد بن علي الشوكاني ـ مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.

ـ بديع القرآن ـ ابن أبي الإصبع المصري ـ تحقيق حفني محمد شرف ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة ١٣٨٣هـ.

ـ البرهان في توجيه متشابه القرآن ـ محمود بن حمزة الكرماني ـ تحقيق عبد القادر أحمد عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت. والآخر: دار الفضيلة.

ـ البرهان في علوم القرآن ـ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي ـ تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ـ القاهرة ١٣٨٣هـ.

ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار - الأردن - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- البيان في غريب إعراب القرآن - أبو البركات بن الأنباري - تحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- تاج العروس من جواهر القاموس - محمد مرتضى الزبيدي - دار مكتبة الحياة - بيروت.

- التبصرة في القراءات السبع - مكي بن أبي طالب - تحقيق محمد غوث الندوي - نشر وتوزيع الدار السلفية - الهند - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- تحرير التحبير - ابن أبي الإصبع المصري - تحقيق حفني محمد شرف - مكتبة نهضة مصر - الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- التحرير والتنوير - محمد الطاهر ابن عاشور - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- تذكرة الحفاظ - أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- تسهيل السبيل - أبو الحسن محمد بن محمد البكري - مخطوطة بمكتبة الأوقاف ببغداد - رقم. ٢٣٢٠

- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك - تحقيق محمد كامل بركات - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - ١٣٧٣هـ - ١٩٦٧م.

- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار عمار الأردن - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار إحياء الكتب العربية - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- التفسير القيم - ابن قيم الجوزية - جمع محمد أويس الندوي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

- تفسير مجاهد - مجاهد بن جبر - تحقيق عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي - مجمع البحوث الإسلامية - إسلام آباد.

- تفسير النسفي - أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي - دار إحياء الكتب العربية.

- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس - أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي - دار الجيل - بيروت.

- التيسير في القراءات السبع - أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني - تصحيح أوتوبرتزل - استانبول - مطبعة الدولة١٩٣٠م.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - دار الفكر - بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- الجملة العربية تأليفها وأقسامها - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - الطبعة الأولى١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

- الجملة العربية والمعنى - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن حزم - الطبعة الأولى١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- الجنى الداني في حروف المعاني - حسن بن قاسم المرادي - تحقيق الدكتور طه محسن - دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

ـ جواهر الأدب في معرفة كلام العرب ـ علاء الدين بن علي الأربلي ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م.

ـ حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ـ محمد بن مصطفى الخضري ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ـ حاشية الصبان على شرح الأشموني ـ محمد بن علي الصبان ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ـ حاشية يس على شرح التصريح ـ الشيخ يس بن زين الدين العليمي الحمصي ـ طبعت مع شرح التصريح ـ دار إحياء الكتب العربية بمصر ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ـ الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٦م.

ـ درة التنزيل وغرة التأويل ـ الخطيب الإسكافي ـ نشر عادل نويهض ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

ـ درة الحجال في أسماء الرجال ـ أبو العباس بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي ـ تحقيق محمد الأحمدي أبي النور ـ دار التراث ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

ـ درة الغواص في أوهام الخواص ـ القاسم بن علي الحريري ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر.

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد سيد جاد الحق ـ دار الكتب الحديثة.

ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية والدكتور فايز الداية ـ دار قتيبة ـ الطبعة الأولى١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ـ ابن فرحون المالكي ـ تحقيق وتعليق الدكتور محمد الأحمدي أبي النور ـ دار التراث للطبع والشر.

ـ ديوان امرئ القيس ـ تحقيق مصطفى عبد الشافي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

ـ ديوان جرير ـ تحقيق نعمان محمد أحمد أمين ـ دار المعارف بمصر.

ـ ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمني ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥١م.

ـ ديوان الخنساء ـ تحقيق وشرح كرم البستاني ـ مكتبة صادر ـ بيروت.

ـ ديوان الفرزدق ـ تحقيق المستشرق جيمس د. سايمز ـ مكتبة الثقافة العربية ـ بغداد.

ـ ديوان الهذليين ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨م.

ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي ـ تحقيق محمد بن شريفة ـ دار الثقافة ـ بيروت.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ سر الإعجاز في تنوّع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن ـ الدكتور عودة الله منيع القيسي ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ـ محمد بن محمد مخلوف ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ.

- شذا العرف في فن الصرف - أحمد الحملاوي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - الطبعة الحادية والعشرون ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي - دار المسيرة - بيروت - الطبعة الثانية١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- شرح ابن عقيل - بهاء الدين عبد الله بن عقيل - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - علي بن محمد الأشموني - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

- شرح شافية ابن الحاجب - رضي الدين الإستراباذي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين - مطبعة حجازي بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.

- شرح قطر الندى وبل الصدى - أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الثانية عشرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

- شرح الكافية الشافية - جمال الدين أبو عبد الله بن مالك الطائي - تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي - دار المأمون للتراث - الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- شرح الكافية في النحو - رضي الدين الإستراباذي - دار الكتب العلمية - بيروت.

- شرح المفصل - موفق الدين بن يعيش النحوي - إدارة الطباعة المنيرية.

- شعر ابن ميادة - جمع وتحقيق حنّا جميل حدّاد - دمشق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

ـ الصحاح ـ إسماعيل بن حمّاد الجوهري ـ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ـ دار الكتاب العربي.

ـ صحيح البخاري ـ محمد بن إسماعيل البخاري ـ مطابع الشعب ١٣٧٨هـ.

ـ صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج ـ مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ ميدان الأزهر.

ـ طبقات المفسرين ـ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ـ يحيى بن حمزة العلوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ العين ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور مهدي المخزومي ـ دار الرشيد للنشر.

ـ فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير ـ محمد ابن علي الشوكاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ.

ـ الفوائد الضيائية ـ نور الدين عبد الرحمن الجامي ـ تحقيق الدكتور أسامة طه الرفاعي ـ مطبعة وزارة الأوقاف في الجمهورية العراقية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق ـ بيروت ـ الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

ـ القاموس المحيط ـ الفيروزابادي ـ دار الفكر ـ بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

ـ الكتاب ـ أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه ـ نسخة مصورة

على طبعة بولاق ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ جار الله الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م. والآخر: تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ حاجي خليفة ـ المكتبة الإسلامية والمكتبة الجعفري ـ طهران ـ الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ.

ـ كشف المعاني في المتشابه من المثاني ـ بدر الدين بن جماعة ـ تحقيق الدكتور عبد الجواد خلف ـ دار الوفاء ـ الطبعة الأولى١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

ـ الكليات ـ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ـ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ـ دار إحياء التراث العربي ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ نسخة مصورة على طبعة بولاق ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار عمار ـ الأردن ـ الطبعة الأولى١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الأثير ـ تحقيق الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى١٣٨٠هـ ـ ١٩٨٠م.

ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ـ تحقيق عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري وعبد العال السيد

إبراهيم ـ الدوحة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٠م.

ـ المختصر في شواذّ القراءات ـ ابن خالويه ـ نشر برجستراسر ـ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٤م.

ـ المساعد على تسهيل الفوائد ـ بهاء الدين عبد الله بن عقيل ـ تحقيق الدكتور محمد كامل بركات ـ دار الفكر بدمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

ـ المستدرك على الصحيحين ـ أبو عبد الله محمد النيسابوري المعروف بالحاكم ـ مكتبة النهضة الحديثة ـ الرياض.

ـ المستقصى من أمثال العرب ـ جار الله محمود بن عمر الزمخشري ـ طبعة حيدر آباد ـ الهند ـ الطبعة الأولى ١٩٦٣م.

ـ المصباح المنير ـ الفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.

ـ معاني الأبنية في العربية ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

ـ معاني القرآن ـ أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ الطبعة الثانية١٩٨٠م.

ـ معاني النحو ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ الجزءان الأول والثاني في مطبعة التعليم العالي في الموصل ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧م، والجزءان الثالث والرابع في مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر ـ بغداد ١٩٩١م.

ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد علي البجاوي ـ دار الفكر العربي.

ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

ـ معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ـ أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ـ مفاتيح الغيب ـ الفخر الرازي ـ دار الكتب العلمية ـ طهران ـ الطبعة الثانية.

ـ المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ ضبط ومراجعة محمد خليل عيتاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

ـ المفصل في علم العربية ـ جار الله محمود بن عمر الزمخشري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة حجازي بالقاهرة.

ـ المقتضب ـ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ـ تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة ١٣٨٦هـ.

ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، والنسخة الثانية دراسة وتحقيق سعيد الفلّاح ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

ـ من أسرار البيان القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولى١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ـ جمال الدين أبو المحاسن

يوسف بن تغري بردي الأتابكي ـ تحقيق أحمد يوسف نجاتي ـ دار الكتب المصرية ـ الطبعة الأولى ١٩٥٦م.

ـ النشر في القراءات العشر ـ أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري ـ مراجعة وتصحيح علي محمد الضباع ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر.

ـ نظم الدرر في تناسب الآي والسور ـ برهان الدين البقاعي ـ حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

ـ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ـ فخر الدين الرازي ـ تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي ومحمود بركات حمدي ـ دار الفكر ـ عمان ١٩٨٥م.

ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ـ إسماعيل باشا البغدادي ـ المكتبة الإسلامية ـ طهران ـ الطبعة الثالثة ١٩٤٧م.

ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٧٥م.

ـ الوافي بالوفيات ـ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ـ اعتناء س. ديدرينغ ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٢م.

ـ وجوه من الإعجاز القرآني ـ مصطفى الصباغ ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع | رقم الصفحة

الفصل الأول

دراسة الكتاب

الفصل الثاني

دراسة المفردة

الفصل الثالث

دراسة التركيب

* * *

رسالة ماجستير أكاديمية تدرس المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب (ملاك التأويل) لأبي جعفر الغرناطي المتوفى في القرن الثامن الهجري.

وتتضمن هذه الرسالة دراسة لحياة المؤلف من الميلاد حتى الوفاة، وتعريفاً بالكتاب، وطريقته، ومنهجه، مع تفصيل القول في شواهده المتنوعة، ومصادره.

كما درس المؤلف اختلاف المفردة في الآي المتشابه الذي ذُكر في (ملاك التأويل).

وبسط القول في دراسة التركيب في الآي المتشابه: من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتأكيد، والتكرار.

وقام هذا الكتاب على منهج علمي في التحقيق، يعكس علم المحقق، وطريقته الرائدة في هذا النهج.




ISBN: 978-614-415-168-6

www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com